مُعجزاتُ قلبِ القُرآنْ (يس)

هاشم محمّد سعيد دفتردار

مُعجزاتُ قلبِ القُرآن

تأليف

هاشم محمد سعيد دفتردار المدني

دار الشروق جدة
للنشر والتوزيع والطباعة

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة

١٤٠٢ / ١٤٠٣هـ
١٩٨٢ / ١٩٨٣م

دار الشروق جدة
للنشر والتوزيع والطباعة

الإدارة ت : ٦٣١٠٠٣٢
المكتبة ت : ٦٤٢٦٦١٠
تلكس SJ ٤٠١٢٠٩ ~ برقياً: مشكاتنا
ص.ب : ٤١٤٦ جدة

مُعجزاتُ قلبِ القُرآن

الإهداء

عادةٌ درج عليها جلّ المؤلفين منذ أبعد الأزمان ، لاعتبارات في أنفسهم .

١ – مؤلفٌ يهدي ، لأنعمٍ سلفت ، أو مودة خالصة تحققت :
وهو وفيٌّ ، والوفاء انسانية .!!

٢ – ومؤلفٌ يهدي لأنعمٍ يتوخى الوصول اليها ، أو لمودةٍ يرجو الانتفاع بها . وهو آملٌ . والأمل لا يصدق إلا لدى الكرام، والكرام قليل .!!

٣ – وهناك مؤلفون انسانيون ، أهدوا لأبطال عالمين ، زاروا كرتنا الأرضية ، وحققوا مودّات أمن وإيمان وثقة ونصح : بين أهلها ، دون ما تمييز بين شرقي وغربي، وبين أبيض وأسود، وبين مثقف وأمي ، وبين قريب وبعيد ، وبين متفتح على الناس ومتزمت منطوٍ على نفسه .

وكان ما حققوه من النعم لا كمثلها النعم سموّ انسانيةٍ ، وشمولَ هداية ، ونضرة سعادة، وخلود سلام، واستمرار عطاء ، وتجدد مودة .

ويهزني هذا اللون من الإهداء ، وأوثره على كل إهداء . لأن مكان أولئك الأبطال من كل قلبِ بشرٍ انسان ، مكان خفقة الحب .

وصنّفتهم أدق تصنيف ، فما رأيتني ذقتُ يقين الطمأنينة متفجــرةً ينابيع سماء في الأرض ، وينابيع آدمية في الحيوانية ، وينابيـع معرفة في الأمية إلا من مصدرين كريمين متلازمين مصدر أعمـــال رسل الله ، ومصدرُ وحي الله .

وبما أن أُولي العزم من رسل الله : نُوحاً ، وابراهيمَ ، وموسى ، وعيسى ، ومحمداً – صلواتُ الله وسلامه عليهم – كانوا أرفعَ بنياناً ، وأسطعَ برهاناً ، وأسمى إنسانيةً ، وأكثر إفادةً للأفراد والجماعات كافة.

حَدا بي صدق الإيمان أن أرفعَ مؤلفي هـــذا إلى قُدسِ مكانهم العالي المتألق ، في محراب السماء .

أمَا هدموا مغاورَ الأدغالِ الوحشية في أنفسنا ؟!! وسَلسلوا نزغات غرائزها الخاسرة بكبتِ وحي الله ، ومعارفه الصاعدة ، وحضارته الراقية ، وشرائعه العادلة .

رفعته إلى مكانهم المقدس في أفُق السماء الأعلى ، وأنا أُلوِّح بـــه تقدمة متواضعة إلى شامخ أمجادهم المباركة . وسعادتي بقبولـه لا تحد ، لأن ما كمَّلهم الله به من خلقٍ لا يُحد ! أليس هو :

١ – شُعلة قبسٍ من توهج وحي الله إليهم .

٢ – وسجعة سلامٍ حنون ، جاءت صدىً ، لسجعات حمائم سلامٍ أطلقوهن ليرجعن الدهر أماني مُثل الإنسانِ الانسان .

٣ – ونفحة هداية من طيب أنفاسهم الزكيّـــة عبقت بها الدنيا ، لتطهر من نتن الأنفاس الكهرية الخبيثة الملحدة .

٤ – ومسؤولية ضمير أيقظته عهدة ضمائرهم الداعية إلى التزام مسؤولية الحق بموازين الحق .

وكم من ضمائر حجزوها عن الهوى في مهالك الباطل ، بفضل موازين الحق المنزلة اليهم من رب العالمين .

٥ ــ وطُرفة معرفة ، من طرف معارفهم السماوية اللائي هن عقل يقين العلم الصاعد ، وعينه اليقظى الساهرة ، وقسطاسه العدل السرمدي .

وفي هذا العصر انصدعت ذرّة المادة التي كانت تحجب علماء المادة عن صحيح الرؤيا [١] . وشاهدوا أول لمحة من لمحات عوالم الطاقة . وما أكثر عوالم الطاقة ، وما أوسع ميادينها وأنواعها ووظائفها .

حسبهم انهم أخذوا يشاهدون من نافذة العلم ، ما كانوا يشاهدونه من نافذة الوحي .

وما من ظلام يحجب العقل عن الرؤيا إذا هو صمم على الرؤيا بالعلم ، وإنما الذي يحجبها على كل حال هو ظلام الجهل في القلب .

والإيمان القطعي الذي جاء به أولو العزم من الرسل : نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ هو عين يقين العلم .

وها هي عربات الفضاء الكشافة أخذت تنتقل من كوكب الى كوكب من كواكب مجموعتنا الشمسية .

فلا بد أن يأتي يوم يعلم فيه سائر الذين كفروا بوحي الله ، انه الرؤيا الحق ، وانه نور يقين العلم .

وليس في ثقافة المادة الصماء الكثيفة إلا ظلام الفروض التي التبست بحقائق العلم اليقيني تخيلاً ، وإلا أساطير الكهنة التي دُسّت في عقائد الوحي الإلهي باطلاً .

---

١ اخترت مصدر رؤيا الحلم . لأن الملحدين كانوا يحسبون حقائق عوالم الطاقة أحلاماً .

ولا يعلم إلا الله هل ينتهي الانسان من دراسة كواكب مجموعتنا الشمسية الأرضية بأسلوب العلم ، وينتقل بعدها الى المجموعة التي تليها صعوداً من مجموعات مجرتنا التي هي الأولى بالنسبة للمجرات المترامية في أبعاد الفضاء ، أم تسبقه رعونة غرائز الغاب الوحشية فتقضي عليه .

واختراقُ عوالم الكواكب والمجرات الى السبع الطباق وما وراءها ليس مستحيلاً . لأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم اخترقهن بسرّ قدرة الله .

ووحي الله اليقيني ينص على الإمكان ، وينص أن عوالم السموات والأرض طوع إرادة الإنسان نظراً علمياً ، وتسخيراً عملياً :

١ ـ النظر العلمي في قوله تعالى :

قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠ ـ ١٠١)

٢ ـ والتسخير العملي في قوله تعالى :

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٥ ـ ١٣)

ولا يدري أحدٌ هل يتمكن سلطان العلم من اجتياز مجموعتنا الشمسية الأرضية إلى التي تليها من المجموعات الأخرى التابعة للمجرة الأولى من مجراتٍ ـ لمّا يحصِ العلم أعدادهنّ ـ !! أم ينطلق الشواظ والنحاسُ

المدّخر في قنابل الذرّة والهيدروجين ، وهم سكارى في عُرام الكفر الحاجب عن صحيح رؤيا الإيمان بالله الخالق العظيم جلّ وعزّ ، لا يدري أحد !! لا يدري أحد !!

وماذا أقول ، أو يقول سواي ... والله جلّ جلاله يقول :

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (٧ ــ ١٠٢) ويقول :

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (١٤ ــ ٣٤) ويقول :

(١) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤)

(٢) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ.

(١٥ ــ ١٤ و ١٥) ويقول :

(١) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . (٢٨)

(٢) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

(٦ — ٢٨ و ٢٩) ويقول :

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

(٨ — ٣٢)

فهذا كله هو الذي جعلني أذوبُ حسرةً ، على أيام النور المباركة ، التي كان فيها رسلُ الله ، أعلامَ الهدايةِ والإنسانية في الأرض .

وكم كنت أتمنى ، لو كنتُ معاصراً لهم ، أستقي النورَ من منابعه المقدسة ، ولا أشاهد كثيراً من البشر ، الذين لم تتطور نفوسهم بعدُ ليدخلوا في دور إنسانية رسلِ الله صلوات الله وسلامه عليهم .

وحين حُرمت هذه الأمنية ، جاهدت نفسي لأعيش في هداية هاتيك الأيام ، التي زار فيها رسل الله ، هذا العالم ، وأنا أتتبع آثار خطواتهم المباركة ، مع النظر الحرّ العلميّ الخالص ، والتفكير العميق الصادق .

وقد كان هذا المؤلفُ ، خلاصةَ ما نظرتُ ، وعلمت ، وفهمت ، واقتبست .

لذلك لم أجدْ ما يشرفني حقاً ، ويسعدني حقاً ، إلاّ أن أرفعه إليهم ، لأحظى برضا اللهِ ، ورضاهم ورضا العلماء العاملين المخلصين .

هاشم محمد سعيد دفتر دار المدني

مقدمة الطبعة الأولى

١ – لمحة

* إني قصدت أن يكون حديثي في هذا المؤلف مقتصراً على كشف حقائق سورة (ياسين) القطعية . وبيان ما أمكن من معجزاتها المتحدية : مُفسرة بما وصلت اليـــه معارف الحضارة الحديثة من يقينيات . وطرح الظنيات وريبها .

* كذلك لم تكن كتابتي عن سورة ياسين سطحية . بل هي دراسة علمية بكل مـــا يسعه الجهدُ واتقان العمل ، واخلاص النيّه . أسوةً بالكاتبين السابقين . من علمائنا الأعلام ، أجزل الله لهم حُسن المثوبة .. وكل ذلك بين يدي المثقفين المتعمقين يلمسونه لمس اليد ...

٢ – تلاوة سورة ياسين

* ما أكثر الذين يتلون هذه السورة المباركة من المؤمنين وسواهم...
* المؤمنون يتلونها بكثرة . لما ورد : سورة ياسين لما قرئت له .

* وسوى المؤمنين يتلونها ، مرة بعد أخرى ، ليتعمقوا دراستها . ويعوا كنه معجزاتها . لأنهم قرأوا « يس قلب القرآن .. » .

* وهم يعلمون أن القلب هو القيّمُ المقوِّمُ أعمال الأعضاء كافة .

* ولِمَ لا ؟!!.. وهم رأوا أن الله أقسم في ابتدائها بالقرآن الحكيم ، على إثبات رسالة خاتم رسله محمد ﷺ .

يس . وَالقُرآنِ الْحَكِيمِ . إنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

(٣٦ ــ ١ و ٢ و ٣)

* ولا ريب أن من يتعمقها دراسة ، يتحقق أنها قلب القرآن ، وأنها حُجة قاطعة لإثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ ، لأنه يجدها مشتملة، على فريق كبير من معجزات علمية متجددة متحدية سابقة لمعارف الأجيال . يحس أنها مهيأة لأزماننا وما بعد أزماننا ..

٣ ــ التفسير والتأويل

* إن الذين يتعمقون دراسة مؤلفي هذا أولاً فأولاً يجدونني أخذت بالقول الذي لم يجعل التفسير والتأويل شيئاً واحداً [١] بل أخذت بالقول الذي يميز بينهما .

١ ــ فالتفسير هو أعتماد مدلول الوضع اللغوي الأصيل لمفردات الآيات، وإذا لم يعتمد الوضع اللغوي الأصيل للمفردات ، جاء تأويل الآيات منحرفاً عن مثل القرآن العليا ، التي أنزل من أجلها ، ويصبح التأويل

---

[١] أنظر قول الراغب الأصفهاني ص ١٩ من كتاب التفسير والمفسرين لمحمد حسين الذهبي .

باباً واسعاً للدّس والإفتراء والعبث ، وتفسير العلم بالجهل واليقين بالريب ، وذلك كمثل من جعل القطاطيب جمعاً لقُطّاب في قول الشاعر :

فلولا المزعجات من الليالي لما ترك القطاطيب المناما

وقالوا ساخرين !! وما هو القطّاب ، انتفخ ونفخ وراح يقول ، القطّاب كثيب الرمل ، قالوا هل كثيب الرمل ينام ، هز رأسه وقال ، ما أُجهلكم ؟!! أما ترونه يسكن بعد أن يكون عاصفاً [1] !

ومن هذا القبيل مـن يفسر « والبنون » من الآية الكريمة بالأسنان جهلاً ، لأن البنون هم الأولاد .

٢ ـ **والتأويل** كشف لمضمون مدلولات الجمل التي تدل عليها الآيات مـن قريب دون خروج بالألفاظ عن مدلول وضعها اللغوي إلاّ لسبب مقصود أصالة . مع البعد عن التلاعب بالمجازات والاستعارات والتوريات... مضافاً إليها حسَمَ مفتريات الروايات الإسرائيلية ، وأضاليل الأقاصيص والرؤى ، وطرح جدل توجيهات المذاهب المتعارضة ، التي تجعل الانتصار للقول المذهبي غايـة ، لا لكشف يقين الحق ، الذي هو غاية الباحث العلمي المخلص .

هذا هو التأويل الصحيح ، وما عداه التأويل الفاسد ، وإنك ستجد في بحث معجزة المواصلات التأويـل الصحيح القريب المركز في آيتي رقم ٤١ و ٤٢ .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٣٦ ـ ٤١ و ٤٢)

* ولا ريب أن الدارس النزيه ، الذي آتـاه الله الوعيَ العلميَّ ،

---

[1] هذه حادثة شهدتها أثناء طلب العلم في الأزهر

يؤثر بكلٍّ يقينه وبكلِ حواسهِ وبكل عامه التأويل الصحيح ، ليضمن لنفسه سلامة ما يبحثه وما يدين به . على وجهه العلمي اليقيني .

كما يستطيع أن يكشف حقائق العلم والوحي معاً ، ويستطيع أن يكشف الحقائق المكنوزةَ في آيات القرآن أكثر مما كَشَفْتُ ، لأن الوعي العلمي مصدرُ مُدهشات الحضارة ، ومحلُ اكبار العلماء ، ومطلب الأجيال الناشئة في كل أمة .

وصاحبُ الوعي العلمي يحارب الإلحــاد كل المحاربة ، كما يحارب التأويل الفاسد ، لأنهما متاهات من الضلال في حوالك الظلمات ، ولأنهما يهدمان يقينَ العلم والوحي معاً كل الهدم .

والإلحادُ والتأويلُ الفاسدُ . لا يخفيان على صاحب الوعي العلمي . وان حاول الدسّاسون أن يظهروهما باطلاً في ألف صورة للحق ـ. لأن مجاله الدسّ والتشويه والإفساد والكسب الحرام ، والانتهازية المختلسة ، والإباحيةِ المجرمةِ ..

٤ ـ أمثلة التأويل الفاسد

* لو أراد كاتب أن يعرض التأويل الفاسد ، لآيات القرآن الحكيم ، لما وسعه مجلد .

وأحدث مـــا قرأته للتأويل الفاسد ، مـــا كتبه طنطاوي جوهري في تفسيره لسورة الهُمَزَه ، في قوله تعالى :

نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ . التّي تَطلّع عَلَى الأَفْئِدَةِ (١٠٤ ـــ ٦ و ٧)

إذ قـــال أشعة روتنج المذكورة [١] التي اشعتها كالعمد ، يرى بهـــا

---

١ راجع تفسير الجواهر ج ٢٤ عند تفسير سورة الهمزة .

الأطباء ما خفي في الجسم ، فيعرفون بواطنه ، فيكـون ذلك كالرمز إلى الاطلاع على الحقائق ، ويقول فاذاً اطلاع النار عـلى القلب سواءٌ أكان بالإحراق لمن هو في أوّل العذاب ، أو بكشف الحقائق ، واظهار ما اختبأ في السرائر من العيوب المخزية .

وأشعة روتنج ليس هنا مدلولها من آيات الله ، ومـن الفساد التأويلي جعل الآية تدل عليها .

ومن التأويل الفاسد ، المدسوس قديماً ، ما ذكره الشاطبي الغرناطي، في كتابه الموافقات ، أن جماعة من الرافضة ، يؤولون قوله تعالى :

فَلَـنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِين (١٢ ـ ٨٠)

التي نزلت في قصة يوسف عليه السلام ، وإخوتـه ، « يقولون إن علياً في السَّحاب ، فلا يخرج ، يعني مع من خرج مـن ولده ، حتى ينادي منـاد من السماء – تريد علياً أنـه ينادي – أخرجوا مع فلان » يقول جابر فذا تأويل هذه الآية وكَذَبْ .

إضحك أو إبك لهذا التأويل ، إن كنت من الضاحكين أو الباكين ، اضحك من دهاء واضعي السخافات ، وابك من أجل الحمقى المغفلين ، الذين يصدقون مثل هذه السخافات ، ويجوز فكرُ واضعيها عليهم [1] .

* واني رأيت أبـا اسحاق الشاطبي ، ذكر كثيراً مـن ألوان هذه التأويلات الفاسدة ، فجزاه الله عن العلم والعلماء خيراً ...

* والآن بعد هذا العرض لشواهد التأويل الفاسد ، أستطيع أن أعلن،

---

١ راجع جزء ٣ ص ٩٣ من الموافقات .

أن مخترعي التأويل الفاسد في الكتب السماوية . ليسوا من بنــاة العلم . الصادقين الصرحاء أبداً .

ولو حاولوا ذلك لمـــا استطاعوا ، مـا داموا يهدفون من وراء ذلك بلوغ نزواتهم ، وحطام الفانية ، وهدم واقع العلم اليقيني في تأويل الآية .

والحق أنه لا يتعمد دسّ التأويل الفاسد ، في كتب الوحي الآلهي ، إلا ملحد خبيث ، ذو نزوات فاجرة ، أو منافق آثم ذو مطامع عارمة .

٥ ــ قصد العلم اليقيني

* قد بذلت وسع جهدي ليكون هذا المؤلف عـن العلم اليقيني ، في كل موارده ومصادره .

فاذا تبين للمتعمقين الباحثين المتتبعين منابع معجزات القرآن المجيد ، والعاملين على كشفها للناس بنشاط وتضحية واخلاص . أن في ما اشتمل عليه مؤلفي هذا مخالفة لواقع العلم اليقيني ، فأرجو إعلامي . لكي أتدارك ذلك في الطبعة الآتية ــ إن شاء الله ــ .

والإنسان مركب على الخطأ والنسيان ، ولا عصمة لأحد ، العصمة لا تكون إلاّ لرسل الله .. صلوات الله وسلامه عليهم .

ولا ريب أن أكبر جُناة البشرية الهدامين ، هم الذين يعبثون بالحقائق العلمية ، ويحوّرونها حسب أهوائهم ومشتهياتهم وعنصرياتهم ، ويشردون بها عن مناهجها المستقيمة ، عامدين مصرّين ...

« ما أوسعك يا جهنم » !! وما أكثر أهلك !!

لأن تعمد هدم واقع العلم في أي موضوع كان ولأي كان ، عذابـه في الدنيا من عذاب جهنم .

٦ ـ موضوعات الكتاب

* إن موضوعات الكتاب خمسة ، جميعها يتصل بآيات سورة ياسين من قريب أو بعيد .

الموضوع الأول

الأبحاث العامــة ، التي تكشف حقائق الإيمان بالله وكتبه ورسله وما يتصل بها .

الموضوع الثاني

المعالم والصوى التي تعين الطريق المؤدي إلى فهم آيات سورة ياسين .

الموضوع الثالث

تفسير ألفاظ سورة ياسين .

الموضوع الرابع

تأويل آيات سورة ياسين .

الموضوع الخامس

* عرض المعجزات المدخرة في آيات سورة ياسين .

وهذا القسم الأخير هام جداً ، لأن فيــه البراهين العامية اليقينية ، المؤيدة صدق قسم المولى جل وعز بالقرآن الحكيم، على إثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ ، زيادة عما ذكره العلماء من معجزات ، صياغة الأسلوب ، وروعة السياق ، واختيار الألفاظ ، التي تكشف حقــائق المعارف كشفاً عجباً ، في روعة البيان وإعجازه ، وفق صعود المعارف واطراد الحضارات .

وبعد فإن المطالع المثقف ، لا يخفى عليه تقديم كلمة على كلمة ، أو غموض معنى ، أو خطأ مطبعي .

هذا واقع كل مؤلف . ومهما يكن ، فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه .

والعلماء المخلصون إخوة في الله والعلم ، وهم لا يزالون في الدنيا كثير ، وليس لهم في مجال الحضارة إلا أن يتعاونوا بمودة وإخلاص ، لكشف حقائق العلم اليقيني ، في ما بين أيدي الناس ، وليحولوا ما بينهم وبين الإنحراف والإلحاد والفسوق والعصيان والتخلف .

٧ ـ الحديث عن معجزات سورة يس

* إن الحديث عن معجزات سورة ياسين قديم ، فقد كنت تحدثت به إلى طلابي ، في الكليـة الشرعية (أزهر لبنان اليوم) منذ ثلاثين عاماً فأكثر ، وهو لا يزال في دفاتر الطلاب .

فقد رجعت اليها وأضفت ما اكتشفه الانسان من علوم ، والانسان في كل يوم يكتشف منها الجديد الطريف ، وذلك من ما أودعه الله جل جلاله من معارف لا نهاية لها في تكوين الكائنات .

أما كانت العناصر في علم اليونان أربعة ، وها هي اليوم في معارف عصرنا تجاوزت المئة ، ولا يدري أحد ما يكتشفه الغد منها .

ولا ريب أنه في كل يوم يصدق قول الله عز وجل :

ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . (٩٦ ـ ٤ و ٥)

٨ ـ عرض الحقائق

* وأخيراً آثرت أن اكتب الكلمات بكل حروفها المنطوقة ، لأني

أستحي أن أقول ، « إني شاهدتُ بعض الشبان الذين يحملون الشهادة الوسطى ، وما فوق ، لا يحسنون قراءة الكلمات . إذا لم تكن مستوفية كل حروفهــا » خذ مثلاً كلمــة الرحمن ، فهي إذا لم تكتب هكذا « الرحمان » أساءوا قراءتها ، ولم ينطقوا بالألف . ومن أجل ذلك حين أتكلم عن معجزات سورة يس ، أكتبها بكل حروفها ، ياسين . فراراً من أن يقرأوها « يَسَنُ » .

وقد كان الناس قديماً يُعَلِّمون أولادهم إتقان قراءة القرآن، وتسطيره المعتمد منذ الطفولة ، وقــد كنت طفلاً أُلَقَّن حفظ القرآن المجيد . في كتّاب المرحوم ، استاذنا الشيخ إبراهيم الفقيــه في المسجد النبوي ، وادرب على تخطيطه في لوحي الخشبي ، ولكل تلميذ لوحه الخشبي .

وكم يأسف أحدنا اليوم ، حيث لا يجد بين أطفالنا من يحْفَظُون القرآن ويدربون على تخطيطه منذ نعومة أظفارهم إلا ما ندر في كــل بلدة ، مع أن أطفال الأجانب يدربون على صحة النطق بكلماتهم المتوارثة، وتخطيطها على علاّتها ، أي بزيادة الحروف المهملة ونقصان الحروف المنطوقة بكل اهتمام ومِرَانٍ ، حتى أطفالنا إذا وصلوا إلى معاهدهم ، والمهاجرون إذا هاجروا اليهم يفعلون بهم ذلك ، حِفظاً على مكانة لغتهم من التبدد والإنهيار والتلاشي ، بل هم لا يسمحون للمهاجرين من العرب وسواهم أن يوظفوا لديهم في الأعمال حتى تعطى لهم شهادة باتقان النطق بالكلمات من معاهد خاصة مُعَدَّةٌ لذلك . وتقدم منحاً من المال للإغراء والدأب وحُسن الإتقان . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وكم من حكمة وعمق نظر في قول شاعر النيل حافظ إبراهيم عــن لسان اللغة العربية :

أرى لِرجَالِ الغرْب عزّاً ومَنْعَةً   وكم عَزَّ أقــوامٌ بِعِزِّ لُغاتِ
أتَوْا أهلَهُــم بالمعجزاتِ تَفَنُّناً   فيا لَيْتَكُمْ تأتُونَ بالكَلِماتِ

أيُطربكم من جانب الغرب ناعبٌ يُنادي بوأدي في ربيع حياتي
ولو تزْجُرون الطَّير يوماً علمتمُ بما تحتَهُ مِنْ عثرةٍ وشتات
سقى اللهُ في بطنْ الجزيرة أعظُماً يعزُّ عليها أن تلين قناتي
حفظْنَ ودادي في البلى وحفظتُه لهُنَّ بقلبٍ دائمِ الحسرات
وفاخرتُ أهل الغرب والشرقُ مطرقٌ حياءً بتلكَ الأعظُم النَّخِرات
أرى كلَّ يومٍ بالجرائد مزلقاً مِنَ القبْر يُدنيني بِغير أناة

وفي الختام أسأل الله عزّ وجلّ ..

أن يمنح صديقي الحاج محمد سعيد عانوتي على تسطير مؤلفي هذا بخطه الجميل – كل ما يصبو اليه من خير وهدى .

إنه سميع مجيب .

مقدمة حول مكانة الكتاب

الحمد لله الذى جعل الحياة نعمة يفيد منها المؤمن كسبا لذكراه الخالدة الطيبة فى الدنيا ورحمة ونجاة من مهالك الآخرة . .

والصلاة والسلام على من انزل الله عليه وحيه ليكون معجزة الابد المتحدية كل معارف الحضارات وبعد :

فانى كنت اتردد من اونة واخرى الى منزل الصديق المرحوم ابراهيم شاكر وانا مهاجر فى لبنان ، فانا واياه من ابناء المدينة المنورة ، والغربة تضاعف المودة .

وكان يحب العلم واهله غاية ويؤثرهم بالحفاوة والاهتمام وبالأحرى المواطنين منهم ، وانى لاأزال اذكر اهتمامه يوم وفد عليَّ الى لبنان ابن خالتى الشيخ عمر برى للاستشفاء وكان نازلا عندى وكان ابراهيم شاكر يتعهده بالزيارة يتردد عليه دون انقطاع وهو يحب ان يشجع الدعوة الى الله جل وعز وبالأحرى فى الجماعات التى زلت بهم الاقدام عن غير عمد منهم فى ذلك . . .

وكنت انا ما ازال فتيا قادرا على الرحيل والتجول فى اشهر الصيف التى تتعطل الدراسة فيها استجماما لمدرسى العلوم وطلابها . .

وكنت اوافيه بالتقارير فى هذا الامر كما طلب إلىَّ الاهتمام باحفاده السادة محمد وحسن وحسين من اجل تعلم القرآن واللغة العربية .

وكان يحب الاطلاع فى اوقات الفراغ على مايجد من المؤلفات الاسلامية والادبية والاقتصادية واذكر انى اذا ألفت كتابا عرضته عليه وكان ذلك يسره .

وكنت ألّفت رواية صورت فيها مجد العرب فى غرناطة فى الحمراء واسميتها الى غرناطة ، ،

وكان ذلك منذ ثلاثين عاما واكثر فلما قدمتها له . . وكان يصحبه فى ذلك الصيف محمد سرور الصبان واهديته كذلك نسخة سرا بها وشجعانى على مواصلة الكتابة والتأليف . .

كنت اتلقى اسئلة جمة حول معجزات القرآن وحول تحديه الصارخ وكنت اجيب على بعضها فى محاضراتى فى الجمعيات الاسلامية وفى بعض المعاهد العليا الحكومية وكلية الحرج لما كنت فى لبنان .

وكـان اهم الاسئلة التى وجهت الى من بعض الـدارسـين عن بعض المعجـزات العلمية التى يدل عليهـا القسم بالقـرآن لاثبـات الـرسـالات السـماوية التى جاء بها للناس كافة سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه . .

وهـو قسم بيِّن لاغمـوض فيـه ولا ابهـام وكنت اشـرت فى احـدى كلماتى التى نشرت فى الصحف عن القسم لأن بعض المستشرقين الذين يفدون إلى بيروت تساءلوا عن بعض أسرار القسم ومؤداه وواقعة والغاية منه ص ٢٣ منه .

وكان جوابي صريحا ومنشورا فى مؤلفى هذا معجزات قلب القرآن وضعته بعد دراسة طويلة استغـرقت عامـا وشطـر العـام. قام بطبعـه للمرة الأولى التاجر اللبنانى المعروف السيد عمر بن عبدالله الفحل .

ويشهد الله حين الفته لم أكن متوقعا ان يحرز ما احرزه من اهتمام الدارسين فى كل مكان حتى لو حاولت ان اجمع ماكتب عنه لكان مثليه فى الحجم .

وعلمت من هنـا ان الكتـاب الجيـد النـافـع الحامل للعلم والادب دعايته كائنة فيه . وهذا ماكان من جهة الطبعة الأولى حتى وصل بها الأمر انها بيعت ممن تحصلوا عليها هبة بمائة ريال وزيادة .

ومن اجــل ذلــك لما تولى طلب مؤلفى «معجـزات قلب القـرآن» وتـلاحق وكثـرت دراسات الكاتبين عنه فكر الشاب الوجيه السيد غازى بن السيد اسماعيل حفظى الذى كان وكيل امارة المدينة المنورة ان يجدد طبعه للمرة الثانية ليكون لوالده ذكرى ورحمة .

وكـان الـذى اشـرف على هذه الطبعـة الثـانيـة سعادة السيد محسن احمد باروم وكان السيـد أحمـد قد اطلع على المـؤلف ووجـد فيـه الـبراهـين العلمية اليقينية التى تكشف معجزات قلب القرآن (ياسين) .

ومن اجـل ذلـك طبـع قسـما خاصا باسم دار الشروق ليكون معونة لتجديد طبعه مرات عدة والسيـد محسن احمـد باروم اوقف نفسه للنهوض بخدمة الاسلام والدعوة الى الله فى كل الدنيا. وهو رجل العلم والخير والهدى والمودة ، واسمه ـ والحمد لله ـ حلو رطب على ألسنة دعاة الاسلام .

لما اخبرته ان الوجيهين الشقيقين نجلى المرحوم ابراهيم شاكر قررا ان يقوما بطبع المؤلف للمرة الثالثة ليكون رحمة وحنانا وبركة لذكرى والدهما العظيم ابراهيم شاكر. سر كثيرا جدا وذكر ان رسائل وافته من هنا ومن هناك تطلب الكتاب كما وافت الصديق الفاضل الشيخ عبدالوهاب الفقيه لانه كان لديه قسم منه ونفد .

الزيـــادة فى الكتـــاب

ان الذى ينظر فى هذه الطبعة الثالثة يجدها سوى الطبعتين السابقتين لأن هذه الطبعة فيهـا زيـادات وبيـانات لم تكن فى الطبعتين السابقتين. على ان استيعاب كل معجزات كتاب الله فى مؤلف واحد غير ممكن ولو امكن جمع اضواء الشمس الدافقة على عالم واحد لأمكن جمع اضواء معجزات قلب القرآن المتجددة أبدا فى مؤلف واحد . .
واني ارجــو من الله أن يوفقني ان اتبــع هذا المـؤلف وآخـر حتى اكـون قد اتممت شبـه معْلَمة . . لانى ما دمت فى هذه الدنيا فشغلى الشاغل هو خاتم الوحى الالهى، والفضل لله جل وعز.
واني أرجـو أن ألقى وجـه الله يوم الـدينـونية باضواء كلامه الأزلية وبدفقات حبه فى فؤاد يظـل يخفق بحبـه ويشهـد الله والله خير الشـاهـدين لو كنت املك مال قارون لانفقته فى سبيـل الـدعـوة الى ايجاد مؤلفات جديدة باقلام فحول العلماء والفلاسفة والمفكرين من كل امـة بل لأقمت مجمعـا خاصا لطبع المؤلفات الحديثة الخاصة بكشف معجزات خاتم كتب السماء وتحدياته ومعارفه وكل مايتصل به.
والله على ما أقول شهيد وهو ولى التوفيق واليه المرجع والمآب ولعنة الله على الكاذبين . .
وصلى الله على خاتم رسل الله وعلى آله وصحبه اجمعين . .

حـــول مكانة الكتـــاب

حياتنا الدنيا ألوان وألوان وفى كل حضارة يبدو بعض الوانها ويختفي البعض والوانها مفـرغـة فى دائـرة متكـاملة كحلقـة الطيف ولكن لايظهر للنظارة من الشرق والغرب الا نصف الدائرة ومن اجل ذلك اسماه العرب قوس قزح لان القوس نصف الدائرة.
ولاتظهر كل الدائرة على حقيقتها الا لمن انطلق من جاذبية التراب ونظر اليها وهو بعيد عن حجاب الشطرين حينئذ يشاهدها على حقيقتها دائرة متكاملة بألوانها.
وهنـا الهـول لان النـاظـر اليها وهى فى دائرتها كاملة اما ان تكون عينه زرقاء أو سوداء أو صفراء وعليها نظارة من لونها فهو محال أن يراها فى غير اللون الذى تحمله نظارته ولذلك تجد الشىء الواحد ذا الحقيقة الواحدة تكثر حوله الاقاويل ويختلف فيه النظار ولو نظروا اليه بعيونهم المجردة لما كان ثمة من خلاف أبدا . .

وكم وكم هم الذين ينظرون الى الحقائق من وراء نظاراتهم لذلك تبدو الحقيقة الواحدة ذات ألوان والقلائل الذين ينظرون الى الحقائق بعيونهم المجردة وهؤلاء القلائل هم ائمة الهدى والدعاة الى الانسانية الصالحة والمودة البريئة وحينئذ لاقديم ولاجديد ولكن الحقيقة هى الحقيقة فكم من تصوروا القديم جديدا وكم من تصوروا الجديد قديما لجهلهم بالحقيقة والحقيقة هى زينة حياتهم ومتعتهم بجمالها على علاتها وهى الجديد بالنسبة اليهم لأن الحياة كلما جدت فى بشر جدت معهم لهفاتها وتبعاتها والجديد من الوان الحياة تبدو فيهم حقيقة من حيث ينتهى القديم .

والوان الحياة الانسانية يتداولها الليل والنهار والبداية والنهاية غارقتان فى لجج معارف الوجود ولايعلمها بداية ، ونهاية ، وحركة ، وسكونا ، ذرة ، ذرة ، وطاقة ، طاقة ، الا الذى كونها تكوينا «هو الذى بيده ملكوت كل شيء وله الخلق والامر . . » واى لون من الوان الحياة ظهر كان مما هو مقرر ظهوره فى دائرة التكوين ، والشرق لايرى شطر الأول والغرب لايرى الا شطرها الثانى ولو انهما نظرا معا بعين العلم المجردة وسمو الانسانية العالية الى الدائرة من وراء الجاذبية لابصرا الحقيقة الواحدة الجامعة ولما اختلفا ، ولما افترقا ، ولما ارتاب احدهم من الآخر فى شيء .

ومن اجل ذلك لن يجمع الانسانية ويوحد كلمتها ويذبها فى نفسها الا وحى الله لانه يجيء من وراء الحجب ، وحقيقة الدائرة بينة فيه بكاملها . . اسمع مايقوله الله فى وحيه .

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء إنه علي حكيم» سورة الشورى آية ٥٢ .

الكتـــــاب

اذن فلون الحياة الثابت الزاهى على امتداد الابد فى جمال الواقع الناطق هو الكتاب والكتاب يظل حياة عالية حية زاهية فى واجهة الابد . ألَا انّ أشرق اشراقات العلم ألَا ان افتن مفاتن الحياة ، الا ان اخلد خوالد البيان هو الكتاب ، والكتاب لاسواه وكل الوان الحضارة تمحى وتزول وتضبح اطيافا واحلاما وذكريات الا لونا واحدا لايمحى ولايحول ولايزول وليس فى طاقة البشر ان يمحوه او يحيلوه أو يزيلوه ، ذلك اللون هو الكتاب . .

ولولا أن الكتاب عظيم وعظيم جدا لما اسمى الله وحيه المنزل كتابا . .

«ونـزلنـا عليـك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» سورة النحل آية ٨٩

وسقط الاغريق القدماء فى خبر كان، سقطوا هم وزينة مدنهم وعزة سلطانهم وزخارف دنيـاهم ولكن شيئـا واحـدا لم يسقـط ولن يسقط أبدا هو الكتاب. فالكتاب كل شيء فى الحياة بل هو الحياة بل بلغ الامر حتى فى جاهلية العرب فانه أكبر الكتابة ايما اكبار حتى دونوا المعلقات السبع وعلقوها فى جوف الكعبة فى طرفة الذهب.

ونحن الان فى تعـاون هذه النهضـة الاجتماعية العربية السعودية التى اقادم عمادها الملك عبـدالعـزيـز آل سعـود تشـاهـد قادتها وفروا كل المعونة المادية ليكون الكتاب وهو ركنها الركين على كل عهود تاريخ الكتاب العربى حتى اصبحت المطابع الكبرى تعد له العدة والمكتبات الكبرى تشيد وشركات اعداد الكتاب توزعه بتنظيم على كل مدن المملكة.

ونستطيـع ان نقـول ماهى الا بضعـة اعـوام حتى تكون المكتبة السعودية الحديثة اضخم مكتبة عرفتها الدول الاسلامية والدول العربية فى تاريخها الطويل.

اجل ان الكتاب الحديث فى هذه النهضة عملاق قممها وأرفع منائر عمارها ومادام الغذاء الجيـد هو هدف الـدارسـين والـدارسـات والمطـالعين والمطالعات فليس من الضرورى الحمـلات التى تعـاد فى الصحف كرة وكـرة حول افـراد الكتاب العبقرى الخالد بالطبع دون سواه لأن كل انسان يتناول غذاءه الصالح له.

ان الانســان المثقف كلما نضـج عقله وسمت ثقافته وصحت نفسه واشتدت عزيمته يدع الحسن ويطلب الاحسن ثم يدع الاحسن ويطلب المثل الاعلى لأن الانسان يملك عقلا وقلبا ذكيا وعزيمة وقادة يظل يطمح الى أمجاد الخلود وكشف حقائق الوجد ويأبى أن يحيا كالسائمة يأكل ويشرب ويثافن.

واذا كان الطموح اساسا فى فطرة الانسان العادى فما بالك بالانسان الحضارى المثقف الطموح.

والانسـان كما يطلب الغـذاء الصحى الجيـد الحسن المنـاسب لجسـده فى نمائه وسلامته. كذلـك الأنسـان يطلب الغـذاء الصحى الجيـد الحسن الـذى تسمـو به ثقافة وتسلم من العطب والانحطاط. وأوبئة الثقافة وبلاياها أدهى وأمر من أوبئة الاطعمة.

هب ان الف طبيب وطبيب طلبوا اليك ان تتناول طعاما موبوءا كريها فانك حتما ترفضه، وكـذلـك لو أنّ ألف باحث وبـاحث اخـذوا يمجدون شعر الوأواء الدمشقى ويفضلونه على شعـر المتبنى ثم جاء أديب وألف بعض مختـارات من شعـر الـوأواء وجاء اخر والف

بعض مختارات المتنبى فبالله عليك اى المؤلفين يقبل عليه المثقفون دراسة واستظهارا واقتناء واى المؤلفين يعرض عنه المثقفون . اذن فخصومات نقد المؤلفات التى تطالعنا بها الصحف كل يوم لالزوم لها بالنسبة للمثقفين اذن ، فخصومات النقد اللاذع التى تنشر حول المؤلفات التافهة فى صحف العالم لا لزوم لها . لأنها لن تقدم مؤلفا يستحق التأخير ولن تؤخر مؤلفا يستحق التقدم .
فنفس المؤلف هو الذى يقدم ذاته ان كان عبقريا نافعا ويؤخر نفسه ان كان منحطاً تافها فكم هم السخفاء الذين حاولوا الحط من شعر احمد المتنبى وتفضيل أبى فراس عليه .
فكان الادباء يسخرون منهم ويرونهم مغرورين يؤثرونهم بالشفقة عليهم ويطلبون لهم الشفاء لأن ايثار الأدنى على الاعلى ليس غريبا أن يكون فى بعض النفوس فهؤلاء الاسرائيليون عافوا المن والسلوى وطلبوا الذى هو ادنى من العدس والبصل والفول فنزل فيه قوله تعالى

« . . . . أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير»؟! البقرة (٦١)
لاتعجب اذا رأينا من يفضل الروايات الخليعة التافهة على الروايات العبقرية كرواية مجدلين والفضيلة ورفائيل وآلام فرتر وسيد قريش وزينب وأهل الكهف .
ومهما يكن فاتباع الاحسن والأجود والاخذ به وتأييده والانضواء اليه والهيام به هو الحياة الحقيقة والفوز والنجاح . واتل خاشعا مستفيدا .

«واتبعوا أحسن ماانزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون» الآية ٥٥ سورة الزمر .

إن آثار الأمم البائدة والأجيال الغابرة تدخل فى نواويس متاحف السلاح والثياب والمجوهرات والتحف والطرف الا الكتاب فانه يظل حيا ناطقا صارخا فى المكاتب الكبرى العامة والخاصة ، وتجد العلماء وطلاب المعرفة والباحثين المحققين يهتمون بالكتاب وهم من اجل ذلك يترددون على المكاتب العامة والخاصة ، على أن العالم المحقق والاديب البحاثة والشاعر الفذ العبقرى لايستغنى عن مكتبة خاصة للمراجعة . .

وهكـذا تجد سوق الكتـاب فى كل الازمـان وفى كل الاعصار : والاقبال عليه متزايد لأن الانسـان لايستغنى بتـاتـا عن غذاء فكر مادام انساناً حياً حساساً له عقل وعلم ، وكتاب معجزات قلب القرآن هو من الغذاء الفكرى الجيد . ولولا انه من الغذاء الجيد لما ترادف من طلبه من هنا ومن هناك . وأنى أسأل الله ان يديم به النفع .

صحافى غربى يسأل عن معجزات القرآن

كان هذا الصحـافى صديقـا لتـاجـر كبير . وكان يحسن العربية لغة فصيحة ولايفهم اللهجات العامية على كثرة تجوله فى اقطار العروبة ، لانه كان يجد فى كل قطر لهجة بل لهجات تخالف احداها الاخرى .

وكانت تعجبه اللغة الفصيحة الخفيفة التى يتحدث بها المثقفون العرب فى كل وطن من اوطانهم وبها يتفاهمون اذا اجتمعوا فى هيئة الامم او فى الغربة او حضروا رواية من الـروايـات التمثيلية العالية وكانت لغة القرآن المجيد تلذه كثيرا واذا استعصى عليه فهم آية أو لفظة يسأل عنها أصدقاءه من العرب او يراجعها فى معاجم التراجم وكان كلما وافى لبنـان وكثـيرا مايـوافيـه يأوى الى صديقـه التـاجـر ويـدرس وايـاه اهداف ايات الوحى وماتحمل من مثل عليا فى العقيدة والعلم والاقتصاد والاجتماع وسواه !

وكـان اذا اشكـل عليه شيء من القرآن استفسر عن تأويله فيجيبه التاجر بما لديه من علم واذا اقتضى الامر استعان بأهل الذكر .

وفى يوم جاء الصحـافى الى صديقـه التاجر وهو يحمل طبعة جيدة طريفة لربع ياسين وقال له انى فكرت فى معانى هذه الايات .

«بسم الله الـرحمن الـرحيم . يس «١» والقـرآن الحكيم «٢» انـك لمن المرسلين «٣» على صراط مستقيم «٤» تنزيل العزيز الرحيم «٥» سورة يس

ففهمت منها ان الله خالق هذه العوالم غير المتناهية فى علم الانسان يقسم بالقرآن ان محمداً بن عبدالله العربى المكى هو من المرسلين . فكأن الله خالق عوالم الوجود كافة يقول . إن الله منزل القرآن الحكيم اقسم بالقرآن الحكيم انك يامحمد من رسلى ، وانك على طريق مستقيم هو طريقى الذى اوحيته اليك للهداية . وهذا القسم بالقرآن على صدق

رسالة النبى محمد ﷺ هو واضح لدى المسلمين اجمعين ، ولكنه غير واضح لغير المسلمين بل غير المسلمين يأخذهم العجب من هذا القسم الصارخ ويرونه مخاطرة محيرة ويقولون اذا لم يثبت القرآن انه وحى الله بأقوى البراهين العلمية الحديثة واحسمها فالمخاطرة والحيرة تكونان مؤكدتين

والقضية لدينا هى ان نقيم البيّنات العلمية الحديثة التى تثبت ان القرآن هو كلام رب العالمين وان الذى يكفر بذلك يكون مجرما فى نظر اليقين العلمى وانه بالتالى يثبت صدق الرسالة الاسلامية وانها خاتمة رسالات السماء .

ومتى اقمت البينات العلمية الحديثة ان القرآن معجزة الابد وانه صرخة ضمير الكون التى تزلزل الافئدة الحية زلزالها ، آمن العلماء فى الغرب ايمانهم فى الشرق . والتقى الشرق والغرب على حقيقة الايمان .

وانى جئت اليك وانت تعلم انى اكبر يقين العلم وصدق الفكر فارغب ان تشرح لى هذا القسم العظيم الذى حير جمهور علماء الاسلام ، يعلمون يقينا ان دلائل القرآن وآياته محال ان يكون فيها حيرة وتورط .

فأرجو ان تشرح ماوراء هذا القسم العظيم من براهين علمية تصدقه وتفرضه على العقول المنطلقة فرضا وانا أرى القرآن محالا أن ينص على شىء وليس له واقع أكيد .

وسمع صاحبنا من صديقه كل ذلك وجاء الي راجيا أن أكتب الجواب فى رسالة خاصة فقلت ان مثل هذا الجواب يفتقر الى عام او عامين وطلب الى ان افعل ذلك ففعلت فى اكثر من عام . اجل اقسم الله بالقرآن الحكيم على صدق رسالة سيدنا محمد ﷺ بكل تأكيد لان السامع لابد ان يدهش لدى سماع القسم ولابد ان يحتار . ومن دهش واحتار اخذ يدرس القرآن المجيد دراسة علمية مجردة من كل تحيز ووراثة وتقليد ، لكى يكشف حقيقة اعجاز القسم وتحديه وهذا القسم هو من حقائق العلم ولاكلام فى ذلك .

والمسلمون سواء اطلعوا على الحقائق العلمية التى تكشف اعجاز هذا القسم وتحديه ام لم يطلعوا هم مؤمنون بصدقه واعجازه وتحديه .

ولكن الذين تأخذهم الحيرة والدهشة هم العلماء الاجانب الذين لايدور فى خلدهم ان الله الذى خلق هذه العوالم التى لاتتناهى فى علمهم يحلف بالقرآن الحكيم مثبتا بقسمه رسالة خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله :

«يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين»

فهم يعجبون ان يحلف رب العالمين قائلا انا الله رب العالمين اقسم بالقرآن الحكيم ان

محمدا هو من رسلى ، ولا اكتفى بان أؤكد صدق الرسالة بالقسم بالقرآن الحكيم وحده بل أؤكده ثانيا بأنّ وثالثا بلام التأكيد. وذلك فى قوله تعالى . (انك لمن المرسلين) .

والحق ان الايمان بالقرآن المجيد واعجازه وتحديه هو ايمان بالله الخالق العظيم أولا وايمان برسالة سيدنا محمد ﷺ ثانيا بالاضافة الى الايمان برسل الله وكتبه كافة واليوم الآخر وسوى ذلك مما هو منصوص عليه .

وماكفر بوجود الله خالق هذه العوالم الا الذين وقفوا عند ظواهر الماده غير مؤمنين بوجود عوالم الطاقات الروحية التى خطط الله تعالى مسيرتها بقدرته وعلمه وارادته وسلطانه .

لذلك الايمان الصحيح بوجود الله الخالق العظيم لاتجده فى عالمين ابدا :

١ـ فى عالم الوثنيات والشرك .

٢ـ وفى عالم الالحاد .

ومهما يكن فان العالم المفكر الحر الامين ولو كان ملحدا او وثنيا او مشركا ، وكان بعيدا عن الايمان بخاتم الكتب السماوية اذا نظر الى حقائق العوالم وامعن نظره فى امكنتها وافلاكها ووظائفها دهش ودهش وسارع الى الايمان بوجود الله وركع وسجد وكذلك اذا سمع وعقل قوله تعالى

«ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل» سورة الأنعام آية ١٠٢

«لا تدركه الابصار ـ وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير» سورة الأنعام آية ١٠٣

وهنا يجب ان يعلم ان للقرآن المجيد بصائر علمية من الله اى براهين دامغة مشاهدة بالابصار «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما انا عليكم بحفيظ » سورة الانعام آية ١٠٤

وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون» سورة الانعام آية ١٠٥

وهذا شأن الاقسام الدالة على وجود الله جل وعز القائمة فى عوالم الوجود مثل قوله :

(فلا اقسم بمواقع النجوم «٧٥» وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم «٧٦» انه لقرآن

كريم «٧٧» فى كتـاب مكنـون «٧٨» لايمســه إلا المطهرون «٧٩» تنزيل من رب العالمين) سورة الواقعة

فمواقع النجوم المعروفة لعلماء الفلك قديما والتى جرت معرفتها والتى لاتزال فى طوايا غيوب ابعاد الفضاء هى دالة على عظمة الله الذى انشأها ووضع لها قوانينها وسننها وقدر لها مواقعها ، ومن هذا القبيل القسم بالشمس والليل والضحى وهناك اقسام يقصد منها اشياء أخرى كالاقسام التى يقصد منها اثبات يوم القيامة ومكانة القلم فى تحقيق المعرفة .

أما هنا فى سورة ياسين فان القسم بالقرآن لاثبات رسالة سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه فكأن القسم هنا يقول الله فيه:انا الله خالق العوالم احلف بالقرآن الكريم ان محمدا هو رسـولى وهـذا القسم يدل ان الله جل جلالـه وضع فى آيات القرآن البراهين العلمية القطعية الدالة على صدق رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ولمـا كان الحـديث عن حقـائق هذا القسم يراد عرضـه على جماعـة العلماء الـذين لايعلمـون شيئـا عن اعجـاز القـرآن العلمى كان الواجب كل الواجب شرحه بالدلائل العلميـة اليقينيـة فى مؤلف خاص وكـان ذلـك المؤلف هو مؤلفى اعجاز قلب القرآن وقد عكفت على دراسة اسرار هذا القسم قرابة عام ونصف اى قصرت الدراسة على سورة ياسـين خاصـة لاشتـمال صدرها على القسم وكان ذلك عام ١٣٩٦ هـ حيث قدم المؤلف لدار العلم للملايين وقد انفق على طبعه لاول مرة السيد عمر الفحل وتم توزيعه لعلماء العالم الذين يهتمون بالتعرف الى معجزات القرآن الحكيم ونفد فى اشهر معدودات وكان الطلب متتـابعـا فانفق على اعـادة طبعـه الاستـاذ غازى حفظى ذكـرى للمرحوم والده اسماعيل حفظى وكيل امارة المدينة المنورة .

وليس سهـلا ان استعـرض كل ماهـو مكنـوز من المعجـزات فى سورة ياسين فى مجلد واحد بل يفتقر ذلك الى عدة مجلدات .

وانى اسأل الله ان يلهم العلماء الـــذين لهم اطـلاع واسـع على حقـائق العلم اليقينى الذى اكتشفته الحضارة الحديثة والعلم اليقينى المدخر فى معجزات القرآن المجيد فيكون ذلـك باعثـا لهم ان يتممـوا مابـدأت به من تأويل ايات وحى الله المعجز المتحدى ليكون ميسـرا للعلماء الـذين لم يكتب لهم مثـل هذه الدراسة ان يطلعوا على المعجزات القرآنية الصارخة واى مجد اكبر واجل من الاطلاع على ذلك . اذن فلنتلوا بخشوع .

«وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين «٢٣» فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » سورة البقرة الآيات ٢٣ ـ ٢٤

وكثيرة هى آيات التحدى الصارخ فى القرآن المجيد وانى اكتفى هنا بعرض معجزة علمية واحدة مما جاء فى مؤلفى معجزات قلب القرآن التى يقصد بها اثبات حقا الآخرة من الوجهة العلمية اليقينية لاجل تحديها البين .

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهى رميم » . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون » . سورة يس الآيات ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩

ذلك لان الشجر الاخضر يمتص الحرارة من الشمس بطريقة الهية تكوينية امتصاصا عجيبا لو استطاع العلماء ان يفيدوا من هذه الطريقة كما افادوا فى صنع الرادار من اذن الوطواط لكان ذلك انقاذا للبشرية من فقد البترول لان طاقة الشمس هائلة جدا ودائمة ومنتشرة فى كل مكان ولولا ان الشجر الاخضر يمتص حرارة الشمس لما كان فى الارض الوقود من الفحم الحجرى أو الغاز او البترول الذى مصدره الشجر الاخضر بل ان الشجر الاخضر ايضا يمتص الكربون ويحوله الى اوكسجين والاوكسجين هو مادة اشتعال النار لذلك كانت هذه الآية القرآنية من معجزات العلم فى عصرنا الحديث وكم من سخافة فى قول الذين قالوا لو كان التعبير بالشجر اليابس لكان اولى لان الحطب والفحم فى زعمهم هو مصدر النار ونسوا ان الشجر الاخضر يشتمل على المعجزة العلمية الهائلة فلو جاء النص بالشجر اليابس لما كان ثمة اعجاز علمى فى الآية

ومهما يكن فآيات القرآن المجيد زاخرة بالمعجزات العلمية واحسب ان عالمنا المادى ينطوى وتنطوى معالم الحياة معه، ومعجزات القرآن تظل ابدية رغم الملحدين والفاجرين والكافرين

والذين يتلهفون بكل افئدتهم واشواقهم الى ان يطلعوا على حقيقة هذا السؤال والجواب عليه فى مؤلفى « اعجاز قلب القرآن » فليعودوا اليه فان فيه الآن الكفاية . والله ولى التوفيق .

١ ـ كم اتمنى ان تكشف حقائق العلم الذى تم بموجبه تكوين الكائنات المادية والطاقات العاقلة وسواها .

٢ ـ كم اتمنى ان يطلع البشر كل البشر على وقائع تاريخ الامم وافرادها كما حصلت بالذات منذ بداية احوال الانسان الفطرى الى نهاية الانسان الحضارى الحديث الملحق بمكوكه بين كواكب السماء .

٣ ـ كم اتمنى ان تتجلى كيفية بداية تكوين الكائنات وتطورها ، وما صحب ذلك وما يكون وراء ذلك .

٤ ـ كم اتمنى ان تنكشف عوالم الطاقات كافة العاقلة وغير العاقلة والملهمة وغير الملهمة وسننها الظاهرة وسننها الخفية .

٥ ـ كم اتمنى ان يعلم البشر جميعا حقائق الوحى الالهى كما بلغه الامين جبر يل الى رسل الله كافة دون تحريف او تبديل او زيادة او نقصان .

٦ ـ كم اتمنى ان يخترع المخترعون الات تفصل لجج الاصوات المتشابكة المتداخلة فى ابعاد الفضاء وتفرز كل صوت وينسب الى صاحبه دون اختلاط وتداخل وغمغمة وجمجمة . وحينئذ نسمع اصوات الرسل والشعراء والخطباء والكاتبين ونصوص الكتب المقدسة نسمعها دون زيادة او نقصان .

وحينئذ نلمس اضافات الدساسين ، ومفتريات المؤلهين ودمى الاساطير والوثنيات والشرك فى كلمات الله ، لمس الحواس الخمس .

٧ ـ وكم اتمنى ان يتطور صنع المكوك الفضائى حتى يبلغ سرعته سرعة الضوء اى ستة وثمانين ومائة الف ميل فى الثانية الواحدة .

وان يكبر حجمه حتى يضارع المنطاد ليطوف حول انجم المجرات . باكبر عدد من الرواد . هذه امنياتى بكل اشواقى ولهفاتى لعلماء الاجيال المقبلة الامينة على حقائق العلم اليقينى واذا لذلكم ان تسألونى لماذا كانت هاتيكم الامنيات هى كل اشواقى ولهفاتى كان جوابى برهانه صارخ من اعماق ضمير الكون ومتفجر من ينابيع وحي الله المعجز المتحدى وصدى لشرف العلم فى مجالى مجموعتى النفسية . لان بذور اغراس العلم اليقينى منثورة فى خصوبة وحى الله ، القرآن المجيد ، فيقينه يقينها واذا التقيا تفتحت ورود المعرفة بنضارتها واطيافها وثمراتها الناضجة واضوائها الباهرة . والالتقاء يكون بعمل العلماء الامناء على الجهاد فى كشف حقائق المعرفة .

لذلك كانت امنياتى هذه هى ذات امنيات العلماء فى كل عصر ومصر . ناهيك بعلماء الحضارة الحديثة ، فهم يلتهبون اشواقا ودراسات وتأملات من اجل كشف الامنيات التى بدأت بها كلمتى هذه .

الا ان كشف حقائق المعرفة اليقينية فى حضارتها الحديثة الراقية ، كشف حتمى لتحديات معجزات القرآن المجيد .

كما ان امنيات علمائنا المؤمنين بخاتم الكتب السماوية القرآن المجيدة ان يكشف الله لعلماء الحضارة الحديثة مغاليق علوم الكائنات المترامية فى ابعاد الفضاء .

والسبب ان علماءها المؤمنين ، متاكدون ان العلماء الاخرين الذين لما يكشف لهم بعد تحديات معجزات القرآن العلمية اذا كشف لهم ذلك حتما يؤمنون ، لان العالم الامين المتحرر اذا عرف الحقيقة اعلنها وآمن بها وجاهد من اجلها وضحى ، والواقع ان معارف تحديات معجزات القرآن المجيد ما تزال بكرا بكرا لم تفتح كل اغلاقها والعلماء ما يزالون مستغرقين خشوعا حيال شواطىء بحارها العميقة ذوات اللجج . .

واحسبك يأخذك الطرب والاسى :

١ ـ الطرب حيال تحديات اعجاز القرآن المجيد الذى يزداد قوة وعزة وانتصارا وجدة . كلما ازداد العلم قوة وعزة وانتصارا وجدة فالعلم هو النور الذى يريك الكوكب الدُّرى وهاجا فى بحر الظلمات . اى يريك القرآن ساطعا على عرش الاعجاز فوق أعلى منارات الحقيقة على الاطلاق .

٢ ـ والاسى حيال العلماء الاخرين الذين يسارعون فيعرضون عن الايمان بخاتم الكتب السماوية شأن الاغبياء المقلدين الإمعَّات المهاويس . وذلك قبل الدراسة والتبين .

ومهما يكن فانصرافهم عن الايمان مع تحديات معجزات القرآن الساطعة الصارخة ان هو الا عصبية لعنصرياتهم وغواية لانفاذ مكايدهم ، وكفر برسالة ارسل الله رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وحرب لله رب العالمين وخاتم رسله محمد ﷺ ومحارب الله حتما مهزوم شر انهزام . اما ايات الله فستظل فى كل عصر ومصر معلنة غلاّبة منصورة وهاهى عاقبة المكذبين مشاهدة فى مهالكهم ورمم جثثهم .

«فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . »من سورة النمل الآيات ١٣ ـ ١٤

وهنا اعرض الاسباب الحقيقية التى صرفت فريقا من علماء البشر عن الاقبال على

دراسة معجزات خاتم كتب الوحى المتحدى ، وهى اسباب عدة واليك مجملها .

السبب الاول :

انهم درسوا كتبهم الدينية المقدسة فوجدوا حشوها الاساطير والترهات وخرافات الوثنية والاشراك فحسبوا ان كتب الاديان المقدسة كلها من هذا القبيل فاعرضوا عنها جملة . وهذا الاعراض جناية ومسئوليته العلمية كبيرة جدا ، لانه اعراض عن وحى الله العلمى اليقينى فالاعراض عنه قبل الدرس مسئولية خطيرة ، وجريمة منكرة ، والله محال ان يترك المعرض بدون عقوبة .

السبب الثانى :

الالحاد : والعالم الملحد الذى لايؤمن بوجود الله رب العالمين فكيف نريد منه ان يؤمن بان خاتم الكتب السماوية هو كلام رب العالمين لابد من تقديم برهان وجود الله اولا .

ولله فى هذه العوالم كتابان يدلان على حقائق وجوده جل جلاله ، كتاب الكائنات ، وهى صارخة دالة عليه وكتاب الوحى المعجز ، وهو صارخ دال على وجوده ، وزيادة على ذلك دال على صدق رسالة خاتم رسل الله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه .

والالحاد ظلام حالك مسدل على مجموعة نفس الملحد فلا يجعله يبصر حقائق العلم اليقينى المشتمل على اسرار تكوين العوالم ، فيؤمن بان الله هو مكونها بعلمه وقدرته وارادته . ومتى عمى العقل الانسانى عن مشاهدة اضواء هاتين الحقيقتين فلا يرجى منه ايمان يقينى علمى بوحى الله القرآن المجيد .

السبب الثالث :

اقتصار البحث العلمى على ظواهر الاشياء ، ومتى وقف العقل العلمى البحاث على دراسة ظواهر الاشياء فكيف يمكن ان يهتدى الى كشف خفايا المعجزات المكنوزة فى آيات القرآن المجيد او المكنوزة فى حقائق افراد الكائنات . الا ترى ان العلماء لولم يتابعوا دراسة حقائق انفلاق الذرة لما اهتدوا الى خفاياها ، ولو لم يهتدوا الى خفاياها لما علمنا انها تشتمل على اجزاء ، وان كل جزء هو اصغر من الذرة . . بل لما ظهر اعجاز القرآن القطعى ، وظهران الذرة فى موازين مثاقيل العلم . . لها ماهو اصغر» منها كما جاء فى وحى الله «مثقال ذرة او اصغر كما تحقق بطلان قول فلاسفة اليونان القدماء ان الذرة هى اصغر ما فى الوجود المادى وانها الجزء « الذى لايتجزأ » .

اذن فالسبب فى جحود ان القرآن المجيد هو كلام رب العالمين وانه غير مشتمل على دلائل علمية يقينية تكشف لعقل الانسان انه كلام رب العالمين هو انصراف العلماء العباقرة من الاجانب عن متابعة دراسة المعجزات بصدق واخلاص ، والعلماء الذين

ينصـرفـون عن كشف المعجـزات المتحـديـات فى آيات القرآن المجيد قلما يؤمنون ، اما الاستمتاع الى تلاوة آيات القرآن بخشوع وانكسار رجاء البركة والقربى فانه غير متابعة الـدراسـة الكشـافـة الامينة ، ومتى انصرف الفكر العلمى البحاث عن متابعة الدراسة الكشافة الامينة ، فلا تقر جحود الجاحدين ان القرآن ليس هو من كلام رب العالمين .
اذن فالانصـراف عن كتـاب رب العـالمـين هو اثر من الاقتصار على دراسة ظواهره وانى أضرب لك مثلا ان دراسة الظاهر الماثل امامك محال ان تكشف الحقائق الخفية .
هب انك جلست حيال اكبر رئيس فى الارض واخذت تتحدث اليه وانت تفكر فيه وتنظر اليه فانه محال ان يخطر فى بالك انه كان علقة بين ملايين العلقات من منيّ يمنى .
وانه اتصل ببويضة والدته ثم مرت به الادوار التى تمر على كل انسان فى الرحم ثم ولد وحفـظ كما يحفـظ كل وليـد وانـه قد مرت به الادوار الحيـاتيـة التى تمر على كل وليد منذ دخوله لاول مرة مدرسة حديقة الاطفال وقد تطورت به الحياة حتى اصبح زعيما عظيما .
اجل انت لاتفكر فى كل ذلك لكى تتخذ لنفسك عبرة ايمان وفكر وعلم ، بل لايدور فى خلدك بعض ذلك .
والسبب انك تصرف كل تفكيرك وانت حياله وناظر اليه ، فى الوسائل التى يمكنك ان تفيد منه لنفسك ان كنت انانيا ، أو لأمتك وأبناء امتك إن كنت اجتماعيا وللانسانية كافة من اجل سلامها وهداها وتوحيد كلمتها وكف اذى المجرمين الممزقين عنها . . اذا كنت انسانا عالما سليما مؤمنا . .
هذا الـوضـع الـذى مثلتـه لك هو حال اكثـر العلماء وهم ينظـرون الى ظواهر عوالم الـوجـود يكتفـون باوضـاعها القريبة والبعيدة والصغيرة والكبيرة وما صغر وما كبر دون التفكـير فى اسـرار حقـائقهـا وكيف وجـدت ، ودون التفكـر فى اسـرار حقائق موجدها وصفـاتـه ومـا يجب له ومـا يجوز عليـه ومـا يستحيل وهم من جراء استغراقهم فى ظواهر الكائنات ودراستها والاهتمام بها فى عمى اسرار وجود الله خالقها العظيم وهذا العمى هو الذى يصرفهم عن التعرف اليه فى حقائق كائنة فى خاتم الوحى الالهى كما يصرفهم عن التعرف اليه فى حقائق اكوانه التى كونها بعلمه وقدرته وارادته .
السبب الرابع :
خضـوع المجمـوعـة النفسيـة للغريزة او العاطفة لانهم شبهوا مجموعة نفس الانسان بالمملكـة فلابـد لها من حاكم مطـاع تكـون له القيادة والامر والنهى والاخذ والعطاء اى تكـون له السلطـة التنفيـذية على كل افراد المجموعة النفسية واكثر البشر مهيمنون على افـراد مجمـوعتهم النفسية الغريزة أو العاطفة وهؤلاء إن يكونوا من سلائل اديان وثنية او

مشـركـة فلا رجـاء فيهم أن يؤمنـوا بخـاتم الكتب السـماويـة ولـو انكشفت لهم فى اثناء دراساتهم براهين العلم اليقينى الناطقة انه كلام رب العالمين .

واما العلماء الـذين تسـود مجموعاتهم النفسية حكومة الفكر والعلم فانهم يؤمنون اذا انكشفت لهم معجـزات ايـات القـران المجيد ، وقد يتطوعون للدعاية له لدى الاوساط العلمية احتسابا لوجه الله رب العالمين .

ومتى كان العلماء خاضعين لحكومة غرائزهم وعواطفهم فانهم محال ان يؤمنوا بالقرآن المجيد لانهم يكونون اسراء موثوقين نفسيا لها .

ولا حيلة لهم فى تأييد الحق ولا لهفة ولا وثيقة ولو عذبوا عذابا اليما فى نار جهنم ومع ذلـك اذا فرض انهم عادوا الى حالهم واخـرجـوا من نار جهنم لعـادوا الى كفـرهم وجحـودهم واعـراضهم عن دراسة القرآن المجيد . وصدق الله العظيم فى وصف هؤلاء الغريزيين المصرين على الكفر والالحاد والشرك والوثنية

« ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » . سورة الأنعام (٢٨)

ونهـايـة الامـر فنحن لانخاف العقل ولكن نخاف العاطفة المنحرفة والغريزة الهائجة القلقة ولا نخاف العلم ولكن نخاف الجهل . ولانخاف التجديد بل نخاف الجمود وكم وكم من البشر اصحاب النفوس الساذجة الضيقة التى تخال نفسها مفكرة حرة اذا ألحدت . .

القيد افسح من عقول عصابةٍ زعمت مكان العقل فى الالحاد

رُسل الله

صلوات الله وسلامه عليهم

توطئة

إنا نجد فريقاً من الشُّبان المثقفين ثقافةً حديثة ، في بحرانٍ من قلق النفسِ ، واضطرابِ الفكر ، وثورةِ الانطلاق المفات ، واللهفة الشاعلة لنيل المآرب ، والطموح الشامخ لتحقيق الأمجاد .

هم يريدون أن يحققوا للانسانية مُثُلها العليا بما يملكون من جهد ونشاط ، ومن علوم ، أو فنون ، أو أدب أو متاجرٍ ، أو مصانع وحرفٍ .. كما يريدون أن يحققوا لأنفسِهم ما تشتهي من حظوظِ الدنيا ، وأمجادها الخالدة .

وهؤلاءِ الشبّان المثقفون فريقان :

١ — فريق يريد أن يصل إلى ذلك . بالتزام وحي الله واستقامته وهدايته واعتداله وامانته وصدقه وتضحيته وإيثاره ، وعدم حسد أحدٍ أو الإضرار به .. ولو بقلامة ظفر أو غمزة طرف أو اشارة أصبع .

وهؤلاءِ هم المؤمنون بالله وملائكتهِ وكُتبه ورُسُله ، ولا يفرقون

بين أحدٍ من رُسلهِ ، وهم يسمعون ويطيعون كما قال الله عزّ وجلّ :

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢ــ٢٨٥)

٢ ــ وفريق يريدون أن يصلوا إلى ذلك بأي طريقٍ كان .. فسيَّان لديهم الاعتدال والافراطُ ، والاستقامةُ والاعوجاج ، والهداية والضلالةُ ، والأمانة والخيانة ، والصدقُ والكذب ، والإضرارُ بالناسِ ، والكفُّ عن ذلك القصد الأساسي هو الوصول .

والسَّبَبُ أنهمْ انتهازيون خطِرون ، يعتقدون أن الإفْراطَ والإعوجاج والضلالة والخيانة والكذب والإضرار بالناس والدهانَ ، فطنةٌ وذكـاءٌ وقدرةٌ على نَصْبِ الفخاخ ، واللعب على الحبال ، والإسراع في الإثراء من أوسع أبوابه . ألا يا لعنة الله حُلّي بساحتهم ، لأنهم هم المنافقون ، الذين يتظاهرون بالإيمـان رغبة بالكسب الحرام ، ويبطنون الكفر . ويزعمون الإصلاح من طريق الإفساد ، وينسبون إلى المؤمنين الصادقين السفاهة وصِغرَ الأحلام ، وإن كانوا هم أسْفهَ البشر وأتفههم أحلاماً . غرهم الشيطان بالأماني الزائلة فاغتروا وساروا في دروبه ، وهذا هـو حالهم كما وصفهم الله في وحيه المنزل ..

١ ــ وَمِـنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)

٢ ــ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ

وَما يَشْعُرُونَ (٩) .

٣ ــ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) .

٤ ــ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) .

٥ ــ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) .

٦ ــ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) (٢ ــ ١٣) .

وقال أيضاً فيهم :

١ ــ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) .

٢ ــ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦) .

٣ ــ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً (٤ ــ ١٤٧) .

فهذا الفريق من الشبان أحوجُ مـا يكونُ إلى هداية رسل الله ، وما أنزل الله من وحيٍ لإسعادهمْ . والسُّمُوُّ بهم لنيل مُشْتَهياتِهِمْ من طريق الهـدى والخير والأسوة الحسنة ومكارم الأخلاق . والسعي للصعود إلى الأمجاد الكريمة الخالدة ، ذات النفع الدائم لهم وللناس جميعاً.

لذلك أودّ من كلّ قلبي ومن كلّ حبي وإخلاصي لإسعاد الفريقين، أن أقدم صفحةً مشرقة من أعمال رُسُل الله ، وكل أعمال رسل الله مُشْرِقةٌ ، وأخصُ بالذكر منهم أولي العزم : نوحاً وابراهيم وموسى وعيسى ومحمداً ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ لتضيء للفريقين طريق إسعادِهِمْ ، ورَفع الشقاء عنهم ، وبلبلة أفكارهم ، وقلق أنفسهم ، وخير أعمالهم ..

١ ــ أقدمُها للفريق الأول : وأنا أرجو لهمْ مَزيد الهداية والاستقامة، وحمل شرف الدّعاية إلى الله عز وجل .

٢ ــ وأقدمها للفريق الثاني : وأنا آمل أن يكفوا عن الإنحراف ، وأن ينصرفوا عن الإيغال في المآثم التي لا تضرُ إلاّ بهم ، ولا تردي سواهم .

وهذا يَعزُ عليّ، يشهدُ الله ، لأني أودّ من صميم فؤادي أن يعيش هذا الجيل على هُدى السلف الصالح . لأن قول إمام دار الهجرة مالك ابن أنس رضي الله عنه لا يزال شُغلَ فُؤادي،ومناط تفكيري ، ومنهج إصلاحي وهو :

« لا يصلحُ آخر هذه الأمة إلا بما صَلُحَ به أولها » ولله الأمر من قبلُ ومنْ بعدُ ...

الرسل صلوات الله وسلامه عليهم

كانت أفكار البشر ، وعقائدهم مكبوتة ، مطوقة بالأغلال والأصفاد، منذ أبعد الأزمان ، بسبب خنوعهم للتقاليد .

ثور يحملُ الأرض !!! وشمسٌ تطوف بهـا ، ونُجَيْماتٌ راعشة متناثرةٌ حواليها !!! هذا هو كل الكون الذي صورته لهم تقاليدهم ، وبحكم غريزة التّدين والتفكر في صنعه ، اعتقد كل البشر ، أنه لا بدّ من إلَه صانع له ومهيمنٍ عليه : الا أن كل فريق اتخذ لنفسه إلَهاً أو آلهةً خاصة له : آمن بها وعبدها عبادة بدائيةً بالرقص والتصفيق ونفخ القصب ، وضرب الدفوف ، وعُري الجنس والضحايا البشريـة ، ولا تزالُ بقايا هذه العبادة ، في مجاهل التخلف ، يرون بها تُقضي الحوائج ، وتقي المصائب والنوازل .

وقد اختلفوا أكبر الاختلاف ، في تعيين الكائن الذي يجبُ أن تسند اليه الألوهية ، وتعبد ، وفي قدرته جلب المنافع ، ودفع المضار ، ومن جراء ذلك ألّهَ كل فريقٍ من أفراد الكائنات ، ما تخيل انه القادر على فعل ذلك ، وعبده وفوض اليه الأمر .

١ — ففريق ألّهوا الشمس والنجوم والقمر ، ٢ — وفريق عبدوا الظلام والنور . ٣ — وآخرون ألّهوا الحيوانات ، من أعلاهـا الانسان إلى أدناها الجعلان والحشرات . ٤ — وفريقٌ عبدوا النباتات ، ولم تغرب عنهم عبادة الشيطان ، ولكن رحمة الله لم تدع البشر هائمين على قلوبهم، بين أساطير الوثنيات ، وخرافات الشرك ، على مدى الأجيال ، بل كان جلّ وعزّ ، يرسل اليهم الرسل مبشرين باصلاح الحال للمؤمنين الأخيار، ولا حزن ولا خوف . ومنذرين الكفرة الأشرار بالحزن والخوف وسوء الحال .

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَنْ آمَنَ

وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ (٦ ـــ ٤٨)

والهداةُ من رسل الله ، لم ينقطعوا عن التبشير والإنذار ، من أولهم آدم أبي البشر، إلى إرسال خاتمهم محمد بن عبد الله عليهم الصلاة والسلام.. وهذا هو الذي حصلَ ونصّ عليه الوحي ..

١ ـــ ... إِنَّمَا أَنتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (١٣ ـــ ٧)

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذيراً ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فيها نذيرٌ (٣٥ ـــ ٢٤)

ونصّ :

٢ ـــ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ في الأَوَّلِينَ (٤٣ ـــ ٦)

والله لم يذكرْ لنا كلَّ الرسل الذين أرسلهم إلى الأمم السابقة ، لأنّ هناك أمماً كانت قبلَ التاريخ وكان لها رسلٌ منذ ملايين السنين ، وبعد التاريخ أيضاً .. وهم كثيرون جداً ..

ومن أجل ذلك أفهمنا الله بصورة عامة ، أنّ كلَّ أمة خلتْ نالها حظّ الرسالة السماويةِ ، كما جعل لها منْسكاً هم ناسكوه ..

١ ـــ وَرُسلاً قَـــدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ ... (٤ ـــ ١٦٤).

٢ ـــ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلا يُنَازِعُنَّك في الأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٢٢ـــ٦٧)

والله لم ينزل وحيهُ على رسولٍ إلا بلسانِ قومه:

وَما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ...

(١٤ — ٤) .

والآن تستطيع أن تفهم مما سلف أن الله لم يخص أمةً بحمل الرسالات السماويةِ دون سواهـا . لأن رحمة الله عامةٌ شاملة بارسالِ الرسل ، ومفروضة للمؤمنين بهم العاملين .

« ... ورَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنونَ (٧ — ١٥٦)

وما وحي الله المنزل على الرسل إلا رحمةٌ للناس كافـة . فلا ينبغي الكفر به ، ولا الاعراض عنه .

والله سبحانه وتعالى يقول عن الألواح التي سطرت عليهـا التوراة لسيدنا موسى عليه السلام .

وَلَمّا سَكَتَ عَنْ موسَىٰ الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفي نُسْخَتِها هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبونَ (٧ — ١٥٤)

ويقول في الإنجيل الذي آتاه سيدنا عيسى المسيح عليه السلام :

وَقَفَّيْنا عَلىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْناهُ الإِنْجِيلَ فيه هُدًى ونورٌ وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَهُدًى ومَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٥ — ٤٦)

ويقول في حق خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ :

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (٢١ – ١٠٧)

ويقول في خاتم الوحي الإلهي القرآن المجيد المنزل عليه .

لَوْ أَنْزَلْنا هَذا الْقُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٥٩ – ٢١)

نعم نجد الوحي الإلهي ، لم يذكر رسل الأمم القديمة التي عاشت قبل التاريخ ، دفعاً لارتياب الملحدين ، إن ذكرهم تفصيلاً ، ولكثرتهم ..

ولكن ذكر لنا في خاتم كتبه السماوية القرآن المجيد أسماء فريق منهم لقرب جوارهم للعرب ومعرفتهم بهـم ، ومنهم من كان مـن العرب أنفسهم ، وقد جاء ذكر معظمهم في قوله تعالى :

وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوودَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَموسَى وَهٰرونَ وَكَذلِكَ نَجْزي الْمُحْسِنينَ (٨٤)

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحينَ (٨٥)

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ(٨٦)
وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧)
ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)
أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ
بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩)
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ... » (٦ ــ ٩٠)

واليك أسماء البقية الذين جاء ذكرهم في وحي الله في نصوص أخرى . وهم آدم ، إدريس ، هود ، صالح ، شعيب ، ذو الكفل ، محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ورسالة رب العالمين إلى البشر ضرورية ، إذ لولاها ، لظلت عقائدهم في تكوين الكائنات تزحف على بطنها بين الالحاد والوثنيــة ، أي لظل البشر إما ملحدون يدينون بالصدف ، وينسبون اليها كل أعمال التكوين في الوجود . وإما وثنيون ، قد اتخذوا مما هب ودب آلهَة . واعتقدوا أنها المكونة المتصرفة في كل شيء . فالذين رأوا الوجود صغيراً من الوثنيين اعتقدوا أنه من صنع الآلهــة المتخذة من الجماد أو الحيوان أو النبات ، والذين علموا الوجود أكبر ممـــا تصوره الوثنيون إستبعدوا أن يكون من

صنع ما اتخذ الوثنيون من آلهة !! وألحدوا بها وعطلوا حقائق الألوان الناطقة بوجود الله جلّ وعزّ .

لذلك كانت رسالة الرسل ، ضرورية ، لأنها عرفتهم بحقائق وجود الله ، وخصائص صفاته ، الخليقة بجلاله سبحانه وتعالى ، وكشفت زيغ الإلحاد والتعطيل وشطط الفكر ، وفساد الفهم .

أولو العزم من الرسل

كل رسل الله أخيارٌ أطهارٌ بررةٌ ، وكل خفقات القلوب المؤمنة هي أضواءٌ من المودات المتقدة في أعماقها لهم ، وكل رسل الله إلى البشر بشرٌ اختارهم الله ليكونوا هداةً إلى الكمال الممكن لأمثالهم ، وما امتنع عن الإيمان بهم بحجة أنهم بشر ، إلا صغار الأحلام ، ولو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل عليهم رسلاً ملائكة ..

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً (٩٤)

قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً (١٧ — ٩٥)

ومع أن كل رسل الله أخيارٌ أطهارٌ بررةٌ ، إلا أن الله فضل بعضهم على بعض .

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بعضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ

وَأَيَّدْنَاهُ ، بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢ – ٢٥٣)

... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (١٧ – ٥٥)

ولما كان أولو العزم الخمس من رسل الله ، قد تجلت آثارهم النورانية الخالدة في هداية البشر إلى الإيمان الحق ، والسلام الصافي ، والمودة غير المدخولة ، والإيثار العملي الناطق والتسامح المخلص ، والتعاون الخير ، والتضحية في سبيل الله ، آثرت التحدث عنهم ليكونوا لنا أسوة .

وهم نوحٌ ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ، كما آثرت ، أن أرفع هذا المؤلف إلى محرابهم السماوي المعمور ، وأن أذكر نبذاً عن بعض أمجادهم المباركة ، التي تفضل الله بها عليهم ، وقد شرفهم بالثناء على اخلاص عبوديتهم له جل وعلا ، فهم عباد الله المكرمون الأطهار الأخيار البررة ، في كل أدوار حياتهم ...

١ – أول أولي العزم نوح عليه الصلاة والسلام

١ – جـاء سيدنا نوح ، والبشر جلامد صماء عاتيـة ، مصفدون بأغلال تقاليدهم ، ومزهوون بأساطير معتقداتهم الوثنية المنحطة ، وأخلاقهم الشرسة القاسية ، فأخذ يدأب الليل والنهار ، وهو يدعوهم إلى الايمان

السماوي الصحيح ، ليخرجهم من غياهب الوثنية والشرك ، إلى مشارق أنوار الإيمان الساطعة ، وهـو مشفق عليهم يخشى أن ينزل بهم العذاب بسبب اعراضهم عنه ، وسخريتهم به .

١ – لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)

٢ – قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠)

٣ – قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١)

٤ – أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٧ – ٦٣)

٢ – وإعراضُ قومه وإصرارهم على تقاليدهم الوثنية ، لم يحل دون استمراره في دعوتهم ، لينهض بعقليتهم إلى وعي حقائق الايمان الصحيح ، والتغذي بها، وهضمها وتمثلها في أعمال مجيدة سامية .

وحينئذ تنزاح عن نفسياتهم ، غشاوة التقاليد البالية ، ويفهمون أن نوحاً مرسلٌ من الله اليهم ، لإصلاحهم واسعادهم وتآلفهم حقاً وصدقاً ، فلا يستصغر أغنياؤهم فقراءهم ، وهم يحسبون أن الخير محصورٌ فيهم ، ولا يتجاوزهم إلى الفقراء ، ويرفضون أن يكونـوا مثلهم ، ويفهمهم نوح أن كبريائهم سوف ترديهم ، وانه لا يستطيع مطلقـاً أن يزدريهم ازدراءهم . وأن يمنعهم من الإيمان ، لأن ذلك هو الظلم بعينه ، والله

أعلم بنفوسهم من كل أحد . وعقوبة طردهم من الله مخيفة ، ولا إفلات منها ولا نصرة .

وهو يعلنهم أنه ليس ملكاً ، ولا يملك خزائن الله . ولا يعلم الغيب بل لا يريد أن يتفضل عليهم بالإيمان .

وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١١ — ٣١)

٣ — ولاقى رسول الله نوح من الأهوال ما لاقى : من ترصد وإيذاء وكراهية ، وكم حاولو أن يبطشوا به ، لا لشيء . إلا لأنه يريد إسعادهم وتصحيح عقايتهم ، وإيمانهم بالله خالقهم العظيم . ولكنهم باؤوا بالفشل ، واستجاب الله دعاءه ونجاه من شرهم وأغرقهم بالطوفان .

وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٢١ — ٧٧)

٤ — وجاء رسول الله نوح والبشر لا تزال تغشاهم مواريث العصر الغابي من قسوة في العواطف ، وتحجر في التفكير ، وخبث في الطباع ، وجمود في العقائد ، فإيمانهم كان مقتصراً على ما ورثوا من جهالات وكفرهم بحقائق وحي الله ، فكانوا يضعون أصابعهم في آذانهم ، ويغمضون

أعينهم ويتجللون بثيابهم كلما دعاهم إلى حقائق الايمان بوحي الله . وها هو رسول الله نوح يستجير بالله مما لاقى ويلاقي منهم .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَاراً (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَاراً (٧١ — ٧)

وعد إلى اكمال سورة نوح ، في القرآن المجيد ، ورقمها (٧١) كما رأيت . فانك تفهم كم كانت تلاقي رسل الله من الصدود والسخرية بهم ، والأذى من الخلق !!! وهم لا يريدون لهم إلا الخير والهداية . ونوح ككل رسل الله : هـا أنت ذا تجده يلفتُ أنظار الخلق ، إلى جلال ما كوّن الخالق في الوجود من الأكوان ، قال :

مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (١٦) وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (١٨) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً (٧١ — ٢٠)

فلو كانت الأرض وهاداً سحيقة ، واطواداً شامخة ، ولم تكن مبسوطة على عِظَمِ تكويرها ، لما استطاع الانسان العيش على ظهرها والسير عليها من قارة إلى قارة .

وجزى الله رسول الله نوحاً ، فقد نصح للبشر وأدّى الرسالة . ولكن البشر كانوا ظلمةً جبارين ضارين مضرين ، فما انتفعوا بوحي الله ، ولا نفعوا .

٢ – ثاني أولي العزم خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام

سيدنا ابراهيم والد الأنبياء السّاميين أبناء منطقتنا ، أرسله الله في عاصفٍ موارٍ من الشرك والوثنية ، وقد طغى على الكرة الأرضية طغيان طوفان نوح .

فكان لا بد من ركوب الأخطار ، وامتطاء الأهوال ، واقتحام الصعاب ، لتأخذ الدعوة إلى الإيمان الصحيح مجراها الصافي الدفاق .

ولِمَ لا يكون الأمر كذلك ، والأساطير والترهات تشرق بالشعوب وتغرّبُ . والكهنة يعقدون لهم العقائد ويهولونها بمدهشات الألغاز ، وخفايا الرموز ، والتواء الطقوس ، مما زينوا لهم من أنواع الآلهة ، كي يتسلطوا عليهم ، وينالوا منهم مآربهم .. حتى الحكام الزمنيون دعوا لعبادتهم الجماهير ، ورأوا في ذلك كسباً لقلوبهم .

على أن عبادتهم في زعمهم اكرم وأروع وأفضل من عبادة الأبقار والأحجار والنيران والشمس والكواكب التي كانت تسود المجتمعات . والحق أن عبادة غير الله العظيم كفر ، وأن الإيمان هو خاص بعبادة الله الخالق العظيم .

أجل جاء سيدنا ابراهيم ولم يبق بين البشر من آثار وحي الله الذي جاء به نوح ، إلا ما يشبه العتمة بعد زوال الشفق الأحمر ، حين يأتي عليه سريان الليل ، وتغرقه أهازيعه في بحر الظلمات ...

والكهان يزينون لهم عبادة الآلهة التي اتخذوها لهم من شتى أفراد الكائنات باختراع الخوارق المدهشة ، وعب النزوات المغرية . ويهولونها بتعقيد العقائد ، وتعمية مدلولاتها بمدهشات الألغاز ، وخفايا الرموز ، والتواءات الطقوس . لكي يسخروا الجماهير تسخير الدواب ، حتى ينالوا منهم وينيلوا من يرهبونهم من الرؤساء نزوات الشياطين .

١ – هذا ما حدا بالحكام الزمنيين إلى فرض تأليههم وعبادتهم على الجماهير ، ورأوا في ذلك كسباً لقلوبهم وإذعاناً لهم . بل رأوا تأليههم وعبادتهم أجدى وأفضل من عبادة الأحجار والأبقار والفيلة والنجوم والشموس والظلام والنور والنار ، وناهيك بما كان بين سيدنا إبراهيم ، والنمرود من جراء ذلك من مواقف جد حاسمة .

كن محرراً يقظاً واعياً مثل خليل الرحمن تحظ بصحة الايمان المنجي إن كنت ممن يرغب في صحة الايمان المنجي .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢ – ٢٥٨)

وسيدنا ابراهيم ، قد استطاع منذ أربعين قرناً ، أن يُفهم العقل الانساني طريق الايمان اليقيني الصحيح .

أفهمه إياه بالمشاهدة العيانية ، والنظر العلمي الدقيق ، والفكر المتحرك المنطلق .

وجعل أهلها يستطيعون أن يعلموا يقيناً ، أن تأليه أي فردٍ من أفراد الكائنات ، مهما كبر وعظم ، باطل في عين الواقع اليقيني المشاهد ، وقد مثل حالهم في أدوار التأليـه المخترع حتى انتهى منه إلى إعلان حقيقة الإيمان العلمي اليقيني .

وكان كل ذلك مما أراه الله إيـاه في ماكوت السموات والأرض ، وأفهمه له ليُفهمه لقومه العميان الكبار .

وَكَذلِكَ نُري إِبْراهيمَ مَلَكُوتَ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنينَ (٦ ـــ ٧٥)

أما تراه لمـا أظلم عليه الليل ، ورأى الكوكب يضيء من جانب الأفق ، لفت نظر قومه اليه . وهو يقول مشيراً اليه « هذا ربـي ! » .

وقصده أن ينقلهم من الآلهـة المتخذة من كائنات الأرض إلى التفكير في ملكوت السماوات الذي لا تعد الأرض بالنسبة إليه إلا ذرة هزيلة ..

وبعد هذه النقلـة ، إنتظر إبراهيم حتى غـاب الكوكب في مجراه في الأفق ، وبدا القمر بازغاً ساطعاً .

وهنا حركهم إلى نقلة ثانية ، بتفكيرٍ حرٍ منطلقٍ قادرٍ على النقلة من الحسن إلى الأحسن ، إذا تأكدوا ذلك ، وبمثل هذا التحرك والانتقال يتم الوصول إلى الحقيقة الايمانية الكبرى .

أجل إن الوصول إلى الحقيقة لن يتم إلا بذلك . شرط أن يكون مع العزيمة والإرادة المصممة على التحرك والانتقال ، أي بعد انكشاف الحق الصراح . وهذا ظاهر في نص الآية ، وإلا ظل غارقـاً إلى أذنيـه في ضلاله . وكم في الاستعانة بالله إلى الهداية من توفيق عظيم .

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هٰذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدني رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ (٦ ـ ٧٧)

وإن حقيقة الإيمان اليقيني ، تتجسد بين أيديهم شاخصة اليهم . إذا هم تحركوا إلى النقلة الثالثة . وفي هذه النقلة أعلن إبراهيم تبرأهُ من كل توجه تأليه وعبادة واستعانة وضراعة لغير الله فاطر السموات والأرض رب العالمين ، تبرءاً مخلصاً من كل وثنية وشرك .

وإنا نجد في كل تحركاته العملية الدعوة المقصودة إلى الإيمان اليقيني الحق .

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذا رَبِّي هٰذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦ ـ ٧٩)

* يا لله !! كم نجد لسيدنا إبراهيم من إيمان عملي علمي يقيني مشاهد، يحرك به العقول الجامدة الملتوية على أوثانها وأصنامها ، يحركها تحركاً نيراً هادياً بعمق النظر . ودقة العمل ، وصدق النية وقوة البرهان الصارخ . الذي جعل الخصوم المعاندين المقلدين يثوبون إلى الواقع اليقيني الماثل أمامهم . ولولا سطوة التقاليد الهوجاء المهيمنة على أنفسهم . لثبتوا على الايمان الحق الذي هداهم اليه إبراهيم ، ولم ينتكسوا شر انتكاس ، عامدين إلى أسلوب العاجزين ، أي إلى البطش به وإحراقه في

النار . ولكن أنى يتم لهم ذلك وهو من أولي العزم . ولا بد من إتمام دعوته إلى الناس .

وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣)

قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤)

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥)

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)

وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)

قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢)

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣)

فَرَجعوا إلى أنفُسِهِمْ فقالوا إنَّكُمْ أنتُمُ الظَّالمونَ (٦٤)
ثُمَّ نُكِسُوا على رُؤُوسِهِمْ لقدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ ينْطِقونَ (٦٥)
قالَ أَفتَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَنفَعُكُمْ شيْئاً ولا يَضُرُّكُمْ (٦٦)
أُفٍّ لَكُمْ ولِما تَعْبُدون مِنْ دونِ اللهِ أفلا تَعقِلونَ (٦٧)
قالوا حَرِّقوهُ وانْصُروا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فاعِلينَ (٦٨)
قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْداً وسَلاماً على إبْراهِيمَ (٦٩)
وأَرادُوا بِهِ كَيْداً فجعَلْناهُمُ الأَخْسَرينَ (٢١ ــ ٧٠)

وهذا سيدنا ابراهيم يتغلغل في جزيرة العرب ، وينتقل بين قبائلها ، ويدعوهم إلى الإيمان بالله الخالق العظيم ، ويحطم الوثنية ، ويرجم الأصنام ، ويجدد بناء أول بيت عبادة شُيد في الكرة الأرضية ، في جزيرة العرب في مكة المكرمة .

ويدعو الناس إلى حجهِ ، والطواف حوله ، ومحاربة الوثنية والشرك، وهجر عبادة الأصنام وتجنبها .

فكان بحق داعم الحنيفية السمحة في جزيرة العرب المقدسة .

وقد ظل نسل ولده إسماعيل ــ الذين هم العرب المستعربة ــ يتكاثرون حتى كان منهم خاتم رسل الله محمد بن عبد الله ــ صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ــ .

وإذْ يرْفَعُ إبْراهِيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ (١٢٧)

رَبَّنَا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)
رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ انَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الْحَكِيمُ .
(٢ ـ ١٢٩)

٣ ـ ثالث أولي العزم رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام

بعد إبراهيم بخمسة قرون ، ساد الظلم والظلمات والاستبداد في كل مكان ، وابتعد البشر عن هدى الله كل الابتعاد .

وتعالى الرؤساء إلى عرش الألوهيـة ، وأخذوا يستعبدون الشعوب ، ويفرضون عليهم عبادتهم ، وانتشر الإفك وأباطيل السحر في المعابد ، وحل محل هدى الله . وأخذت الجماهير تستعين بالسحرة في شئون حياتهم ، ودخائل نفوسهم .

وتفاقم الفحش والانحراف . فاقتضت حكمة الله ارسال سيدنا موسى . وهو ثالث أولي العزم من الرسل لحمل الأمانة العظمى ، أمانة الاصلاح وتبليغ دعوة الإيمان الصحيح . والتذكير بالآخرة .

وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩)

إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)

فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١)

إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)

إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي (١٤)

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥)

فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى

(٢٠ ـ ١٦)

وكان هذا الاختيار لكليم الله ، مؤيداً بالمعجزة الصارخة المشاهدة المحسوسة لفرعون وقومه ، وهي معجزة العصا ، ولكن فرعون رفض الاذعان لما جاء به موسى اليه من رب العالمين ، لأنه كان ناصباً نفسه أنه هو رب العالمين ألم يقل :

فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى . (٧٩ ـ ٢٤)

ومن أجل ذلك غضب فرعون ، وأنكر صحة إرسال موسى ، من أحد غير نفسه ، ونسب معجزة العصا إلى السحر ، وهو مُصرٌّ على زعم الألوهية لنفسه ، بل قد ازداد إصراراً ، حين ذكر له موسى خصائص صفات رب العالمين ، وأعرض عن سماعها واستصغره ، ونعته

بالجنون ، حيال الشعب ، لكيلا يفطنوا على حقائق صفات الرب الأعلى، ولكي يظلوا معتقدين أنه هو الرب الأعلى . وفي الوقت نفسه هدد موسى بالسجن ، ليخيف الذين ارتابوا بألوهيته ، بعد أن سمعوا من موسى ما سمعوا . وهذا بعض الحوار الذي جرى بين سيدنا موسى وفرعون ، عن حقائق صفات رب العالمين .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالمِينَ (٢٣)
قَالَ رَبُّ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤)
قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تستمعون (٢٥)
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦)
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمجْنُونٌ (٢٧)
قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلونَ (٢٨)
قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ الهــاً غَيْري لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ .
(٢٦ ـــ ٢٩)

ومهما يكن ، فأنكر فرعون معجزة العصا الصارخة ، وإن هاله أمرها لما شاهدها . ولكن عناده جعلـــه ينسبها إلى السحر ، شأن العاجزين في كل زمان ومكان . فلجأ إلى إثارة الملأ ضد موسى ، فزعم أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم ، وتظاهر بالتواضع ، وترك الأمر اليهم ، ليلزمهم بما يرونه في حق موسى من تآمر وجحودٍ لما يدعوهم اليه .

والنتيجة واضحـــة ، لأن معجزة الله لا تُغلبُ ولا تُنقض ، ولـو اجتمعت الجن والانس من أجل ذلك .

وأُسقط في يـد فرعون حين أبصر السحرة ، الذين كان يرجو بهم الانتصار على موسى يخرون سجداً لإلـه موسى . ولا عجب لأنهم لمسوا جلال معجزة العصا ، وآثار قدرة الله الماثلة فيها ، وآمنوا ولم يبالوا بما سيكون من فرعون بعد ذلك ...

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ انَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤)

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرونَ (٣٥)

قَالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ في الْمَدائِنِ حَاشِرينَ (٣٦)

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَليمٍ (٣٧)

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨)

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعون (٣٩)

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانوا هُمُ الغَالِبِينَ (٤٠)

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَـا لَأَجْراً انْ كُنَّـا نَحْنُ الغَالِبِينَ (٤١)

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ اذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)

قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣)

فَأَلْقَوْا حِبَـالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الغَالِبونَ (٤٤)

فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥)
فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦)
قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧)
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨)
قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)
قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا الى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠)
إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٦ ــ ٥١)

وفكر فرعون أن يبطش بموسى وقومه ، خشية أن يؤمن الناس برسالة موسى ، ولكن الله أمر موسى بالخروج من مصر ليلاً ، قبل أن يبطش بهم فرعون .

وحين علم فرعون بخروجهم ليلاً لحق بهم ، حتى أبصر بعضهم بعضاً ، وخاف قوم موسى وتحققوا الهلاك ، إذا أدركهم فرعون وجنوده، لأن البحر اعترضهم ، فأين المفر ؟

ونسوا أنه رسولٌ من أولي العزم ، وأن النصرة والنجاة مكفولة له من الله عز وجل ، وتحقق كل ذلك . فأمره أن يضرب بعصاه البحر ،

فضرب وانفلق البحر ، واجتازه موسى ، ولحقــه فرعون ، فهلك هو وجنوده .

فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى اِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)
قَالَ كَلَّا اِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)
فَأَوْحَيْنَا الى مُوسَى أَنْ اَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِين (٦٤)
وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥)
ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦)
اِنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً وَما كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٦ ــ ٦٧)

٤ ــ رابع أولي العزم رسول الله سيدنا عيسى المسيح عليه الصلاة والسلام

لما بعُد العهد بسيدنا موسى ، وتناسى البشر ما جاء به من المودات الكريمة ، والأصول التشريعية الانسانية ، ودلائل الايمان اليقيني ، وبراهينه الصارخــة ، المشاهدة في معجزة العصا وسواهــا ... تحجرت القلـوب وقست ، وفسدت النفوس وعتت . واشتعلت النزوات وطغت ، وامتدت الأيدي إلى السحت وسلبت . وحرفت الشريعة بعبث التأويلات المبطنــة بالزيادة والنقصان ، وأصبحت بيوت الله مواطن بيعٍ وشراءٍ ، ومستقر

عصائب دسٍ وأذى ، ومجال أرصادٍ وعيونٍ في مهب هذه الأعاصير من الطغيان والعصيان والمفاسد ، وفي موقد عنصرية إبليس : — أنـا خير منه — وسائر البشر — حيوانات .

وفي ميراث الدسائس التقليدية . ضد حقائق الأمم وأديانها،واصلاحاتها ، أرسل الله روح المحبة والانسانية والسلام سيدنا عيسى المسيح — صلوات الله وسلامه عليه — مؤيداً بمعجزات قدرته الباهرة ، وعجائب ابداعها .

١ — أليس ميلاده كان فذاً،هو ابن السيدة الطاهرة البتول مريم ابنة عمران ، التي نشأت في أحضان الأنبياء ، وأقام لها نبي الله زكريا عليه السلام . الذي أكرمه الله بكفالتها ، محراباً مقدساً لاعتكافهـا في البيت المقدس ، واخلاص عبادتها لله ، وتوجهها اليه ، منقطعـة عن ملاهي البشر ، وهرجهم ومرجهم ، وكم شاهد نبي الله زكريـا ، من إكرام الله لمريم مـا شاهد ، وكم آنستها مناجاة الملائكة لهـا ، وهي خاشعة متبتلة ، وكم أمدها الله برزقٍ من السماء ، موائد كريمة .

هي قبسةٌ من قوابس الهداية ، تقبلها الله لتكون ربيبه بيته المقدس ، ورعاها في ابتهالاتها وضراعاتها له جلّ وعزّ ، وطهرها تطهيراً ، لتكون أماً مباركة لرسوله العظيم سيدنا عيسى المسيح ، عليه الصلاة والسلام ، وهذا وحي الله يعلن ذلك :

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَـا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣ — ٣٧)

وهذا روح القدس سيدنـــا جبريل . يهبط في صورة انسانٍ سويّ إلى السيدة مريم . بعد أن بلغت القمة في الطهارة والتزكية . وهو يحمل اليها روح سيدنا عيسى المسيح العظيمة . لتكون له أماً . وبشرها بذلك . فتعوذت بالله منه . وتعجبت كيف تكون أماً . دون أن يكون لها بعلٌ ، وهنا يكشف لها ملاك الوحي أسرار هذه العوالم ، وقدرة الله التي أبدعتها ، ولن يكون حملها بدون بعل صعباً أبداً .

والقصد أن يكون آية على تصرف القدرة الإلهَية للناس ، ويكون هو لهم رحمة من الله ، وهو أمرٌ مبرم .

وَٱذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً (١٦) فَٱتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَـا بَشَراً سَوِيّاً (١٧)
قَالَتْ إِنِّـي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً (١٨)
قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً (١٩)
قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً (٢٠)
قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَـانَ أَمْراً مَقْضِيّاً (١٩ ـــ ٢١)

وها هم أولاءِ الملائكـــة الكرام ، يهتفون بالسيدة الطـاهرة مريم ، ويمجدون النعم الكبرى التي أغدقها الله على السيدة الطاهرة مريم . ويطلبون اليها أن تستمر في عبادتها لربها لمزيد فيض النعم عليها .

وَإِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ انَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ العَالَمِينَ (٤٢)

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . (٣ ـ ٤٣)

ولله ما قالته الملائكة في البشارة بميلاد سيدنا عيسى المسيح ، ووجاهته في العالمين . وقربه من رب العالمين :

إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ انَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ (٣ ـ ٤٥)

ومن أجل ذلك ، كانت ولادته معجزة المعجزات ، بما أحاط بها من المدهشات .

ها هوذا يهتفُ بوالدته . حين اضطربت لما أبصرته تحتها . ويطمئنها .. كما هتف بقومها ، معرفاً بنفسه ومزيحاً عن والدته الريبة لما عرضوا بها بذكر شرف أهلها ، ومكان والدتها في التقوى والصلاح .

فَأَجَاءهَا المَخَاضُ الى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً (٢٣)

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً (٢٤)

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً (٢٥)
فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي
اِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ اِنسِيًّا (٢٦)
فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً (٢٧)
يَا أُخْتَ هَارُونَ مَـــا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ
بَغِيًّا (٢٨)
فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)
قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)
وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَـــا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ
مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١)
وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (٣٢)
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتَ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّـــاً
(١٩ ــ ٣٣)

ولله هي هاتيك الآيات المتحدية ، التي أيد الله بها رسالة سيدنا عيسى المسيح ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وآمن بها الناس بعد . إنها روائع آيات هائلـــة ؛ وبراهينُ حقٍ صادعـة حيرت ألباب العلماء ، وأدهشت نطس الأطباء . وجعلتهم يفكرون ويمعنون في التفكير ، وقـد تجلت لهم

قدرة الله في أقداره : مـــن شفاء للمرضى وإحيـــاء للموتى ، وإخبار بغيوب ما يسرون أو يجهرون ، فاستكانوا لعزيمة الإيمان ، وخشعوا ليقين رب العـــالمين ، وآمنوا بكل علومهم وعقولهم وقلوبهـــم ، وتدبروا ما استطاعوا التدبر ، وما جحد بها إلا كل منافق كفار ...

وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَـــيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِيءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٣ ــ ٤٩)

ودعا سيدنا عيسى المسيح ، إلى مـــا دعا اليه سيدنا موسى والأنبياء قبله ، فلم يغير حرفاً واحداً من ناموس الإيمان ــ الوصايا العشر ــ .

لأن حقيقة الذات الإلهية ، وصفاتها العليا ، وأسماءها الحسنى واحدة أزلاً وأبداً ، ويستحيل أن ينزلَ بهـــا ما ينزلُ بالأكوان الحادثـــة من التغيرات العامة والخاصة .

إنما التغيرات تكون في الشرائع التي توحى من رسالة إلى رسالة حسب الحاجات والمقتضيات .

من أجل ذلك أحل الله لسيدنا المسيح بعض ما حرّمه لسيدنا موسى :

وَمُصَدِّقاً لِمَـــا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)

إنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدوه هَـــذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ
(٣ ــ ٥١)

وأيد الله رسوله الكريم سيدنا عيسى المسيح بمائدة من السماء مباركة: دعماً لإيمان المؤمنين ، وزجراً لارتياب المرتابين ، استجابة لطلبهم .

وذكراها العظيمة هي عيد للأوائل والأواخر ، ويا ويل الذين ارتابوا بهـــا بعد نزولها ، إن العذاب الشديد الذي لم يعذب بـه أحد قبلهم من العالمين يرصدهم في آخرتهم .

ويسمي دارسو العهد الجديد هذه المـائدة السماويـة المباركة « العشاء الرباني » :

إذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مَائِدَةً مِنَ السَّماءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)
قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ونَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)
قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)
قَالَ اللهُ إنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحداً مِنَ العَالَمِينَ (٣ ــ ١١٥)

وما أعظم الحواريين خاصة تلامذة سيدنا عيسى ، وما أصدق إيمانهم، وما أخلد ذكراهم ، فهم أنصار الله حقـاً وصدقاً ، رغم النوازل التي نزلت بهم ، ورغم البلايا التي لحقت بهم من مكان إلى مكان .

فهم آمنوا وصدقوا وصبروا ونصروا وانتصروا .

وهذا خاتم الوحي الإلهي – القرآن المجيد – ينوه بهم ، وبتأييد الله لهم حتى ظهروا على أعدائهم من بني إسرائيل ، وسواهم :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَـةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (٦١ ـــ ١٤)

ويسعدني أن أختم نبذة سيرة سيدنـا المسيح بأبيـات أمير الشعراء أحمد شوقي :

وُلِدَ الرِّفقُ يومَ مولِدِ عيسى والمروءاتُ والهدى والحيـاءُ
وازدهى الكونُ بالوليدِ وضاءتْ بسناهُ مِنَ الثرى الأرجـاءُ
وسرت آيـة المسيح كما يسري من الفجرِ في الوجودِ الضياءُ
تمـلأُ الأرض والعوالمَ نـوراً فالثرى مـائجٌ بهـا وضّاءُ

٥ ـ خامس أولي العزم خاتمهم محمد ﷺ

جاء خاتم رسل الله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وجماهير البشرية على استشرافٍ لبلوغ رشدها العقلي والعلمي .

أي أصبحت تقدر أن تحكم العقل والعلم ، فيما تدعى اليه من عقائد، إن هي أرادت، أما قبل ذلك فقلما كانت تستطيع – ولو أرادت – لطغيان سلطة التقاليد الوحشية الوثنية المستعصية عليها .

ومن أجل ذلك كانت المعجزاتُ ، التي يؤيد الله بها رسلهُ ، مادية حسية مشاهدة ، وكل الأمر في جحودها ، أنها تُنسب إلى السحر دهاءً وكيداً من الملحدين العالمين بهـا ، وسذاجةً وحماقة من المغفلين الجاهلين بها ، كالعصا لسيدنا موسى . وإحياء الموتى لسيدنا عيسى .

وكانت معجزة خاتم الرسل العظمى عقلية علمية بيانية مثالية متحدية .

وهذا أمرٌ أكده وحيُ الله اليقيني المنزل عليه – القرآن المجيد – .

لأن رسالته خاتمة الرسالات السماوية ، ومستمرةٌ إلى نهاية العالم . فلا بد أن تكون معجزته خاتمة المعجزات ، ومستمرة إلى نهاية العالم .

والمعجزات المادية الحسية لا تصلح لذلك ، لأنهـا محصورة بزمنهـا ولا تتجاوزه . إذ يستحيل أن تظل عصا موسى . بين أيـدي البشر ، وقد انتقل إلى الله . ورسالتـه انتهت بمجيء سيدنا عيسى ، ولو بقيت العصا لما أرسله الله بعده .

أما المعجزة العقلية العامية البيانية الأبدية ، فهي وحدهـا القادرة أن تثبت صدق الرسالة في كل أجيال الانسانية المتعاقبـة ، وذلك إذا كانت المعجزة من ربٍّ العالمين حقـاً وصدقـاً ؛ لأن غير ربٍّ العالمين لا يستطيع ذلك .

وهذه حقيقة لا يرتابُ بها ذو عقلٍ وعلمٍ وبيان ، ولو قل ما يملك من كل ذلك .

والقرآن المجيد يعلن هذه الحقيقة في جملة من السور بصراحة ووضوح .

١ – أما كونه برهاناً من الله فاليك نصه المحكم :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (٤ ــ ١٧٤)

وكما أن كــل تكوين الكائنات برهان ناطق بوجود مكونــه العليم القادر جلّ وعزّ ، كذلك القرآن ، هــو برهان ناطق مــن الله جلّ جلاله ــ وكل سوره دالة على ذلك وإن قصرت .

٢ ــ وأما كونه موجهاً إلى العقل ، فهو مقرر في قوله تعالى :

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٢ ــ ٢)

وفي قوله تعالى :

إِعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٥٧ ــ ١٧)

والآيات التي تنص عــلى اعتماد العقل ، في الفهم والتفهيم ، كثيرة جداً ، وليس هنا موردها كافة ، والمراد بالعقل ، العقل المنطقي القادر عــلى التمييز بين حقائق الأشياء ، وليس العقل المدبر بالتقاليد ، الذي يجعل أصحابه جامدين على وتيرة واحــدة كالدواب ، وفيهم يقول الله عزّ وجلّ :

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٨ ــ ٢٢)

٣ ــ وأما كونه موجهاً إلى العلماء فإنه جلّ وعزّ يقول :

... وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩ ــ ١١)

ويقول :

وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ الْعَالِمُونَ (٢٩ــ٤٣)

ويقول :

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٣٤ ــ ٦)

ويقول :

إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥)

فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٦ ــ ٩٧)

وأقول ما قلته آنفاً ، إن النصوص في ذلك وفيرة جداً ، ويكفي أن تعلم ، أن الله جل وعز ، نص أن القرآن المجيد آيات بينات : تسألني في صدور من ؟!! الجواب من الله جل وعز : « في صدور الذين أوتوا العلم » كما أن جحوده ظلم ، لأنه جحود بيقين العلم .

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ في صُدُورِ الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٢٩ ــ ٤٩)

ويكفي لكي يدرك الدارسون ، قيمة العلم في وحي الله ، أنه أعلن أن الجاهلين دون العلماء . وهذا شرف للعلم واهله ، ما فوقه شرف ، يعي ذلك ويتذكر به أرباب العقول العالمة :

... قُلْ هَلْ يَسْتَوي الَّذينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ (٣٩ ــ ٩)

وهل ملأ مكاتب العالم العامة والخاصة ، بالمؤلفات الضخمة، والتفاسير الهائلة ، والمعارف المختلفة ، والشرائع والآداب ، إلا وحي الله المعجز القرآن المجيد ؟!!

وأي كتاب في الدنيا ، له كل هذه الآثار الضخمة الخالدة ؟ ليكون نداً للقرآن المجيد ، ويتحدى به إعجازه السرمدي الذي هو روح من رب العالمين . أنزله جل وعز ، ليكون حجة علمه الأزلي الصارخة على مدى الأجيال ، فإن كان نده موجوداً في تأريخه أو قبله أو بعده ، فليعرض على المجامع العلمية ، ليقارن به القرآن . والتحدي مستمر إلى نهاية العالم .

٤ ــ وأما كونه معجزة بيانية متحدية إلى الأبد ، فاليك نصوصها من القرآن المجيد .

يكفي أن تعلم أن الله يعلن أنه نزّله بعلمه ، وهل علم الله قليل ؟ لا لا ، ليس بالقليل أبداً ، ادرس القرآن بكل ما تملك من علم وفكر ومقارنة تلمس هذه الحقيقة لمس اليد ..

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ تَنْزِيلاً (٧٦ ــ ٢٣)

تَبَارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً (٢٥ ــ ١)

والفرقان كل كتاب من عند الله ، لأنه يفرق بين الحق والباطل والعلم والجهل والدين والأسطورة .

والمقصود هنا « القرآن نفسه » لظهور كل ذلك فيه بوضوح .

... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلمُسْلِمِينَ (١٦ ــ ٨٩)

والقرآن المجيد نزل بعلم الله ، الذي لا يتخلف في شيءٍ . هذا محالٌ ، ولكن المتخلف ، هو علم الانسان . لذلك كلما تقدم الانسان في العلم ، قرب من فهم علم الله الذي أودعه في وحيه اليقيني ..

... فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمونَ (١١ ــ ١٤)

وَلَقدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ (٧ ــ ٥٢)

وإذا تدبرت الآيات المتحدية المنزلة اخذتك دهشة وحيرة وقلت : هذه مخاطرة ، إن لم تكن مؤمناً ، ولم تكن عالماً بالقرآن ، العلم الصحيح الصريح وإن كنت مؤمناً ، وكنت عالماً بتأويل القرآن المجيد ، العلم

الصريح الصحيح ، تولاك جلال الوحي وعمق اعجازه وسطوة تحديه ، بخشوع واكبار ، ويقين وصلاة ودعاء .

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (١٧ ـ ٨٨)

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢ ـ ٢٣)

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢ ـ ٢٤)

إذن فالريب منشأه كذب التقاليد والجهل ، لاصدق الايمان والعلم ، والنفي المؤيد على عدم قدرتهم على فعل التحدي بالمثل أو بدون المثل ــ هم ومن يشهدون لهم بالألوهية من دون الله ، هو أعنف نفي ساخر منازل في طلب التحدي . والحق أن هذا التحدي الموجه لكل الأزمنة ، ولكل الأجيال ، ولكل الآلهة المتخذة من أفراد الكائنات ، لا يصدر إلا عن الخالق العظيم ، لأن أي إنسان له مسكة من عقل ، لا يورط نفسه لمثل هذا التحدي العارم . لأنه يجهل الغيب ، فما بالك بسيد العقلاء خاتم رسل الله صلوات الله وسلامه عليه . وها هي الحضارات تتوالى ، ويتصدرها القرآن المجيد ، والقرآن المجيد نور الوحي الإلهي ، لا يقوى ولا يشتد ولا يتألق إعجازه وتحديه إلا بغزارة العلوم ، التي تكتشف وتجدد والقرآن المجيد قادم على إعجاز كبير كبير جداً جداً ، يوم يحصل

التوسع ، في كشف معارف الطاقات العاقلة وسواها ... وهذه مطالعهـــا بدأت تسفر ..

إسمع وتدبر وفكر وانقد مـا لديك من تقاليد ، إن كنت من العلماء المحررين الذين هم مطمئنون بوجود الخالق العظيم ، وبوجوب الإيمان به على وجهه العلمي اليقيني الصحيح ، البعيد عن الظنون والأوهام .

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلاَّ ظَنّاً إنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيْئاً إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (٣٦)

وَما كَانَ هٰذا القُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ وَلٰكِنْ تَصْديقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيـــهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ (٣٧)

أَمْ يَقُولونَ اُفْتَراهُ قُلْ فَأْتوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)

بَـــلْ كَذَّبوا بِمَا لَمْ يُحِيطوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْويلُهُ كَذٰلكَ كَـــذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

(١٠ ــ ٣٩)

والقسم المدخر من تأويل القرآن للأجيال ، فيه من التحدي العاصف ما فيه !!..

ومن هذا اللون العاصف المتحدي ، ما ورد في سورة هود :

فَلَعَلكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقولوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ (١٢)

أَمْ يَقولونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبوا لَكُمْ فَاعْلَموا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١١ ــ ١٤)

وحسب خاتم الكتب السماوية ، والقرآن المجيد ، أن الله جل جلاله، هو الذي علَّمه للناس كما علّم البيان . وهذا شرفٌ عظيمٌ ، لا يعدله شرف .

الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ القُرْآنَ ، خَلَقَ الإِنسَانَ ، عَلَّمَهُ البَيَانَ .
(٥٥ ــ ١ ، ٤)

والحق أن القرآن المجيد ، لو أُنزلت آياته ، على جلامد جبل أشم، وقد آتاه الله العلم والعقل ، شأن الانسان ، لكان خيراً من الانسان ، أي لتصدع شموخه العاتي خشوعاً ، وتفجرت صخوره إيماناً وعلماً لخلوه من عتو التقاليد . ولكن أنزل على البشر ، فكانوا أشدّ قسوة وعتواً من الجبال الشامخة . وقد ضرب الله هذا المثل لنا من أجل أن نتفكر في وضعنا المزري ، واستبداد التقاليد بنا . ونستفيد من هدى القرآن ، ونقتبس من أنواره ما نستطيع اقتباسه ونعيش سحابة أعمارنا سعداء بمثله

العليا وإصلاحاته الفضلى .. طارحين أغلال التقاليد تحت أقدامنا .

لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذا القُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٥٩ ـــ ٢١)

وإذا تعمقنا دراسة القرآن المجيد ، وجدنا آياته الكريمة بصائر معرفة من رب العالمين : أي أضواء كشافة ترينا العلم من الجهل . والحق من الباطل والدين من الأسطورة . والصدق من الكذب . فالذين يبصرون بها فلأنفسهم يعود الخير . والذين يعمون عنها فلأنفسهم يعود الشر ، ورسول الله وظيفته التبليغ ، وليس في امكانه أن يحفظهم من الانحراف عن آيات الله عز وجل ، أو أن يرغمهم على الاستضاءة بأنوار معارفه الباهرة .

ومهما يكن فالذين يدرسون آيات القرآن المجيد ، بإنصاف وأمانة للعلم ، يجدونها بصائر معرفة حقاً ، وهم حتماً يقولون: إن لم يكونوا عالمين بسيرة حياة سيدنا محمد ﷺ ولم يكونوا مؤمنين به ، إنه دارس علوم الكون في جامعات اليونان والرومان دراسة عميقة كاشفة .

أما المؤمنون المطلعون على سيرة حياته ﷺ . فإنهم يعلمون يقيناً ، أن ما تشتمل عليه آيات القرآن من بصائر العلم المتحدي معارف كل حضارة ، هو برهانه القطعي أنه وحي رب العالمين حقاً وصدقاً .

والبصيرة كشف الحقيقة الدالة ، والحجة القاطعة .

وتصريف الآيات هو تقلبها في شتى أوجه المعرفة . والله يفعل ذلك تحقيقاً لإعجازه المتحدي على كل مستويات المعرفة الصاعدة المتجددة ،

ولأجل أن يامس الملاحـدة أن جحودهم لإعجازه ، لا سند لـه من العلم والعقل والحق ..

ولا ريب أن تصريف المولى لآيات وحيه في جملة حقائق المعرفـة الأصيلة التي أودعها فيها تتجلى في ناحيتين :

١ ــ تتجلى في قوله جل اسمه

وَلِيَقُولوا دَرَسْتَ ...

أي ليقول العلماء المتعمقون النظر في مدلولاتها . فاللام تفيد علة القول، ويقرن الفعل المضارع ، يدل على امتداد زمن القول في المستقبل، فيكون تصريف المولى لآياته في حقائق المعرفـة مقصوداً ليكون بصائر علم يقيني صاعد ، يقال لمن تعمقه : درست درست في عهد كل تطور حضاري .

وتفسير ذلك أن درست تدل على تأكد حصول الدراسة السابقة المحيطة بكل المعارف التي تستجد ، وهذا لا يمكن أن يكون الا لمن يعلم مجاري الأقدار الكونية أزلاً وأبداً : ذلك هو الله علام الغيوب ، لأن درست محال أن تكون مقصورة على زمن صاحب الرسالة فحسب ، لا لا !! بل مقصودة أن تـدل أن منطق علم الله في القرآن سابق كـل المعارف المكتشفة في واقع يقينها على مدى الأعصار ، ليعلم البشر جميعاً أنها من علم الله ، وأمناء العلماء الراسخون يجدون أصول معارف القرآن سابقـة لمعارفهم ، ولا يجدون فيها مـا يعد باطلاً . هذا محال ، ولو وصلوا بعرباتهم الفضائية إلى كل الأكوان المترامية في مجاهل الفضاء ، ودرسوها عن كثب ذرةً ذرة وطاقةً طاقة ، لأن منطق علم الله لن يتخلف .

ومهما يكن فمعارف القرآن كمعارف الكون ، همـا موجودتـان قبل وجود المعارف الانسانية اليقينيـة الصاعدة ، التي وظيفتها الاعتراف ، من

لجج معارف الكون ، وسبق معارف القرآن ، مفهوم من لفظة درست . وهذا هو مجال اعجاز القرآن الكبير المتحدي ..

على أن بعد نزول القرآن، ادّعم بنيان المعارف الانسانية . على الواقع العيان المشاهد . وخلت من زيف الأساطير ، وترهات الأساطير، وتأويلات المخرفين المتصلة بتكوين الأكوان وسواها .

تتجلى في قوله تعالى :

وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ

أي أن تحقيق تصريف الآيات ، في مختلف أنواع المعرفة ، وبيانه للأجيال ، من شأن العلماء الراسخين . لما يقتضيه من عمق الدراسة ، والبحث الطويل ، والأمانة العلمية التي لا تفرط في حق يقيني مهما كانت التضحيات ، وسوى العلماء الراسخين الأمناء ، ليس في مقدورهم كشف الاعجاز المدخر في تصريف الآيات ، في مختلف أنواع المعرفة ..

والخلاصة أن كشف معارف القرآن الصاعدة ، التي هي فوق معارف البشر على مدى الأجيال ، هو من شأن العلماء الراسخين الأمناء !!.

هذا جانبٌ من المدلولات المتجلية في الآيتين الآتيتين ...

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنا عَلَيْكُمْ بِحَفيظٍ (١٠٤)

وَكَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ وَلِيَقولوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ (٦ ــ ١٠٥)

أفهم الله خاتم رسله محمداً صلوات الله وسلامه عليه فيما ما أوحاه اليه .

أن لا ظلم أهول بلايا ، ولا أفدح ضحايا ، ولا أسحق لحقائق الايمان اليقينية ، وسامي مودتها وصلاتها الكريمة . ولا أمحق للعلم والفكر والحق والضمير ، من أمورٍ ثلاثة :

١ — ظلم إفتراء الكذب على الله عز وجل ، ودسه في وحي الله لإفساده لا يعدله ظلم . وناهيك بانقياد الأنفس لهذا الظلم ، إذ لقنوه في غفلات الطفولة أنه وحي الله ، ثم يعين اجباراً في التربية والتثقيف . هناك بلية البلايا المزمنة ، وأهوالها المردية . ومن عرف مهالك تأريخ البشر قديماً وحديثاً وعرف هذه الحقيقة ، علم مصدر إشعال النار . وعلم يقيناً أن كلمة واحدةً مفتراة تُدس في كتاب حقٍ تحوله إلى باطلٍ ، وفي كتاب إنسانية تحوله إلى عنصرية . وفي كتاب توحيدٍ تحوله إلى إشراكٍ ووثنية . وفي كتاب دعوة تعارفٍ ومودة رحمٍ انسانيٍ تحوله إلى دعوة تقاطع وبغضاء .

وإذا كان مطلق كذب يعد جريمة يعاقب القضاء مفتريها ، فما بالك بمن يفتري الكذب على الله جل وعز .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً »

ألا أين أنتن يا وزارات المعارف ، ولماذا لا تفصلين ما دسه الدساسون عن واقع وحي الله اليقيني ؟!!

والوحي اليقيني يدل بنفسه على نفسه هو رحم وتوحيد وتضحية وصبر وصلح وسمو وخلق وكرم وبسالة وقوة ورضا وقناعة وعطاء وإيثار وتسامح وعمل وجد ونشاط واستقامة وصلاة وصيام وتقوى وعلم وحق وصدق وانسانية وعدل وغفران وتفاهم ووداد وتعارف ؛ فما كان من هذا القبيل فهو ما تجده في نصوص الوحي اليقيني حتماً . وما لم يكن كذلك فالله لا يوحيه ، وهو من قبيل الظنون والأوهام ودس العنصريات

والوثنيات والشرك ، لأن الله لا يريد ظلماً للعباد .

وَما ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦ ـ ١١٨)

٢ ـ ظلم الذين يزعمون أن الله أوحى اليهم ، والله لم يوح اليهم بشيء ، وإنما هم يخترعون المفتريات اختراعاً . وشتان بين كلام رب العالمين ، المعجز المتحدي . وكلامهم الساقط الواهن .

أجل شتان بين كلام الشخص العادي ذي الأنانيات والأثرات والأحقاد والعنصريات والضعف الانساني الواهن . وبين كلام رب العالمين ، وراحم الخلق أجمعين الشامل لمثل الاصلاح العليا ، ومنافعه السرمدية ذي القوة المتين .

ولا ريب أن الرسالة الإلهية تحتاج إلى اعداد إلهي ممتاز . وتكوين نفسي خاص . ومواهب خلقية عالية فذة . وتبرئة من العيوب التي تحط من قدر الإنسان . في خواطر عارفيه . ولو كان ذا قدر كبير في مجتمعه . وهذا ما عناه حسان بن ثابت في قوله لرسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مادحاً :

خُلِقتَ مُبَرَّءاً من كلِّ عيبٍ كأنك قد خُلِقتَ كما تشاءُ

فاقتحامها بالإفك والقول على رب العالمين ، والإضلال واللعب على الحبال ، لايخفى على الدارسين المتعمقين منها كانت التعميات والبلهوانيات وإخفاء الحقائق .

ولعل أهول كوارث الانسانية . التي تقوض وحدتها . وتفرقها أيدي سبا ، وتجعلها فرقاً متحاقدة متآمرة . فأتاها ممن ينصب نفسه رسولاً يوحى اليه من الله . وهو الذي يلفق الكلام .

إنه عذاب ، إنه موت ، إنه طامة ...

لأن الدنيا ملأى بالإمعات ، أتباع كل ناعق . وبالانتهازيين المجرمين

الذي يدسون أنفسهم في كل دعوة جديدة . بغيـة الافادة والكسب ، ولا ريب أن كل متنبىء هو المراد بقوله تعالى :

... أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ (٦ ــ ٩٣)

ظلمُ خبيث الطويـة الحقود ، الذي تنفخه روائح الكبرياء النتنـة . وغرورهـا الشيطاني الجاحد . فيتحدى معجزة وحي الله بالهراء ، ولغو القول . ويزعم أنه قادرٌ على صنع مثلها .

والحق أنه لا يتحدى إلا خسران نفسه . ولا تشغل بالك في نهايـة هؤلاء الانصاف الثلاثة . إنها نارٌ . إنهـا عذابٌ . إنها هوانٌ . وكل ذلك وِفاقُ أعمالهم .

هؤلاء ملائكة العذاب تنزع أرواحهم من أجسادهم الفاسدة نزع الحبال من الأسلاك الشائكة ، جزاء إفتراء الكذب على الله . والاعراض المستكبر عن فهم ، ما أوحاه الله في القرآن المجيد . لكي لا تنكشف حقائقـه اليقينية لهم ، وإن كان كبيراً في الإثم أن يظلوا معرضين عنـه اعتباطاً أو تقليداً أو عناداً أو مصانعة للغير ..

هذا بعض ما يمكن أن تفهمه من قوله تعالى :

وَمَنْ أَظلَمُ مِمَّنْ ٱفْتَرى عَلى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمونَ في غَمَرَاتِ المَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطو أَيْدِيهِـمْ أَخرِجوا أَنْفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقولون عَلى اللهِ غَيْرَ الحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرونَ (٦ ــ ٩٣)

والله جل وعز . محالٌ أن يؤيد الرسول الكاذب . الذي يتقول عليه الأقاويل وينصره بالأتباع البررة الطاهرين الصابرين المضحين . بل يقضي عليه وعلى أتباعه أنّى حلوا . وفي أي مكان نزلوا .

وهلا يقدر المتقول على الله أن يحجز نفسه من إنتقام الله . أو أحد يحجزه عنه . لا لا أحد .

وَلَو تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاويلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِين .

(٦٩ ــ ٤٧)

وما أحسن ما روي عن سيدنا عيسى المسيح :

« كل شجرة لا تثمرُ ثمراً جيداً تُقطعُ وتلقى في النار » .

ولا أظن الدنيا بأسرها تشتمل على كتاب وحيٍ يتحدى الله به الإنس والجن والآلهة المعبودة من دونه . سوى خاتم الكتب السماوية : القرآن المجيد .

وهذه ثماره الجيدة معروضة على المجامع العلميـة والمختبرات لدرسها وفحصها . معروضة بتحدٍ واعجاز ، باسم الله الخلاق رب العالمين، على مدى الأزمان والأجيال .

ــ ذكر الله جــل وعز في صدر سورة البقرة من آيـة رقم ٢ إلى آية رقم ٢٠ ، أن الناس منقسمون حيال دعوة تصحيح الايمان اليقيني ، التي ارسل لأجلهـا خاتم رسله محمداً صلوات الله وسلامه عليــه ، إلى ثلاثة أقسام :

١ ـــ مؤمنون

٢ ـــ كافرون

٢ ـــ منافقون

وذكر لنا أن المنافقين أخطر الفرق الثلاث ، لأنهم مذبذبون ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء . ولولا أنهم خطرون لما أمر الله رسوله الكريم أن يحذرهم في قوله :

هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦٣ ـــ ٤)

ومأتى خطورتهم أنهم يعيشون بين المؤمنين ، باسم مؤمنين ، وما هم بمؤمنين ، ويخالطونهم باسم أمناء : في صلاتهم وحجهم وصيامهم وقيامهم ، وفي كل أمرٍ جامعٍ ، وهم خائنون .

وأية خيانة أكبر من تفريق الكلمـــة ، ودس الفتن ، وإفساد خطط الاصلاح الانساني ، التي من أجلها أرسل الله خاتم رسله .

وانك تجد مع كل حذر رسول الله، من خفايا مكايدهم ، ومؤامراتهم ، يصون دماءهم ، ويرعى حرماتهم ، ويعاملهم بانسانية لا تعدلها انسانية أهل هذا العصر القمري ، التي يعتبرونها أعلى انسانية عالمية مثقفة حضارية راقية ، وجدت على وجه الأرض ، وقـــد عاملت المخالفين في العقيدة والرأي ، المعاملـــة الوديـة الفذة . سواء أكانوا أبناء وطن واحد ، أو أبناء أوطانٍ مختلفة .

وإني أقدم للمطالعين ، حادثة واحدة من حوادث كُثُر ، وردت في النصوص اليقينية لتكون اسوةً انسانية حسنة للناس جميعاً .

تلك الحادثة هي أن بني المصطلق الذين هم فرع من خزاعة ، وموطنهم على مقربـــة من مكة ، لم ترق لهم دعوة توحيد العرب عـــلى حقائق

الايمان ، بما أنزل الله على محمد ﷺ من قرآن . بل فضلوا عليه ترهات الوثنية والشرك وصغارهما وجاهليتها ، فتعاقدوا مع من شايعهم على قتال نبي الله وصحبه ، وكان الحاقد الأول الممرور الذي ألبهم على ذلك هو رئيسهم الحارث بن أبي ضرار .

وعلم رسول الله بالأمر ، فخشي أن يبادروه على حين غرةٍ كعادة العرب ، فكان أسبق منهم إلى المبادرة وسلم لواء المهاجرين لأبي بكر، ولواء الأنصار لسعد بن معاذ .

وأحيط ببني المصطلق وأخذوا أسرى . ولم يجدوا بداً من أن يسلموا، ومع كل ذلك لم يقتل المسلمون منهم في المعركة سوى عشرة ، واكتفوا بأسرهم .

هذه هي إنسانية رسول الله ، التي لا تزال البشرية ، وهي على سطح القمر ، تجدها أسمى وأسمى !! لما هي فيه من انحطاط ..

أنظروا ما اتخذ نبي الله من إجراءات لإرجاع أمن بني المصطلق وكرامتهم اليهم – وهم الذين لو استطاعوا أن يصلوا اليه لما تراجعوا عن البطش به، وبمن معه . ولكن الانسانية العليا بها لا تعلق تخلفات البشر وصغارهم ونفايات تقاليدهم وجيفها ونتنها .

إنه صاهرهم لكي يجعل لهم حرمة مؤثلة في أنفس أصحابه ، والمصاهرة شأنها عظيم عند العرب ، ولا تزال وشائجها قوية حتى اليوم . ومن اطلع على سيرة صقر الجزيرة ، الملك عبد العزيز آل سعود يجد لهذه المصاهرة العربية الكريمة آثارها المباركة . وهذا الذي كان منهم في زمن رسول الله ﷺ . فأطلق المسلمون سراحهم ، وقالوا أصهار رسول الله ، وعاد كل شيء إلى حالة من قبل . بله ما امتازوا به من شأن رفيع .

وإني لم أسق هذه النبذة من غزوة بني المصطلق ، لبيان سمو الرحمة

الإنسانية ، التي كانت تقوم عليهـــا أعمال النبي ﷺ . فذلك مدون في النصوص اليقينية التي تنادي :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » ..

وأحسبك تعلم أن المفكر الافرنسي « غوستاف لوبون » هتف بها في عصر الحضارة هذا قائلاً :

ما رأى التاريخ فاتحاً أرحم من العرب ...

أجل لم أسق هذه النبذة لبيان مدى الرحمة الانسانية التي كان رسول الله ﷺ يعامل بهـــا محاربيه . بل سقتهـا ، لكشف خطر المنافقين على مصير حياة الأمة وكيف كان رسول الله يعالج أمراض نفوسهم المستعصية : بالحكمة العالية ، والنظر السديد ، والخلق الكريم ، إلى جانب اليقظـــة والانتباه والحزم والعزم خشية انتشار العدوى .

والحادثة هي أن عبد الله بن أُبي رئيس المنافقين كان هو وأتباعـــه مشتركين في هذه الغزوة ، لأمرين : لمدس الفتنة ، وكسب الغنيمة ..

وصادف أن وجد سبباً يصلح لاثارة الفتنة وإشعال لهيبها ، والتنفيس عن أحقاده الدفينة ضد رسول الله ﷺ .

وذلك أن أجيراً لعمر بن الخطاب جاء إلى الماء ليسقي فرسه ، فوجد رجلاً من الخزرج عليه ، فزاحه شأن السقاة صغيري الأحلام . فتتاكسا فتشابكا ، فأخذ أجير عمر يستصرخ المهاجرين ، وطفق الأنصاري يستصرخ الأنصار .

وهنا انتهز الفرصة كبير المنافقين عبد الله بن أُبي فقال لمن حولـــه إثارة للفتنة :

« لقد كاثرنا هؤلاء المهاجرون في ديارنا ، وانتفعوا بأموالنـا ، فلو أمسكتم أيديكم عنهم لتحولوا عن دياركم » .

وكاد قوله المتآمر الحقود يشعل الفتنة اشعالاً .

... لَئِنْ رَجعْنَا إلى المدينَةَ لَيُخْرِجَنَّ الأَعزُّ مِنْها الأَذَلَّ (٦٣ ـ ٨)

وأبلغ المؤمنون نبي الله هذا القول الدساس الحقود الفتاك . وقد آلمهم أن زعيماً كبيراً كعبد الله بن أبي كاد يُمَلَّكُ قبل الإسلام ، يتجاهل الأمجاد الانسانية الكبرى ، التي أرسل الله خاتم رسله لتشييدها لا لِقومه العرب فحسب ، بل للانسانية جمعاء . يتجاهلها بعقليته الجاهلية المتخلفة . وغرائزه المنحطة ، فيرونه يحقد ويتآمر ويكيد كيداً مـن وراء وراء .. ومع ذلك يتظاهر بالايمان ، ويصر على إنكار ما قاله عامداً أمام رسول الله ﷺ .

ولكن وحي الله فضحه هو واتباعه . وأكد كل أقواله الحاقدة الرعناء ، وقد كانت الفضيحة صريحة لاذعة .

وكان عمر بن الخطاب طلب إلى رسول الله قتلـه ، ولكن حكمة الأسوة الأعظم ، ونظرته البعيدة الثاقبة ، جعلته يقول لعمر :

.. « فكيف – يا عمرُ – إذا تحدث الناس ، وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه .. »

وكان ولده عبـد الله المؤمن الصادق ، قد ضاق بأبيـه صدراً ، وبالحري بعد نزول الآيات التي كشفته ، فجاء إلى رسول الله ، وقـد حسب أنه يريد قتله . فقال :

ــ « إنـه بلغني أنك تريد قتل أبـي فيما بلغك عنـه ، فإن كنت فاعلاً ، فمرني بقتله ، فإني لأخشى أن تـأمر غيري بقتلـه ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتله ، فأقتل مؤمناً بكافر . فأدخل النار .. »

فأجابه نبي الانسانية العالية : « إنا لا نقتله ، نترفق بـه ، ونحسن صحبته ما بقي معنا . »

والآن أتل معي هذه الآيات :

هُمْ الَّذِينَ يَقولونَ لا تُنفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧)

يَقولونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المَدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمؤْمِنينَ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمونَ .

(٦٣ ــ ٨)

وهنا ينبغي أن نكبر الايمـان الصادق الذي يتجلى في نفس ولـده عبد الله حيث يجعل والده وأتباعه يلمسون أن العزة لله ولرسوله ، وأن الذلة لهم ، حيث استل سيفه ، ووقف في وجه والده عند دخول المدينة ، وصرخ في وجهه والغضب يشتعل في وجهه اشتعالاً قف « فوالله لا أغمد هذا السيف حتى تقول : محمد الأعز ــ وأنـا الأذل » . فمـا وسعه إلا أن يقولهـا وهو صاغر . لأنه رأى الجد في وجـه ولده عبد الله . وحقق العزة لله ولرسولـه . وللمؤمنين . ولمس المنافقـون ، أن العزة للمؤمنين والذلة لهم .

الموضوع الأول

حقائق الإيمان[٧]

إلفات نظر

إن لدينا نشأً شادين ، تلقوا الثقافة الغربيـة على علاتها ، ولم تتوفر لديهم الملكاتُ العلمية ، التي يستطيعون بهـا ، أن يميزوا بين معارفها اليقينية ، وبين ظنونها وفروضها المنسوبة إلى يقين العلم ، ومـا هي من يقين العلم في شيء ...

نسبت اليه هوساً وادعاءً وتظاهراً ...

ومهما يكن ، فهؤلاء الشبان الناشئون ، ليست لديهم المعارف الواسعة، التي يستطيعون بها التمييز بين ثقافـة الغرب في القرون الوسطى ، وبين ثقافتنا ، وبين ما يدينون به من عقائد وما ندين به ، وفقدان هـذه الثقافة التي تجعلهم يملكون القدرة على التمييز بين ما كان لدى الغربيين ولدينا من معارف وعقائد ، هو الذي جعلهم يظنون أن كـل حملات الغربيين الدينية ، وإلحادهم وانحرافهم ، هو حرية وتقدم وصعود علمي، بالنسبة لنا نحن أيضاً ، وهـذا ارتداد منكر وخطأ فاحش أوقعهم في الإختلاط والإرتباك وفساد الأحكام .

لذلك نجد المفكرين لدينا ، يعملون جاهدين ، بمعارفهم وآدابهم ، وبنشاطهم واخلاصهم ، من أجـل توجيه ناشئتنا المثقفين ثقافة غربية

التوجيه الصحيح ، حتى يميزوا بين الثقافتين وبين ما نعتقد ويعتقدون من اتجاهات دينية وأخلاقية واجتماعية .

وهذا الخطأ الذي جعل شبابنا يأخذون عن الغربيين كل انتقاداتهم الموجهة ضد تخلف مجتمعهم في القرون الوسطى ، ليطبّقوها على مجتمعنا العربي ، كما يأخذ العميان نظارات المبصرين الموضوعة طبياً حَسَب أنظارهم . وما يفيد العميان بها سوى الظلام الذي هم فيه ، على أن نظارات العميان التي يقصد بها ستر الأعين هي ملوّنة قاتمة ، أي ليست شفافة صافية كاشفة .

والحق أن نفس شباب الغرب ، حين يقرأون ما يكتبه علماؤهم ومفكروهم من نقد لماضيهم في القرون الوسطى ، يُحسون بأنهم خرجوا من أحداث مظلمة وأغلال ضيقة ، لأن ما كتبه علماؤهم في هذا السبيل يجدونه حقاً ، وهم بالنظر لحداثة ثقافتهم وطفولتها ، وعدم اطّلاعهم على ما كان للشرق العربي في القرون الوسطى ، من جامعات كبرى ، ومعارف صاعدة ، واطّراد في التقدم ، وسموّ في الآداب ، وحرية في الفكر ، واجتهاد في الرأي ، يحسبون أن الشرق في القرون الوسطى مثل غربهم ، وهم معذورون من ناحية عدم تثقيفهم بما يجهلون من واقع ما كان للشرق ، وإن كان العلم لا يعذر أحداً بجهله ، إذ صدور الأحكام مع الجهل مسئولية خطيرة ، وفواجع بلائه كبيرة ، فما بالك إذا صدرت الأحكام بالجهل بماضي شرقنا العربي من شبّانه أنفسهم ، فالمصيبة تكون مضاعفة ، والبلاء أدهى وأمرّ ، والمسئولية أخطر ، لأن السهم الذي يطلقونه حينئذ ، يرتد الى صدورهم .

وما أكثر الشبان الشادين ، الذين تُطمس في مسيرتهم الدراسية ، حقائق معارف الشرق عَمداً ، تُطمس من فريقين من المعامين الكاتبين فقط :

١ – من المشبوهين المتاجرين بالمعرفة .
٢ – ومن المكبَّلين المقلدين في المعرفة .

اولئك المعلمون الكاتبون يُدرِّسون ثقافة الشرق ممزوجة بوَباء ما أُشربوه في غضون دراستهم من شبهات مصنوعة ، من أجل الدسّ والتمزيق ..

ومن أجل طمس معالمها النيّرة الخيّرة ..

وهم يُدرّسونها لجميع الشبان . من غربيين وشرقيين على سواء ...

١ – يُدرسونها للغربيين لكي لا يفطنوا إلى وقائع المعارف اليقينية الشرقية ، وما تحمل من هداية إنسانية عالية ، في خاتم الكتب السماوية « القرآن المجيد » وما حقق للإنسانية من حضارة لا وباء فيها ، ولا أحقاد ، ولا مؤامرات ، ولا دسّ وافتراء وتشويه .

٢ – ويدرسونها للشرقيين حتى تُطمسَ في أنفسهم معارفها ، وتشتبه معالمها . بخرافات الوثنية ، وأساطير الإشراك ، وتظلم سُبلها النيّرة وتكفهر ...

هذه جنايتهم على حقائق العلم اليقينية . وفي زعمهم أن ذلك مصلحة ، ولكن أيُّ مصلحة لهم لأي أمة من البشر ، في تشويه حقائق العلم اليقينية ، واذاعة بلبلة الجهل بين أبناء الإنسانية ، وفي تنمية الأحقاد ، ودس الفتن والمخاوف بينهم ، التي تفقد الثقة بين أفرادها وجماعاتها ، وتحول دون صدق المودة ، وحُسن النيّة ، في معاملاتهم ومعاهداتهم ، وتجعل كل ذلك مدخولاً موبوءاً مرتبطاً بالمصلحة الخاسرة وجوداً وعدماً .

هذا صنع العلماء المتاجرين المشبوهين في الشرق والغرب معاً . ولكنّ هناك علماءَ متعمقين أمناء ، يكشفون حقائق العلم للعلم . في كل شيء ايماناً وتضحية وجهاداً ، دون تطلع الى المكافأة من أحد . ودون تأثر بالتعيش ، والرغبة في رغده على علمهم .

وإني أعلن أني ما لجأتُ الى بينات الثقافة الحديثة ، في دعم ما أقدم من علم يتصل بمعجزات القرآن المجيد ، إلاّ رعاية لمن ذكرت من الشبان الذين تثقفوا بالثقافة الغربية ، أو ما يزالون يتثقفون . وهم بعدُ براعم لم يتفتحوا بالعلم ، ولم يبلغوا الدرجة التي تجعلهم قادرين على تمييز الغثّ من السمين ، والحق من الباطل ، والعلم من الجهل ، واليقين من الظن ، في كل ما يُطرح بين أيديهم من معارف ، أجل هم ...

أولاً : لا يميزون بين نشاط الثقافة الغربية ، واكتشافاتها وتحقيقاتها واستقامتها ، وبين اعوجاجها في مفاتن لذاتها ومغرياتها الآثمة ، المعطلة مواهب المعرفة والتعمق في درس مكتشفاتها وابتكاراتها ، التي جدّ وحققها علماؤها العباقرة المكتشفون .

ثانياً : لا يميزون بين النفوس الواعية ، ذات المواهب العبقرية ، والإرادات العتيدة ، التي رفعت منائر العلم ، وشيدت صروح الحضارة في كل أمة ... وبين النفوس الغافلة المنحلة ، التي يأخذها زيف الثقافة الطافية على سطوح الحضارة : سواء رحلوا اليها ، أو رحلتْ اليهم .

ثالثاً : لا يميزون بين العلماء ، الذين فكّروا ودرسوا وشيدوا واستطاعوا أن يغزوا الفضاء ، بصواريخهم وعرباتهم ، ويستخرجوا ما تحت الثرى من كنوز . وبين المهرجين السادرين في مقاصف زيف الحضارة ، ومسارحها وحاناتها وسهراتها وأصحابها وصواحبها !!

هذه النواحي الثلاث ، هي التي دفعتني الى عرض معجزات سورة ياسين ، الى الشبان الشرقيين والغربيين بهذا الأسلوب العلمي السلس المقتبس من أضواء وحي الله جل وعزّ .

أعرضها وأنا ملتزم دلائل الكلمات اللغوية ، وصياغتها ومعطياتها الفذة البكر ، التي لا تبلى جدتها ، ولا تنتهي عجائبها على مرور الأزمان .

وإني — في الوقت نفسه — لا أنسبُ لنفسي العصمة ، من الزلل

والخطأ ، فمن رأى الحق والعلم في غير مـــا ذكرت ، فأنا معه . لأن الحق والعلم هما رائدي ، وما أنا إلا طالب علم ، ولست فيلسوفاً . وطالب العلم يحس دائماً بالحاجة الى يقين العــلم في كل شيء . ويمقت الظنون والأوهام ...

وطلاب الثقافة الغربية الشّداة ، تغشاهم الظنون . والفروض من كل مكان ... فيحسبونها علماً ، وما هي بعلم ، كما أن رواد الصحراء الظِماء، يغشاهم السراب من هنا وهنا فيحسبونه ماءً وما هو بماء ..

أما ترى الشباب حيارى ، لكثرة ما يُعرض عليهم من المبادىء والنحل الظنية والمخترعة ، المتألقة بمشتهيات الأنفس ، وضرورات البيئة ، ومواقد النزوات من قريب !!

ولو عرفوا ما يحمله لهم يقين العلم ويقين الوحي ، من أمجاد الحيـاة وسعادة الأنفس ، ورغَد العيش ، لمـا ارتابوا ولا انحرفـوا ولا فجروا ولا ألحدوا ... ويكفي لكي يتبينوا واقـع الوحي اليقيني ، ولكي يؤمنوا به ، أن يدرسوا :

أولاً : ما اكتشفه علماءُ الحضارة من علوم ، وبالحري علم الفلك ...

ثانياً : ما تناقلته الأمم من شرائع ، وما توارثوه مـن عقائد وأسفار دينية .

ثالثاً : أن يدرسوا ويتأملوا ويقارنوا ويتعمقوا بحرية وانصاف وإخلاص، في معجزات خاتم كتب السماء « القرآن المجيد » ...

هذه الدراسة تمنح الإيمان العلمي الصحيح بكل تأكيد ، وطمأنينة القلب.

ومهما يكن فالشبان الذين يحترمون حرية الفكر ، وقيمة العلم اليقيني ، حتى لو استطاع الملحدون الآثمون ، أن يزينوا الإلحاد ، ويزعمونه لهم أنـه مُشيّد على براهين العلم اليقيني ، واستطاعوا أن يشوهوا لهم الإيمان

بالخالق العظيم ، ويزعمونه لهم أنه ظني خيالي لا برهان له من واقع العلم اليقيني ...

فهم إذا عمّقوا علومـاً . وأنعموا أنظاراً . وتوقدوا عقولاً ، في دلائل الإيمان والإلحاد معاً بدقة وحرية . ومقارنة ونزاهة . فإنهم بلا ريب ينتهون الى اعتناق الإيمان ومحاربة الإلحاد .

ذلك لأنهم يلمسون العلم الأزلي الشامل ، الذي تزخر به الأكوان . منسوباً إلى غير عالم ، ويشاهدون التدبير الذي تقوم عليـه العوالم منسوباً إلى غير مدبر .

هذا ما يقوله الملحدون لهـم . ولكنهم يحتارون فيما يقولونه لهم ، ويضيقون به ذرعاً . فيرتابون ويضطربون ولا يصدقون .. ويؤمنون أن وجود مكوّن للأكوان ، الخالق العظيم ، حق وصدق ...

ولكنهم أيضاً يرتابون ولا يصدقون ، أنه شمس ، أو نار ، أو ملاك ، أو شيطان ، أو روح ، أو طاقـة . أو شيئاً مما هو مؤله ومعبود ، ومنسوب اليه خلق العوالم . وقائم في هذا الوجود المحدث .

وهكذا ينفضون أيديهم من كلا الأمرين معـاً . أي من نسبتها إلى مـا ألّهوا وعبدوا من آلهة متخذة من أفراد الكائنات ، ومن نسبتها إلى لا شيء .

فهذه الحيرة الحائرة ، التي تسيطر على عقول شباب العالم ، هي التي حدت بي إلى عرض البراهين العلمية اليقينية ، التي يؤمن بها ، ويطمئن لها كـل المثقفين ثقافة غربيـة حديثة ، بالعلم والبرهان ، لا بالظن والبهتان ...!!

ومع كل ذلك ، فأجدني أسطرهـا ، وأنا ضائق بها صدراً . لأن ايماني — والحمد لله — منبثق من حقيقة عين الوجود ، وقائم في قسطاس

موازين العلم ، وعميق في قلب الحضارة الصافية .

بل هو فطرة الله في أنفسنا ، وفي قلوبنا وعقولنا ، وفي ثقافتنا وبيئتنا. وفي كل شيء .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لَخَلْقِ اللهِ . ذٰلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ (٣٠ ـ ٣٠)

ولا ريب أن تكوين كل كائنٍ ، وما يشتمل عليه من دقة ونظام، هو تسبيح وتقديس وتنزيه لله رب العالمين خالقه ومكونه جل جلاله . يفقه ذلك من يفقه أسرار الله في خلقه ، بنظر العلم الخالص والايمان الصادق بالوحي الحق الطهور .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَليماً غَفوراً (١٧ ـ ٤٤)

القرآن معجزة كونية أبدية

الحق أن كلّ ما في يقين الكون ، وكل ما في يقين الوحي الآلهي معجز وعجيب ومدهش ، يتبين هذا المثقف الواعي الحذر ...

إذا استطاع أن يدرس معارف الوجود ، ومعارف العقائد المتوارثة من يقينية علمية ، ومن ظنية وهمية ، ومن مغالطات بين هذه وتلك ! أي إذا استطاع ان يدرسها بأمانة ونزاهة ولهفة ونقد علمي صحيح ..

والدراسة إذا خلت من النقد العلمي الصحيح ، ومن الأمانة والنزاهة ، وخلت من اللهفة ، إلى كشف واقع المعرفة اليقينية في الأشياء ... كانت كعواصف الرمال الهائجة المتلاطمة في متاهات الصحاري المحرقة ، في ظلمات لياليها المرعبة ، تضل ولا تهدي ، وتضر ولا تنفع ، وتدمّر ولا تعمر ، وتفرق ولا تجمع ، وهي أبعد ما تكون عن يقين المعرفة... وتكون دراسة مطموسة خائبة ، ولا يمارسها إلا المنتهزون الهدامون باسم البناء ، ولا يفاخر بها إلا أشطار المثقفين المغرورين باسم العلم ...

هؤلاء وأولئك هم الذين يقولون ، إذا عُرضت عليهم معارف الوجود ، ومعارف معجزات الرسل ... تلك سنن كونية ثابتة ، وهذه خوارق مروية غير ثابتة ... يقولونه عامدين إعلاناً وجهاراً .

فاذا شاهدوا الأجرام السماوية السابحة في الفضاء ، تجري بنظام دائم، لا تخلخل فيه ولا تخلف .

قالوا : هذا مشهد سنن الكون الثابتة ، وإذا ذكر لهم علماء الوحي ... ان سيدنا ابراهيم عليه السلام ألقي في النار ، فكانت برداً وسلاماً عليه .

قالوا : تلك معجزة حقاً ، ولكنها لم تدم . ولو دامت لكانت خاضعة للبحث العلمي الكوني ، شأن معجزات السنن الكونية ...

ومن أجل ذلك لم يصدق بها إلا المؤمنون بها تقليداً !!!

وفاتهم أن معجزات الرسل اليقينية، أي الثابتة بالتواتر الجماعي القطعي ، التي أجراها الله تصديقاً لهم وتأييداً .. هي مشتملة على براهين منطقية كاشفة جلال مجريها وفارضها – الله – جل جلاله ... وهي في الوقت نفسه ، أكبر وأروع وأدهش من كل معجزات السنن الكونية ، على الرغم من عظمة مبدعاتها التي تبهت شوامخ العلماء كل البهت ، لدى اكتشافاتهم منها كل يوم ما هو طريف وفريد ...

ولا يحقق فهم معجزات الرسل اليقينية إلا الاقبال على درسها في معارف القرآن المجيد ، بطول أناة ، وإنعام نظر ، وصفاء سريرة ، وانفلات من أرسان التقاليد ... ولو فعلوا ذلك لعلموا أنها أكبر واوسع واهدى من براهين معجزات الكون . ولهتوا بكل ما تملك قلوبهم وعقولهم وعلومهم وحرياتهم .

سبحانك – ربنا – آمنا أن كلاً من معجزات الرسل ومعجزات التكوين ، هما من اتقان صنعك وابداعك ، وكبير قدرتك وواسع علمك ! فأنت وحدك الذي لك الخلق ولك الأمر .

فكر – يا قارئي العزيز –

لو أن الله ربط شتى الأجرام المترامية ، في ابعاد الفضاء ، التي منها

كرتنا الأرضية بسلاسل من البلاتين ، وعمد مـــن الفولاذ ، عوضاً عن الجاذبية التي هي طاقة لا تبصر ، ولا يعلم كنهها ...!!! لقال الملاحدة : ان ذلك سُنّة الكون ..!!

وهب أن الله ، فصل كرتنا الأرضية ، عـــن إمساكها ، بالسلاسل والعمد ، وأمسكها بطاقة الجاذبية – التي هي سُنة كونية حالية – أمسكها بعض الوقت ، وجعل ذلك آية معجزة على صدق رسول مـــن رسله ، أما يقول الملاحدة أيضاً ..!!.

تلك خارقة سحرية ، ولا حقيقة لهـــا ، في عين الواقع القطعي ... وتصعقهم كلمة العلماء المؤمنين .!!

تلك معجزة وحقيقة مشاهدة ...

لأن مفهوم المعجزة عندهم : هي الحدث الخارق لمـــا هو معتاد ، يجريه الله بعض الوقت متحدياً... لإثبات صدق دعوى الرسالة السماوية...

والملحدون سواء ركبهم غرور السلطان واستكباره ، أو غرور العلم ورعونتهُ ... يكابرون في صدق معجزات الرسل ، وينسبونها إلى السحر والتخيل ... هذا إن شاهدوهـا . وإن رويت لهم ينسبونها الى الوضع . أو الى أحلام اليقظة أو الى المغالاة في الدين !!!

هذا موقفهم من معجزات الرسل ، ولا غرابة ..!! وهم يجحدون عين وجود الله الخالق العظيم ، على الرغم من كبريات براهين وجوده . الماثلة في سنن الأكوان ، وفي وظائفهـــا ومقادير أحجامها ، ومسافات أفلاكها ، وفي أبعاد الفضاء المقدرة بما دون الثانية ، وبما دون الثانية آلاف المرات ...

يجحدونه ، وينسبون الأكوان الى الطبيعة ، ويقصدون أن تكوينهـــا كان ذاتياً ، أو ينسبونها الى الصدفة ، ويريدون أن تكوينها لم يكن إلا

رمية بغير رام ، ولم يكن بصنع صانع ، وعلم عالم ، وإرادة مريـد . يا عجباً كل العجب !!! الوجود كله صدفة !!! تالله لو كـان هؤلاء الملاحدة من العلماء المتعمقين ، لما أصروا عـلى نسبة تكوين الكائنات إلى الطبيعة أو الى الصدفة ...

لأنهم كانوا يخجلون من نسبتها الى لا شيء ، وهم في كل ساعـة يكتشفون من معارفها ما يكتشفون ، ولكنه الجنون ، والجنون فنون .

فهل ترى عجباً بعـد ذلك ، إذا شاهدت هؤلاء الملاحدة ، أشطار المثقفين ، يجحدون معجزات الرسل ، ويقولون عنها ما هي إلا تشخيصُ ولَهٍ ديني ومشاهد أحلام وصرع ، وليس لها أية صلة بالعلم القطعي ..

ومهما يكن من إلحاد الملحدين ، وايمان المؤمنين ، فإن رواسخ العلماء المتعمقين ، في حقائق العلم اليقيني . وفي حقائق الوحي اليقيني ، يعلمون أن السماوات ، عوالم مترامية في شتى أبعـاد الفضاء ، ومنها أرضنا ..!!

قد انفتق بعضها عن بعض ، بعد أن كن كتلة واحدة ، ثم وجّه الله كل كائن إلى مكانه المعين له في أبعاد الفضاء ، بكل دقة وإحكام ونظام ...

ويعلمون أن معجزة الوحي الآلهي ، في إعلان أن المـاء أصل الحياة ، هو منارة كاشفة ، وناهيك بما كشفته من سمو حضاري في عالم المعرفة .!!

وأخيراً تحققت فعلاً معجزة الماء في عالم الحضارة ، وقد فصلوهـا تفصيلات علمية مشاهدة ، في كتاب مستقل رائع ، هو كتاب « المـاء معجزة الطبيعة لمؤلفه طومسون كينج » .

واتل كل ذلك باخلاص ، وتأمل في الآية الآتية ، ولا تـدع استظهارها :

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٢١ ــ ٣٠)

وإن درج أولو المعرفة ، من الدارسين ، على تسمية النظم التي تخضع لسلطانها الأكوان وتستمر مهيمنة عليها ــ سنناً كونية ، فلن تخرج عن أنها آياتٌ شاهداتٌ وبيناتٌ علميةٌ ناطقات بسر وجود الله الخالق العظيم ، مخططها وفارضها والمهيمن عليها ومسيرها ..

ومع ذلك ما اعتبروا معجزات الرسل سنناً كونية ، ولا أشباهها ، لأنها في زعمهم لم تدم ، لتدل على صدق الرسالة ، التي أجراها الله لتأييدها ، وإنما وصلت اليهم أخبارها من طريق الرواية ، هب أن معجزات الرسل ــ لم تكن كمعجزات السنن الكونية ، دائمة الدلالة ، على صدقهم ، بصورة مشاهدة محسوسة ، على مدى الأجيال .

الا أنها تعدل معجزات السنن الكونية ، من كل وجه . لأن ذكرها منوه به في اعجاز القرآن المجيد ، وإعجاز القرآن المجيد هو أبقى من دنيانا وأخلد . لأن دنيانا تنتهي ، ولكن إعجاز القرآن لا ينتهي ولن ينتهي . لأن مجال نصوصه ممتد ، حتى إلى عوالم الآخرة ، إذن فعدم بقاء معجزات الرسل عليهم السلام ، هو الباعث على جحود الملاحدة لها ، وبالحري ، بعد أن اضاف الوضاعون عليها ، ما أضافوا ، من أساطير وخرافات ، تضحك حتى العامة ، فما بالك بسواهم من المثقفين الواعين ..!!

والوضاعون المفترون إما مؤمنون وإما ملاحدة ، فإن كانوا من المؤمنين ، فإنهم يضرون أضراراً بالغة ، في زعزعة مفكري المثقفين عن الايمان بوحي الله ، من حيث يظنون أنهم يثبتونهم عليه ، ويعدون غير المؤمنين للدخول فيه . ولو كانت كثيرة الخوارق والمبالغة في وضعها تدخل

في الدين ، لأصبح البشر كافة براهمة . لأنهم يملكون من أساطير خوارق الخارق ، التي تربو على اعداد رمال الصحاري .

وإن كانوا من الملاحدة ، فانهم يضعون سخافات الخوارق الشاطحة، المهووسة ، ليصدوا العلماء المفكرين عن الإيمان بوحي الله اليقيني،وبالحري من لم تسمح لهم أوقاتهم بالبحث العلمي المتعمق ، ليفرزوا العلم من الجهل ، والدين من الأسطورة ، والموضوع من غير الموضوع ... وهؤلاء الملاحدة ، لا يزعهم وازع ، من الوضع والدس والزياده والنقصان في وحي الله اليقيني ، ومـا داموا لا يؤمنون بالله الخالق العظيم ، ولا يملكون الأمانة العلمية الرادعة عن ارتكاب جريمة الوضع ...

والعلماء الأمناء المتعمقون . يقتصرون على ما ذكره الله من المعجزات في وحيه اليقيني ، ولا يحيدون بدلائل ألفاظها عن مواردها اللغوية الأصيلة . ليخرجوها عن امكان الوقوع على ما هي عليه . رغبة في هدم الايمان بقدرة الله جل وعز على صنعها . وهم يقصدون من وراء ذلك أن يبسطوا سلطان الالحاد عـلى اشطار المثقفين ، وضعفاء الفكر الذين تخفى عليهم مكائد الملاحدة المتسترة .

وبحثنا هنا حول معجزات الرسل .وكرامات المؤمنين المتبتلين المخلصين . المذكورة في وحي الله اليقيني « القرآن المجيد » كحديث الملائكة،لوالدتي موسى وعيسى عليهما السلام . وصاحب سليمان ، وحادثة أهل الكهف .

أما اعجاز القرآن المجيد نفسه . فهو فوق معجزات سنن الكائنات ، قوة وثبوتاً وديمومة الى يوم الساعة وما بعدها ...

لأنه حقيقة كلام الله النفسي الأزلي اليقيني المتحدي الصارخ ، بخلاف معجزات الأكوان ، فانها حادثة صامتة .

والذي يدلنا على سرمدية اعجاز القرآن ، وأنـه فوق السنن الكونية

بقاءً واستمراراً ، هو انزاله للبشر ، كافة ، وجعل معجزتـه أكبر من كل معجزات الرسل ، واخلدها على الاطلاق ، وجعلها أبدية ، ومثلاً أعلى ، وهي لن تستوعب من النظرة الأولى ، وإن كانت تعمق الإيمان، وتستهوي الأفئدة ، وتروع العقول ، وتنمي العلم في شتّى نواحيه .

بل لا بدّ من إدمان النظر فيه ، وترديد تلاوتـه باستمرار ، ووزنه بموازين العلم اليقيني ، ولا بد للدارسين من تطهرهم من دنس أنانيتهم ، وبغيها في الأحكام ، ولا بدّ مـــن انعزالهم ، عن الاغترار بشخصياتهم القومية ، وأثرتها وانضمامهم إلى الروح الانساني العالي وكريم إيثـاره .. حتّى تظهر معـــالم وحي الله ومعجزاتـه ، في علوم العلماء ، وفي شرائع المتشرعين ، وفي آداب الأدباء ...

وتظهر في اشراقاتها السماوية المقدسة ، وفي سبحاتها الروحية الطاهرة، وفي روائعها البيانية الجذابة ، وفي أمجادهـا السامية الخالدة ... ولا عبرة بالدارسين المقلدين المتزمتين .

لأن تقاليدهم وتزمتهـــا ، يجعل دراستهم متلونـة بألوان تقاليدهم . ومغلولة بأغلال تزمتهـا ، وجاهلة أو متجاهلـــة حسب ميول مجموعاتهم النفسية المنحرفة ، وهذا شأن كل دراسة غير مبنيـة على البراهين العلمية اليقينية ، يا حسرتي انها قاتلة قاتلة ، انها أوبئة الأوبئة .

ويجب على العلماء ، بناة الحضارة ، في كل أمة ، أن يستأصلوهـــا مـــن جذورها . وكم هم المنافقون ، الذين يُظهرون للجماعة المؤمنة ، المستقيمة الصادقة ، أنهم مؤمنون مستقيمون صادقون ، وفي خفايا أنفسهم وأعمالهم انهم كافرون ، وأنهم منحرفون ، وأنهم كاذبون .

وليست الحقيقة النفسية ، هي التي تظهر في أعمال أكثر البشر . فهذا فرعون وقومه لما شاهدوا آيات الله البينات ، التي أيّد الله بهـــا رسوله

موسى عليه السلام مبصرة بالبراهين اليقينية المشاهدة ، نسبوها الى السحر، والتنحيل ، وفي أعماق أنفسهم أنها يقين الحق :

وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (٢٧ ـــ ١٤)

وهذا صنع المستكبرين الظالمين المتهزين ـ منذ أبعد الأزمان ـ والى اليوم يجعلون العلم جهلاً ، والحق باطلاً ، والصدق كذباً ، حسب نزوعهم إلى نزواتهم وانقيادهم لأهوائهم ، وكم هـــم الذين قرأوا القرآن مراراً وتكراراً ، ودرسوه في أروقه العلم ، وفي محاريب السماء ، وتنسموا نفحات أقداسه ، واستجلوا سبحات ملائكته ، وأحسوا أضواءهـا تشع في أعماق أنفسهم . وتخفق لها قلوبهم ...

ومع ذلك يُصرون على إعلان جحودهم ، بها ظلماً وعدواناً ، وينسبونها الى السحر ، او التلقي عن بعض الأعجميين أو الكهنة .

وأرى أنه آن أوان العصر الذي سيكتشف علماؤه الراسخون النزهاء ، وكتّابه الإنسانيون الأمناء ... أن القرآن كلام رب العالمين .

وأنه معجزة الأبد المتحدية ، وانه لا يدرك إلا بالعلم ، ولا ينجلي إلا بالتفكير ، ولا يلمس إلا بالدرس والبحث وإدمان نظر .

وأن معجزته ، فوق المعجزات الكونية تحدياً وخلوداً وظهوراً ، الى نهاية النهايات . أجل آن أوان أن يفقه العالم ، أن القرآن الكريم ، معجزة خاتم الرسل محمد ﷺ ، ويؤمنوا بها ، ويضحوا من أجلها ما يضحون ، ويتوادوا ويتفاهموا ، وينصف بعضهم بعضاً ، بالحق والعـــدل ، والسير على أضوائها وسمو مناهجها ، وعدل أحكامها ، والويل كل الويل للجيل الذي يلي جيلنا ، الذي نحن فيه ، فهو مقبل حتماً ، على أحد حدثين مصيريين ...

١ ـ إما حدث ايمانـــه بوحي الله اليقيني ، المنزل في خاتم الكتب السماوية ـ القرآن المجيد ـ المؤيد بالبراهين العلمية اليقينية . والجامع لكل مثل الإنسانية العليا ، والناهض بالحضارة ، الى المودة الإنسانية الصافية، والمعارف التقدمية النافعة ، والتعايش السلمي ، المبني على أساس العدل المطلق ، وطرح زيوف الحضارة وأطماعها ، ومؤامراتهـــا وأحقادها ، وغرورها بكشوفاتها التقنية العلمية .

٢ ـ وإما حدث ـ اللامبالاة ـ بقيم الإنسانية الروحية كافة ، والتنكر لها ، ولحريتها ، واستباحة محارمها كافة ، واللامبالاة بتفاقم السلبيات ، من إلحاد ومجون وجحود لحقائق العالم الثاني . وزعم ان كل ذلك مظهر للوعي العلمي الكبير ، وكذلك عــدم الاكتراث بطغيان النمو السكني ، غير المحدود . وانفاق الموارد في ابتكار المهالك ، لا في ابتكار المزارع، والعالم مقبل على مجاعة مدمّرة ..

ولِمَ لا يُضحي الجيل القادم بنفسه ، على مذبح الالحـاد ، والتمرد على الأديان ؟!! وقد ثقفه الملحدون ، أن ذلك انتصار للعلم، والحضارة والتجدد والتقدم والذكاء والحرية والسيادة والسعادة ..!!

ولو علم الجيل الجديد ، أن الملحدين ، الذين ثقفوه ، قد انتحلوا مُثُل وحي الله العليا المنزلة في خاتم الوحي الآلهي « القرآن المجيد » . انتحلوهـــا ونسبوها إلى إلحادهم ظُلماً وعدواناً ، لبطل إيمانهم بهم ، ولمسوا بكل حواسهم ، ان سعادة الانسانية الدائمـــة هي مـن وحي الله لا من الحادهم ..

وكم هم العلماء الذين يطوفون أقطار السموات والأرض ، ويرصدون عوالم الفضاء السحيقة ، الظاهرة والخفية ، باحثين عن مفتاح باب السماء، للتعرف إلى الايمان اليقيني ، باحثين عنه بمراقبهم ، بمحطاتهم الفضائية . ومـــن أجل ذلك تراهم يتعمقون الجهـات الست ، وينزلون عـــلى كل

كوكب ، بحثاً عن المفتاح ، ولكن يعودون خائبين يائسين من وجود المفتاح ، والمفتاح أقرب اليهم من أنوفهم ، لو كانوا يعلمون ...

أجل المفتاح بين دفتي المصحف ، هو علم الله المفصل فيه .. هو هدايته العالمية الخالدة ، هو كلامه المعجز الحق ، هذا هو مفتاح السماء ، وهذا هو السلام العالمي ، والصعود إلى المعارف اليقينية ، والسعادة الأبدية ، هذا هو مفتاح الايمان العلمي اليقيني الصحيح ...

والعلماء المتبتلون لكشف واقع المعرفة في الأشياء يكتشفون من يوم إلى يوم ، مناهل ذاخرة من معارفه اليقينية . ومناهل معارفه اليقينية ، لا تنتهي ، لأنها مكنوزة فيه لأزمانها .

وحسب أنه معجزة المعجزات الإلهَية . وأن تطوراته أبدية السبق والجدة . وأنه المحطم لأغلال التقاليد ، وأنه القاضي على طغيان الغرائز ، وأنه الحاسم للنزوات والمطامع لمن التزم العمل به ...

وكل هذا جعلني أوثر أن يكون عنوان هذه الكلمة ... القرآن معجزة كونية أبدية .

وانك تجد في كتابة المعطلين الملاحدة ، أن القرآن كلام النبي ﷺ استاهمه في تأملاته في الأكوان ، وسبحاته الإيمانية في جلال تكوينها ...

يا ويلهم لو كان في قدرة مشركي العرب ، وعباقرة أدبائهم ، أن يأتوا بمثل هذا القرآن لفعلوا ، ولم ينصرفوا إلى منازلته ، في طلب تحديه الصارخ لهم ، بأسلوب العاجزين .. أي بالمؤامرات والدس والبطش والفتك والمعارك الضارية . وسفه القول بالشعر ، والخطب ، والدعايات المغرضة ، ويقصدون بكل ذلك ، تشويه قدس الرسالة الإسلامية ، لدى القبائل ، وزلزلة مكانة القرآن ، وإحباط سموه واعجازه . ولكنهم عجزوا وباءوا بالخسران ، وتساقطوا دون ذلك صرعى . والحقيقة دائماً

تثبت نفسها بنفسها ، وأضواؤها دائمة الإشعاع والتفجر ..!!

والحقيقة هنا هي تحدي إعجاز القرآن . والقرآن وإعجازه وتحديه يظل صيّبَ إمداد فكر المفكرين .

وعلم العلماء ، وتشريع المشرعين ، وأدب الأدباء ... ما ظل في الأرض مفكرون أدباء وعلماء ، مشرعون راسخون عباقرة ، ذوو نية حسنة ، متبتلون أفذاذ :

الجهل بيقين العلم والدين
والأحكام المتناقضة حولها

هناك ظنونٌ وأوهامٌ وأحلامٌ ورؤى ، وأساطير وترهــات كثيرة ، منسوبة إلى وحي الله السماوي اليقيني ، أصبحت ملة متبعة ، وإن كانت محضَ افتراءٍ ودسٍ واستغلال ...

ومع ذلك ، لها عقائدها ، والمؤمنون بها ، ولهـا دعاتها المضحون ، ولها نساكها المتبتلون ، ولهـا المستغلون المتاجرون ، وهم على علمٍ أنهـا باطلٌ في باطلٍ ، شأن المنافقين في كل ملة ونحلة ...

وهنـاك فروض ونظريات وفلسفات ومسائل كانت تحسب مـن العلم اليقيني من أزمـان بعيدة ، ولكن ظهر انهـا ليست مـن العلم اليقيني في شيء ...

قد أكل الدهر عليهـا وشرب . ودفنت في عاديات المتاحف ، وفي حنادس الزوايا المهجورة في المكتبات العامة ...

ولا ريب أن الجهل بفوارق الأديان ، وبفوارق العلم، يجعل الكاتب ، يسلك العلوم الواقعية اليقينية ، والعادية الظنية المتوارثة في سلسلة واحدة .

وقل مثل ذلك يكون صنيعه بمميزات وحي الله اليقيني ، الذي هو الدين السماوي الصحيح ، ومميزات نحل الوثنية والشرك ، فحتماً يفضي به هذا الصنيع ، أن يجعلها متساويين في نظره القصير . وأحكامه عليهما . بالصدق أو بالكذب ، وبالحق أو بالباطل ، بصحة نسبتها إلى الله الخالق العظيم ، أو فساد نسبتها ...

ولعل البشرية تشتمل على اناس ، يفضلون الشرك ، على وحي الله اليقيني ، إما بتأثير التربية والتثقيف والتلقين ، إن كانوا من المقلدين ، وإما بتأثير المصالح الذاتية ، إن كانوا من فاقدي الضمير المسؤول . ذوي المعرفة المشبوهة ، وإما بتأثير الأرواح الخبيثة ، أرواح الشياطين ، إن كانوا من الهبولين[1] إذا رأيت المتحدث عن العلوم أو الاديان، يهرف بما لا يعرف ، ويخلط العلم بالجهل ، والحق بالباطل ، والصدق بالكذب ، ولا يميز بين خصائص علم وعلم ومسائله ، ولا بين دين ودين ومذاهبه ، بل يعمم في أحكامه بكل بساطة ، ويسلك الجميع في سلسلة واحدة ، فاعلم أنه جاهل ، لا يفهم شيئاً ، أو مأجور خبيث ، ينطوي على حقد عنصري ليقين العلم ، وسمو الانسانية ولا يصدق إيمانه بالله جل جلاله ..

وإن تظاهر بحب يقين الانسانية والخير ، وصدق الايمان بالله جل جلاله .. ألا إن آية العالم الحق القادر الحر ، هو أن يفرق بين مميزات العلم والعلم ، وبين خصائص الدين والدين ، ويقارن ويبحث ويستنتج ، ولا يكون كحاطب الليل ، يرسل أحكامه على عواهنها إرسالاً ...

وإن آيته أيضاً ، هو الذي يميز بين مسائل العلم الواحد ، وبين مذاهب الدين الواحد ، من أجل كشف الواقع اليقيني الحق في كل

---

[1] المقصود المعنى الشائع : أي المهووسين بسبب تولعهم بالترهات الملصقة بالدين .

منها ... ومن أجل أن يظهر كل شيءٍ في لباسه الأساسي دون دخلٍ ، ودون مدح أو قدحٍ ، ودون زيادةٍ أو نقصانٍ ، ودون حبٍ أو بغض ...

وحينئذ يكون ما يقدمه الباحث للأجيال أو للمجامع العلمية ، أو للأنديـة الثقافية . أو لأساتذة الجامعات !! محل الاكبار والإجلال . ومحل التقدير والاعجاب . ومحل التنافس والمودات ..

وبذلك يثب إلى قمة الخلود العليا أو يتصدر سدة الجلال المثلى .

مأتى الأحكام العامة الجاهلة

مأتى الأحكام العامة الجاهلة ، هو عدم العلم بما يندرج تحت الحكم، وبما لا يندرج .

أما قيل : كلٌ الأديان تدعو إلى الإتكالية والخمول ، والسبب أن ميراث دين المتكلم مجموعة من التقاليد وهي تُقرر في أصول نصوصها الإتكالية . فظنَّ ، أن كل دين مثل دينه ، أفيوناً مُخدراً حائلاً دونَ ممارسة الأعمال الحرة الماجدة ...

ومثلُ هذا الحكم العام محالٌ أن يصدرَ عن عالمٍ يفهمُ مسئوليةَ ما يصدره من أحكام تجاه الأجيال الحديثة المناضلة . لإزاحة أستار الجهل عن حقائق العلم .

لأنه جهلٌ محضٌ ولن يعلنه إلا جاهلٌ ساذج عديم الإطلاع . وجهلهُ وعدمُ إطلاعه ، يُسقطُ عنه المسئولية العلمية . وعقوباتها الصارمة . ولو كان لمُصدره أدنى اطلاع على وحي الله المعجز المتحدي (القرآن المجيد) لما أعلن في محاضرته مثل هذا الحكم العام الأرعن الجاهل الذي يجني على واقع العلم اليقيني الجناية المميتة .

واني هنا ، أريدُ أن أعرض نصيّن من آلاف النصوص ، التي

تحدَّث عنها أشطار المثقفين الرعن . الذين لا يخجلون من أن يقدموا الجهل باسم العلم ، والباطل باسم الحق ، والكذب باسم الصدق . وأن يدسوا مدلولات سخيفة في صميم آيات الله، ومقصودهم منها أن يشوشوا مدلولاتها العلمية اليقينية ظلماً وعدواناً ، وخبثاً ولؤماً . ولولا تتابع دفق نور القمر على معارفنا . لخفي دسهم على المطالعين .

النص الأول

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ الَّتي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِزْقِ قُلْ هيَ لِلَّذينَ آمَنُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلقِيامَةِ كَذٰلكَ نُفصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٧ ــ ٣٢)

ولعنة الله والعلم على الجاهلين ، أو المتجاهلين ، الذين شوهوا هذا النص المُعجز الصريح المدلول .

يا ليت شعري ، هل يرضى الله أن يكتفي المؤمنون ، بأن تكون طيبات الرزق ، ورغد العيش ، وزينة الحياة الخالدة : من رفاهية أمتعةٍ ، وفتنةِ رياش ، وفخامة قصور ، وبهجة حدائق ، وحفاوة حشمٍ ، خالصة لهم يوم القيامة .

ولهم في هذه الحياة الدنيا الشقاوة والحرمان ، والقاة والذلة ، والداء والجهل ، والسحق والمحق ، وسوء الطالع ، وبلايا الفواجع ...

لا لا ، إن اكتفاء المؤمنين بخلوص سعادة الآخرة لهم ، مجافٍ لمدلول الآية ، الطالب منهم أن يناضلوا ويجهدوا ويسهروا ويعملوا ليكون لهم طيبُ العيش خالصاً في الحياة الدنيا أيضاً ..

أجل إن الآيـة تؤكد ذلك . حيث ينبغي للمؤمنين أن يعملوا ليكون طيب العيش خالصاً لهم . وإن كـان الواقع . أن سعادة الحياة الدنيـا ونضرتها وبهجتها للذين يعملون لنيلهـا بعلم وذكاء . ووعي ونشاط . ونصب وتضحية .. سواءٌ أكانوا من المؤمنين . أو كانوا من الكافرين . ومن أجل ذلك جاء لفظ خالصاً ليوم القيامة .

وهذا عين يقين الواقع المشاهد . أما قال الله جل وعز في محكم وحيه في نص آخر :

وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ الاَّ مَـا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلأَوْفَى . (٥٣ ــ ٣٩ و ٤٠ و ٤١)

انتبه ... قال للإنسان ، ولم يقل للمؤمن . وقال في نص ثالث :

فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (٦٧ ــ ١٥)

والمشي للرزق يقوم له جميع الناس . ولكن أعامهم به ، وأذكاهم . وأوسعهم حيلةً ونشاطاً وأمانة وأجلدهم ، أحرزهم له وأسعدهم بـه . وكم من لعنة واجرام ممزق طاغ في بلبلة الملاحدة لمدلول هـذه الآيات البينات ، وزعمهم أنها تدل على الإتكالية والخمول ، والرضا من العيش بالدون ..

وهم لذلك يدسون من خبث أنفسهم مدلولات تؤيدها ما أنزل الله بها من سلطان . وأحسبهم يجهلون ، أن داعي الإسلام الأول ، خاتم رسل الله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كان في شبابه تاجراً ، وكذلك جلُّ صحبه الأبطال .

ويا ليتهم تلوا قول الله عز وجل :

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُـــوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤ ــ ١٠٦)

أجل ، أطعمهم من جوع بنشاطهم التجاري الفذ ، وآمنهم مـــن خوف ، بشجاعتهم وتآلفهم وموادعتهم للقبائل الأخرى ، وبحسن سياستهم للتفاهم والسلام ، وجميل تصرفهم لاكتساب القلوب ..

ويكفي زجراً للمفترين الكفرة الفجرة ، أن تذكر لهم قول رسول الله، ﷺ ، في صرامته في طلب العمل ، مهما كانت الظروف قاسية ، لأن الفقر ومد اليد بالتسول أقسى من ذلك ألف مرة ...

وفي ذلك يقول : لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها ، فيكف الله بهـــا وجهه ، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه .

والآن أريد أن يفهم الذين يسمعون لغو المحرّفين نصوص الأديان الذين يخلطون أحاديثهم عنها ، وأحكامهم عليها بالزور والبهتان ، والزيادة والنقصان ، وفضائح الجهل .

أريد أن يفهموهم ، أنهم ليسوا أُمناء ، على كشف حقائق العـــلم اليقيني ، فيما يتحدثون بـه اليهم ، لأن حقائق العلم اليقيني ، ليست هي شهوات ، حتى يلاقوا بها هؤلاء بلونٍ وأولئك بلونٍ آخر ..

يا لله ، ما أقسى ظلمَ الإنسان لحقائق العلم . وما أجرأهُ على العبث بها ، وتحريفها ، إنهُ لعنةُ اللعنات ، وخُبثُ الخبائثِ وهولُ الأهوال، إنه يهدم حياته بيديه ، وهو يخالُ أنه يعمرها .

النص الثاني

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِير (٢٩ ــ ١٩)

قال محاضر سطحي . بعد أن تلا هـذه الآية الكريمة المعجزة ، إن الرؤية هنا بصرية . فضحك المستمعون وقال : كيف يستطيع الإنسان ، أن يرى ببصره كيفية بدء الخلق وأطواره التي يمرّ بها ، من البداية إلى النهاية . وبصرهُ محدود ولا ينفذ إلى ما وراء المادةِ المشاهدة ، فما بالك برؤية كيفية بداية الخلق . وبداية الخلق لا تبصر إلا بمنظار العلم .

قال المحاضر : الكلام في الآيـة على حذف مضاف . أي ألم يروا كيف يبدىء الله تمام الخلق ؟؟!!

هنا ازداد المستمعون ضحكاً وقالوا بهزء واستخفاف :

هل كيفية بدء هـذا التمام للخلق يرى بالعين المجردة . أم لا بـدّ لرؤيته من عين العلم ذات المراقب والمجاهر ؟...

وهنا صرخوا في وجهه : ويحك . هل يمكن لأعيننـا ، أن ترى كيفية تمام ابتداء خلق الأجنـة ، في عالمي الحيوان والنبـات ، وخلق السدم .. وخلق سائر التكوينات المطردة ، سواء ما اكتشفها العلم ورآها أو لم يكتشفها ولم يرها ...

... وما اكترثَ لصرخة المستمعين الناقدين . بل أصر أن في الآيـة مضافاً اليه محذوفاً هو (تمام) . وزاد مؤكداً إصراره : هذا رأيـي ، وأنا حرٌّ في رأيـي .

فهتف بنا أحد المستمعين :

لا تعجبوا ، فهناك مــن انكروا مجيء المسيح عليه السلام . ويقين مجيئه ملءُ الأسماع والأبصار ...

وخبثاء البشر ، ما أكثر دسهم ، فقد كنا مرة فريقــاً من الطلاب نستطلع عجائب عمار الأهرام . فقال رجلٌ وكان بجانبنا يتعمقه نظراً ، وأحسبة صهيونياً مستخفياً : ما هذا عماراً . هذا جبل منحوت نحتاً ...

والقاء الريب ، في حقائق الأديان الموثوق بهــا وسواها ، صناعــة صهيونية مزمنة ، فكم من دينٍ خربوا ؟ وكم مــن علم أفسدوا ؟ وكم من خلق هدموا ؟..

فهم يرون أن البشر حيوانات « كوييم » يقادون بايقاظ غرائزهم ، لا بايقاظ عقولهم وضمائرهم ، أمــا قال أفاكٌ أثيمٌ منهم . في آيــة (يونس عليه السلام) :

قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (١٠ ــ ١٠١)

إن مدلول النظر هنا نظر البصر ، لا النظر العامي ، لأن العرب ــ في زعمه ــ كانوا يجهلون النظر العلمي . ومراده أن يحجز مدلولات آيات القرآن المجيد . بمدى ما كان يملك عرب الجاهلية ، من ثقافة عنصرية ضيقة ، إبطالاً لاعجاز القرآن الذي ما انزل الا ليخرج الانسانية جمعاء ، مــن الثقافة العنصرية ، التقليديــة المحدودة ، إلى الثقافــة الانسانية الواسعة المنطلقة ، وإلا ليخرج الناس مــن جهل الوهم والظن والأسطورة ، إلى علم الحقيقة والواقعية في كل شيء .

فيا ويله كم في قوله مــن افتراءٍ وظلمٍ ، وهدم للواقع العلمي اليقيني الصارخ في إعجاز الآية :

« قُلِ انْظُرُوا مَاذَا في السَّمٰوات وَالأَرْضِ »

هب أننا نزلنا إلى تأويله وقلنا مثله : المراد من قوله تعالى : انظروا هو نظر العين المجردة ...

فإن هـذا المراد يعرض علينـا أن نصعد إلى أسطحة السموات ، المتناثرة في أبعـاد الفضاء ، وننظرها بأعيننـا المجردة كما ننظر سطح الأرض من سطح القمر الآن ..

وإمكان ذلك ، لا بدّ له من علم تقني كبير كبير ، وهائل هائـل لكي تُحقق لأنظارنا المجردة ، أن تبصر ماذا في السموات والأرض .

فنجد في الحالين ، أن المقصود هو النظر العامي .

وهلاّ علمَ أمثالُ هذا المحاضر المجرم ، المحرف لحقائق العلم اليقيني عامداً ، أن مسئولية تحريف العلم عن واقعه اليقيني في أي شيءٍ إجرامٌ إجرام ، وهدم للحضارة الإنسانية في الدنيـا ، والمسئوليةُ في الآخرة أعنفُ ، والعذابُ أكبر .

ولا بد للدارس العلمي أن يستفيد من قوله تعالى :

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . انَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (١٧ ــ ٣٦)

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٢ ــ ٧٥)

... مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ (٤ ــ ٤٦)

ومهما يكن فوحي الله محال أن يكون حوله الضباب والظلام بل هو واضح واضح هو نور مبين للناس أجمعين .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (٣ ــ ١٧٤)

ادرسوا القرآن المجيد كما تدرسوا البرهان العلمي اليقيني واطلبوه في كل آياته تجدوه مشاهداً محسوساً .

عالما النعيم والعذاب وحقائقهما

كنت منذ عقدين ، أحاضر في مدرسة الإناث الثانويـة ، طالبات الصفوف المنتهية ، في حقائق عالمي النعيم والعذاب .

وكنت قد بسطت لهن ، يقين العلم والوحي معاً ، من الوجهة الاسلامية ، بطريقة مختصرة سهلة تسعها عقولهن .

وانتهت الحصة ، وقد ظل للحديث بقية ،... فأخذت أتمه في حصة اليوم التالي .. وإذا بطالبة ترفع إصبعها ، قائلة : ذكرت أمس ، أن يقين العلم لا ينفي وجود عالمي النعيم والعذاب بين العوالم المتناثرة في ابعاد الفضاء ؟

قلت : نعم .

قالت : ولكن معلمة اللغة الأجنبية ، ذكرت ، أن العلم ينفي ذلك نفياً باتاً .

وأرهفتُ الطالبات أسماعهن انتظار إنتباهٍ للجواب .

... فأجبتهن بما في يقين العلم في هذا الموضوع – وأضفت رعايةً

لمكان المعلمة الفاضلة في أنفسهن : أنها لم تكن على علمٍ بما قرره وحي الله اليقيني من دلائل ، ومكان ذلك في العلم اليقيني ..

والتقيت بالمعلمة الفاضلة ، وقصصت لها محاورة الطالبات معي ، عن عالمي النعيم والعذاب ، ونفيها هي لهما باسم العلم ..

فابتسمت بين أطيافٍ من السخرية والاستخفاف .. وأصرت مؤكدة نفي العلم لهما !! ولم أجبها ، لأن الجرس قد قرع ...

وفي فرصة أخرى ، شاهدتها في الملعب ، فنظرت الي نظرة القائد المنتصر في المعركة الفاضلة ، وبادرتني :

العلمُ ، كل البشر يذعنون لحقائقه . هلا أذعنت أنت ؟!!

قلت : بلى ، ولكن نسبة النفي إلى العلم ، جهل بالعلم ..

فاحمر وجهها عناداً وزادت « بل هو العلم والحق والواقع » .

فابتسمتُ ابتسامتها الأولى ، موضحاً برفق ..

« يا معلمتي ، قد يكون نفيك علماً وحقاً وواقعاً ، لو أن علماء الفلك طافوا كل عوالم الفضاء ، المختفية في أبعاده ملايين السنين الضوئية ، ودرسوها واستوعبوها عالماً فعالماً ، ولم يجدوا بينها عالماً مُعداً للنعيم ، وعالماً مُعداً للعذاب » .

هي أنك تعامين وجود كتاب في مكتبة أحد أقربائك ، وأنت في حاجة ملحة اليه .. فطلبت منه إعارته ، فنفى وجوده ، لأنه يرفض إعارته ، ألا ترين أن أيسر كلمة تقولينها له ، أنت واهم ، ابحث عنه تجده ؟!!

فتوارت عن الاجابة ، وهذا في أصول البحث العلمي ، نقطة ضعف وفرار ، وفاجأتني بهذا السؤال :

وأنت ما هو برهانك على وجود هذين العالمين ؟

كنت أنتظر منها ، أن تطرحَ هذا السؤال ، لأنه وُجه إليّ في مواقفَ شبيهةٍ بهذا الموقف من منكري العالم الثاني .. وقلت :

لعلك يا معلمتي – تخالين – أني أتعلقُ بأوهام أسطوريةٍ ، وأهيمُ بمفاتن تخيلات طائرة !!

لا لا .. إني أتحدث إليك بالواقع اليقيني ، وأنتِ بعد ذلك ، لك حريةُ الإختيار ، إن شئتِ صدّقتِ ، وإن شئت لم تصدّقي :

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (١٨ – ٢٩)

ولكن حذار ، أن يكون ما تفكرين به هو العلم ، وما تؤمنين به هو الجهل ، فذلك يكون لك وصمة إنحطاط فاضحة مميتة .

أنظري هذه الدنيا ، ألا تجدين أعمال البشر فيها ، موزعة بين الخير والشر ، وبين العلم والجهل ، بحريةٍ مبصرةٍ ، وإرادة قادرة على النقد والتمييز وإيثار العلم الخالص .!! وتجدين شرائعها معدة لتنعيم المحسنين ، ولتعذيب المسيئين .

هذا والدنيا أجلٌ زائلٌ ، فما بالك يكون في الآخرة . والآخرةُ أبدٌ دائم ، وما دام أهل الدنيا هم الذين ينتقلون جميعهم إلى الآخرة ، بخيرهم وشرهم ، بإيمانهم وكفرهم ، بصدقهم وكذبهم ، وما داموا هم الذين يحاسبون على ما قدموا من كل ذلك ، ويجزون عليه الجزاء العادل ، فمحال أن تخلو الآخرة ، من وجود عالمي النعيم والعذاب .

والذي برهن لنا ، على وجود العالم الثاني ، واشتماله على عالمي النعيم والعذاب جملة أشياء .

١ ـ وجود الطاقات الروحية العاقلة .

٢ ـ دلائل العلم .

٣ ـ دلائل الوحي .

٤ ـ حقائق عالم النعيم وسننه .

٥ ـ حقائق عالم الجحيم وسننه .

وجود الطاقات الروحية العاقلة

* من الواقع أن دارس العلوم الحديثة ، إذا هو لم يحط علماً بخصائص الذوات المادية ، وبخصائص الذوات الطاقية ، الإحاطة المميزة المتعمقة فإنه محالٌ أن يستوعبَ وجود الطاقات الروحية العاقلة .

* والسببُ أنَّ عوالم المادة ، مكونة من عناصر ، والعنصر مكوَّن من ذرات ، والذرّة مكونة من كهارب ، تدور حول نواة ثابتة ، والكهرب هو الطاقة التي لم يصل الإنسان إلى إدراك كنهها ، لا بالعقل ولا بالحواس ولا تقسَّم .

أما ذات المادة مهما صغرت ، ولو كانت ، الذرّة ، فإنها قابلة للرؤية .

* وأما ذات الطاقة — مهما كبرت — ولو كانت طاقة الجاذبية ، الجاذبة والدافعة ، فانها لا ترى بتاتاً ، ولو تجمعت كل طاقات المراقب الكاشفة في مراصد العالم . في مِرْقب مرصد واحد لما رأتها بتاتاً ، سمِّه مِرقب المراقب .

هَبْ أن العلماء . اخترعوا مِرقب المراقب . الذي يملك كل الطاقات الكاشفة الهائلة . وهب أنك وجهته لكشف طاقة الروح لدى انفصالها عن جسدها الحي . فانك لا ترى شيئاً ..

والمجامع العلمية لم تتعمق بعد في كشف عوالم الطاقات الروحية وسواها حتى تستطيع أن تخترع (مرواحاً) تبصر به كيان ذوات الطاقات[1] .

أتلُ واخشع وتدبر وتفكر في قول الله جل جلاله :

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً (١٧ ــ ٨٥)

وتنسيق الطاقة الحية ـــ الروح ـــ للكائن الحي ـــ أيــاً كان ... هو نتيجة تخطيط عليم مريد قادر ، وهل مـن عليم مريد قادر ، سوى الله رب العالمين جميعاً .

وبرهان جحود الطاقــة الروحية الخالدة في الكائن الحي ، عــلى أن المادة والطاقــة متلازمتان ، هو برهان ظني واهٍ ، لا أساس لــه من الصحة . لأمرين :

١ ـــ التلازم لا ينفي وجود الأرواح ، لأن للتلازم كيفيات شتى ، لما يحط بها العلم اليقيني كافة .

٢ ـــ إن زعم التلازم في العوالم قاطبة ، ما اكتشف منها ، ومـا لم يكتشف هو تحكم ظنٍ ورعونةُ جهل .

ولا يصر على حتمية التلازم ، بين المادة والطاقة ، في كل كائن ، إلا مثقف بدائي غير موزون . أو من المثقفين المهووسين ، الذين يخالون التظاهر المادي في المعرفة ، واستقلالها عن الروح ، هو الذي يجعلهم من زمرة العلماء المتعمقين الذين ينادى بهم لدى كل أذان .

---

[1] المرواح وجمعه مراويح وهو آلة تكشف به ذوات الطاقات الروحية وسواها وهو لم يخترع بعد. وكيف يخترع وهم أبعد ما يكونون عن أسرار الروح .

والحقيقة أن العلماء المتعمقين في دراسة خفايا الطبيعة يدركون أن جحود هؤلاء المثقفين المهووسين ، لعوالم الأرواح وبقاءهما ، ما هو إلا ستار يخفون وراءه ضعفهم العامي ، ولا يستحون حين يزعمون ، أنهم فوق أعلام العلماء الذين يؤمنون بالله وعوالم الأرواح واليوم الآخر .

وانك تجد لهؤلاء المثقفين المهووسين المغالين في حب الظهور ، لهم أغراض غير عامية شريفة .

حسبهم انتكاساً وخبثاً وسوء نية . أنهم لا يهتمون بكشف الواقع العلمي اليقيني ، في أي شيء .. وأنهم ينسبون كل دراسة متصلة بالله جل جلاله ، وبعوالم الطاقات الروحية العاقلة كالأرواح والملائكة والجان ، إلى الأساطير والترهات .

وهناك بعض العلماء المتعمقين يعلمون وجود الطاقات الروحية العاقلة المستقلة ، وحقائق الايمان بالله الخالق العظيم جل وعز .. ولكنهم يعلنون أنهم ملاحدة ، بدافع من انانياتهم العنصرية المجرمة المتخافة . نزوعاً إلى بلبلة الأوساط العامية ، وإفساد عقائد الناشئة .. وجلهم من الصهاينة . إقرأ كتاب (هكذا قال زرادشت) تامس هذه الحقيقة ...

ولدينا قردة الشرق البدائيون ، الذين لم يعرفوا ، من حقائق العلوم الحديثة ، وحضارتها إلا مفاتن المغريات الجنسية . والاباحة المطلقة . والتظاهر بالفحش والالحاد . وجحود الخالق العظيم ، والتنكر لعوالم الطاقات الروحية ، ألا تجدهم يمثلون حياة الانسان بحياة النبات في نظرهم المعكوس فيزعمون أن الإنسان . إذا مات تفرقت ذراته في الأرض . وتطايرت طاقة حياته الروحية شعاعاً إلى غير عودة ، كالنبات تماماً .

وهم يجحدون كائنات الطاقات الروحية المحضة . لأنهم يريدون أن يشاهدوا ذواتها بوسائل كشف حقائق الذوات المادية .

وهـذا جهل بيّن . لأن التعرف الى عوالم الطاقات الروحية ، له وسائله وأسبابه الروحية . وإنما يكون التعرف اليها بآثارها .

ألا ترى أن الأصوات والصور المختلفة . وهي طاقــات مَحْضة . تحملهـا الأمواج الكهربائية ، من إقليم الى إقليم . ومن بلد الى بلد ، وهي حين تسمعها أو تراها إنما يكون ذلك بوساطة الآلات المخصصة من أجل ذلك ، ولكن حقائقها لا ترى .

وقل مثل ذلك في الطاقــات الروحية العاقلة . فإن أعيننا المجردة لا تراها ، إلا إذا اتخذت هي لباساً من الذرات المادية .

ومن هنا فإن الملاك جبريل عليه السلام ، حين جاء الى مجلس رسول الله ﷺ ، في صورة أعرابي . رآه جميعُ من كان في المجلس، ولكن لو جاء في حقيقته الروحية ، فإنهم لا يرونه .

ومن أجل ذلك كان رسول الله ﷺ يراه بصفاء بصيرته وقوة روحه، وجلاء نفسه . ويتحدث اليه ، ويسمع منه ، ومعه أناس لا يسمعونـه ولا يرونه .

وإذا علمنا أن بعض الأفراد غير رسل الله ، رأوا الملائكة ، أو الجن، أو الأرواح وتحدثوا اليها كأم موسى وسيدتنا مريم العذراء ، وسواهما ، ممن جاء ذكرهم في كتاب الله والسنّة الثابتة الصحيحة ، فإنّ ذلك يكون بوساطة الذرات المادية التي يتشكلون بها .

لذلك قال العلماء في حق الملائكة ، هم أجساد نورانية لطيفة تتشكل بأشكال حسنة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

أما قال الله تعالى حين بشر السيدة مريم بالسيد المسيح:

فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً

الاتصال بعوالم الطاقات العاقلة

عرفنـــا أن أهم الطاقات العاقلة ، المعروفة هي الملائكــة والأرواح والجن ، وعرفنـــا أن كل ما نشاهده ، من عالم الانسان ، مـــن نور وظلام ، وطهـارة وقذارة ، وإيمـــان وكفر ، وخير وشر ، واتصال وانفصال ، نجد أكثر منه في عوالم الطاقات الروحية العاقلة .

لذلك نجد عوالم الأرواح العاقلة تنقسم إلى قسمين: خيِّرةٌ نورانيـة ، وشريرة ظلمانية .

وانك تلمس أثر النور والخير والهداية ، في أخيار المتصلين بهـــا ، وتامس أثر الظلام والشر والضلال ، في أشرار المتصلين بها .

١ ـ الاتصال الخير

ألا ترى الاتصال الخير ، هو إتصال الرسل الكرام ، الذين أعدهم الله إعداداً فطرياً خيراً ، وطهرهم تطهيراً ، وعصمهم من الذنوب كلها ، قبل الرسالة وبعدها ، أما قال الله عز وجل :

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (١٦ ـ ٢)

وقال تعالى أيضاً :

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ.
(٢ ـ ٢٥٣)

وقال تعالى :

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ .
(٢٦ ـ ١٩٣ و ١٩٤)

وصلة نبي الله سليمان عليه السلام بالجن وتسخيره لهم بإذن الله معروفة في وحي الله .

... وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ (٣٤ ـ ١٢)

أجل إن الرسالة السماوية ، التي تقتضي الاتصال ، بعالم الأرواح ، والتعرف اليها ، وتلقي الوحي ، تدل عليها دلالة صريحة ، الآيات التي مر ذكرها .

وإن من الاتصال الخيّر لغير الرسل الكرام ، إتصال الأبرار الطاهرين من الرجال والنساء ، طهروا أنفسهم ، وحفظوها من التلويث بالآثام ، وأقبلوا على الله بقلوبهم وعقولهم وكل إمكانياتهم ، متبعين ما أنزل الله من وحي ، ومستقيمين كل الاستقامة ، كالسيدة مريم ، الطاهرة

البتول ، التي لازمت محراب اعتكافها وعبادتهـــا الخالصة لله عز وجل . ونداء الملائكة لها .

قال الله تعالى :

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَـــةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٣ ـــ ٤٢)

وكذلك والدة رسول الله سيدنا موسى عليـه السلام ، فقد اتصل بها وحي الله ، لطمأنينة قلبها ، على ولدها سيدنا موسى ، ولإزالـة خوفها عليه ، وأنــه عائد اليها حتماً ، وهـذا الاتصال بوحي الله غير اتصال النبوة والرسالة .

قال الله تعالى :

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٧ ـــ ٧)

هذا هو الاتصال ، الذي تلمس أضواءه وسبحاته وضراعته ، وكبير نفعه للبشر في أعمالهم .

ومهما يكن ، فأهل التقوى الأبرار ، الذين جاء ذكر اتصالهم بعوالم الأرواح الطاهرة ، في الكتاب والسنة الصحيحـــة ، هم دعـــاة ايمان وهداية ، يـــأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، لأنفسهم وأهليهم وللناس جميعاً .

٢ – الاتصال الشرير

هو اتصال أهل الفسوق المنافقين ، الذين يبطنون الكفر ، ويظهرون الايمان . والاتصال الشرير لا يكون إلا بالأرواح الخبيثة ، من الجن والشياطين .

والعامة المغفلون ، واشطار المثقفين ، لا يميزون بين الاتصال بعوالم الروح الخيرة ، وعوالم الروح الشريرة ، ولا بين الأعمال والكلمات التي تصدر منهم ..

والمسألة لا تحتاج إلى علم غزير ، ولا إلى عقل كبير !!

فإن كان المتكلم من الأشرار ، كانت رائحة الشر تفوح في كلامه ، وتظهر في مراقبة عمله،وإن كان من الأخيار، كذلك،فمن أخبرك بما غاب عنك ، من أعمالك وأخبارك ، فقد يكون متلقياً ما أخبرك بـه ، من عالم الروح الأشرار ، وقد يكون من عالم الروح الأخيار ، حسب العمل والبلاغ . فان اخبرك عن حب وغرام ، ومهد لك طريق الوصول إلى المحبوب ، فهو شرير قطعاً ، وشيطان مخادع نهاب سلاب ، وإن منعك عن مزاولة الشر ، وارتكاب الفواحش ، وقصرك على الحلال الطاهر من كل شيء ، فهو خير قطعاً .

وليس في كل ذلك ولاية مجتباة ، إلاّ ما كان من طريق الله جلّ وعزّ، مباشرة ، كالمعجزات التي أظهرها الله على يد رسله الكرام تصديقاً لهم، وكالكرامات التي أجراها الله على يد صاحب سيدنا موسى عليه السلام : الخضر [١] .

---

١ اطلاق لقب خضر على صاحب موسى عليه السلام اصطلاح بين المفسرين للتدليل عليه . راجع سورة الكهف وتعيينه ١٨ – ٦٠ إلى ٨٢ .

إذن فما تراه من عجائب عبّاد الأصنام ، والحيوانات وسواها مـــن المخلوقات ، مصدره عوالم الأرواح غير المؤمنة بالله الخالق العظيم وحده دون شريك وند ...

ومن أجل ذلك ، قالوا يوجد في عوالم الجن ، من النِّحل والملل والنزعات والنزغات ، مثل ما في عوالم الإنس وزيادة .

فظهور العجائب المزعومة ، لا تدل عـــلى صحة الإيمان ، الوثني والشركي ، الذي يجعل الإنسان ، يعبد إلهاً مثله ، متخذاً مـــن أفراد الكائنات .

لا يصح بالدلائل العلمية اليقينية بحال ، أن يكون هو الخالق للعوالم، والواضع لها سننها ، والمهيمن عليها ، والمتصرف فيها ، وجوداً وعدماً وبقاء ، وأن تكون العوالم كلها مستمدة منه ، بقاؤها وتدبيرها ومسيرتنا في الوجود العام والخاص .

والخلاصة ، أن ما يحسبه أشطار المثقفين والعامة ، أنه عجائب ما هو بعجائب ، إن هـــو إلا نتيجة الأسباب المختلفة ، في أعمال الكائنات وتباين سننها .

وهي لا تدل على صحة الحقيقة العلمية اليقينية ، والوحي اليقيني .

ومن تجاوز العلم اليقيني والوحي اليقيني ، فإنه يهوي الى الخرافـــات والأساطير والترهات ، وتلبسه النحل الوثنية أو المشركة .

وبما أن القرآن المجيد ، وصل الينا من طريق التواتر العلمي الجماعي بالتلقي والاستظهار .

وبما أن البشرية ، تملك قسماً كبيراً ، من العلم اليقيني المحرر مـــن الفرضيات والظنيات .

فمن هذين الينبوعين العظيمين الخالدين ، تستقي البشرية حقائق الايمان

العلمي اليقيني ، ومسائله ومثله العليا .

وعلى كل حال ، فالصلة بالأرواح ، لا تدل على أن الملة صحيحة في نظر يقين العلم ، وإن أخبرك المتصل بها بألف ألف خبر غيبي عنك، وإن حمل اليك جبال الألب ، وطار بك في الهواء . لأن الذي يدل على مصدر حقائق العقيدة ، إن كانت سماوية موحاة ، أو أسطورية موضوعة، هو العلم اليقيني وحده .

ولولا براهين المعارف الحديثة الصحيحة ، التي أعلنت فساد نحل الوثنية والشركية ، وكشفت خفاياها الهرائية ، وبواطنها الخيالية الأسطورية لما نهض البشر كافة هذه النهضة المحررة ، ولما كان للقرآن المجيد ، كل هذه الدراسات المحررة ، التي كشفت كثيراً من أسرار الطاقات العاقلة ، التي كادت تبدد المعرفة بها ، بين الخرافات الوثنية ، وبين تُرّهات الشرك.

والآن ، أتلُ معي هذه الآيات الكريمة ، لتعلم بكل الحقيقة في هذا البحث :

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٦ — ٢٢١ و ٢٢٢)

... وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (٦ — ٢١)

وأكثر هؤلاء الذين يتصلون بالجن ، ويأخذون عنهم ، ويبلغونه لأتباعهم وللناس ، ويؤثرون فيهم ويخرجونهم عن وحي الله الحق ، هم من الذين اتخذوا الجن آلهة لهم ، يضرعون اليهم ، ويتوسلون بهم ، لدى الملمات والحوادث . أتل معي قوله تعالى :

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَـــلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٣٤ ـــ ٤١)

وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يَصِفُونَ (٦ ـــ ١٠٠)

التمييز بين عوالم الطاقة والمادة

يجهل بعضهم التمييز بـين خصائص الذوات الماديـة ، وخصائص الذوات الطاقية ، وبالحري ذوات الطاقات الحية (الأرواح) التي زودها الله جل جلالـه ، بمخططات تكوين الأجساد ، الحيوانية والنباتيـة ، المسيرة بقدرته ، وإرادته ، وعلمه جل وعز .

وقـد أفضى بهم هذا الجهل ، إلى جحود عوالم الأرواح ، ويضاف أيضاً ، سبب جحودهم ، أنهم بنوا حكمهم ، على مظهر تلازم الطاقة والمادة ، هذا التلازم الذي حكموا بـه جهلاً ، أنـه محقق في كل الكائنات .

وهذا الحكم أشبه بحكم اليونان ، على أن العناصر المكونة منها الكائنات أربعـة ، وفي عصرنا تجاوزت المئة والعقد . مع أن معارفنـا اليقينية ، لا تصلح لإصدار حكم عام ، عـلى كل عوالم الكائنات ، لأنها لا تزال تحبو ، في أصغر زاويـة من زوايا مجموعتنا الشمسية ، التابعـة للمجرة الأولى ، ولا يعلم عدد المجرات وكواكبها ، إلا الذي خلقها ، سبحانه جل وعز ، وكل الذي يتحدث بـه رواد الفضاء ، والراصدون مـن العلماء ، هو أهوال ، وأهوال مما يتراءى لهم ، مـن عوالم المجرات ، وما وراءها ووراءها .

وفي النهاية ، إن الإحاطة بكل الكائنات ، المادية وسواها ، المترامية في أبعاد الفضاء السحيقة ، هي لله عز وجل ، وما يحيط علم البشر منها قليل قليل :

وَلا يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَاءَ (٢ ــ ٢٥٥)

إذن ، فدعوى التلازم، بين الطاقة والمادة ، في كل كائنات الوجود، هو زعم باطل .

والذي يدلنا على أن الطاقة تكوينها كان قبل المادة ، هو انحلال المادة اليها وذلك صريح في قوله تعالى :

وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً (٧٨ ــ ٢٠)

والسراب ، هــو انعكاس الضوء . والضوء وانعكاسه ، هــو من الطاقات غير العاقلة ، والله عز وجل يقول في آية اخرى :

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعْداً عَلَيْنَا إِنَا كُنَّا فَاعِلِينَ (٢١ ــ ١٠٤)

فالكائنات المادية ، كما بدأهــا الله جل جلاله ، من الطاقة ، التي أبدعها بقدرته وعلمــه ، فإنه يعيدها بعد تفكك ذراتهــا إلى طاقات ، بتكوين جديد ، نزلة أخرى ، ملائم لسنن العالم الثاني :

يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ (١٤ ــ ٤٨)

وهذا التبديل يكون يوم القيامة .

والخلاصة ، أن لا تلازم بين المادة والطاقة ، في كل كائن بالذات ، بحيث لا يوجد أحدهما مجرداً عن الآخر . ومهما يكن ، فإن هذه الأكوان ، التي أبصرها العلماء ، من الطاقة والمادة ، وتلك التي لما يبصروها حتى الساعة ، إن هي إلا آيات بينات ، وحجج قاطعات ، وشواهد دالات ، على جلال الخالق العظيم ، الذي له الخلق والأمر .

قال الله تعالى :

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٢٠ ــ ٥٠)

إذن ، فالذين ينفون ، أن يكون بين ذوات الكائنات المادية ، ذوات طاقات روحية عاقلة ، إن هم إلا أطفال أغرار ، بدائيون في دراسة العلوم الحديثة . وفي دراسة وحي الله اليقيني ، المنزل على خاتم رسل الله صلى الله عليه وسلم :

لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤١ ــ ٤٢)

دلائل العلم على وجود الطاقات العاقلة

أكرهُ النخاسين الذين لا يملكون مــا يعرضونه في أسواق المعرفة ، إلا العبيد والدواب .

أكرههم ، وأكرهُ من يتسم بسماتهم من المشبوهين ، أشطار المثقفين ، أو المتهزين السلابين .

ألا ترون ...!!

كم من إرهاق !! وكم من أذى انصب على خاتم رسل الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، لمــا نفر نفير وحي الله ، وتحتم عليــه أن ينهض بالإنسانية كافة إلى حرية العقيدة ، وحرية الدعوة :

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ (١٠٩ ــ ٦)

ولكن كَبُرَ على المشركين ذلك ، وقاتلوه وقاتلهم ، وفي النهاية ، انتصرت حرية العقيدة ، وحرية الدعوة ، انتصارهما في كل معركة ..

وتقرر المثل الأعلى ــ حرية العقيدة ، وحريــة الدعوة ــ !! ورفع الإكراه والضغطُ والمحاسبة ، من مِلّة على مِلّة ، في المجال الإنساني

العالي إلا على مستوى الحريـــة الراضية ، والبرهان العلمي اليقيني المقنع .!!
وأصبح حتى الأخذ بذات وحي الله اليقيني ، هو رهن حرية الارادة المختارة :

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (١٨ ـــ ٢٩)

لا إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ (٢ ـــ ٢٥٦)

واجلت عقوبـــة الانحراف ، عن مثل وحي الله العليـــا ، إلى يوم الحساب :

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٨٨ ـــ ٢٥ و ٢٦)

وسما أرباب العقائد المختلفة ، وعلموا أن ليس بين أممهم وشعوبهم ، إلا مساعي التعارف الخير ، وموداة التعايش السلمي الكريم .

أي أن ما يحبه الفرد للفرد ، والجماعة للجماعة ، هو ما يحبه ويحبونه لأنفسهم ، أعمالاً ونيات ، من استقامة وسعادة ، وهداية وايمان .

وتعجب ، لِمَ أكرهُ النخاسين ؟!! وقد سمعت واحداً منهم يعرض بضاعة نخاسته ، على زمرة من الشبيبة الشاديـــة ، باسم العلم .!! وقد زيفه بأباطيل الالحاد ، سمعته :

« أنا لا أصدق بوجود الكائنات ، الطاقيـة العاقلـة ، في عالم الواقع العلمي اليقيني في الخارج ، ولا أكذب بوجودهما في عالم الإبداع والخيال الباطني » ..

هذا هو العلم ، وليس وراءه إلا الجهل . ولماذا نملك عقولاً مفكرة، إن كنا ننصر الجهل وأباطيله ، بالايمان والتأييد ... وإن كنا نخذل العلم وحقائقه ، بالكفر والتبديد ..

أجل حرام أن نحمل مواريث الملل والنِّحَل الأسطورية ، فنؤمن بالله والطاقات الروحية العاقلــة ، وعالمي النعيم والعذاب ، ونسهدُ ونجهدُ ، ونضحي ، دون أن يكون لدينــا براهين علمٍ يقينيٍ ، تدل أنهــا غير خرافــات ، ألسِنَةُ العرافين والسدنــة لاكتهــا ، في ظلمات العصور الحجريــة ، وتندس في العلم ، بــاسم الوحي الإلهَي ، وتصبح بحكم التوارث الممتد في القدم ، ذات انطباعات راسخة ، في أعماق نفوسنا ، مستحكمة في أعصابنا ، مستقرة صورهــا ، الحلوة والمرة في مخيلاتنا ، هذا مــا كان . ولقد أصبح التخلص مما كان صعباً كل الصعوبــة ، ومفتقراً إلى تطورات حضارية محررة ، على مدى حقبٍ متطاولة !!.

ولم يعلم هذا النخاس الجاهل ، أن الوجود كما يشتمل عـلى الكائنات المادية ، يشتمل على الكائنات الطاقية :

١ — من جاذبية وحرارة وصوت .

٢ — ومن أرواح وملائكة وجن ، وسواهما ممـا هو كثير وكثير ، ومما هو مكتشف وغير مكتشف .. وما درى أن العلماء أنواع ...

أ — نوع متخصص لدراسة العلوم المادية . وكل ما يتصل بالانسان من مادة ..

ب — ونوع متخصص لدراسة العلوم الطاقيــة ، كالضوء ، والحرارة ، والصوت ، والملائكة ، والأرواح ، وكل ما يتصل بالإنسان من روح ...

وكم لهؤلاء وأولئك العلماء ، من مؤلفات قيمة نافعة .

وجهل نخاسنا بما دونوا من معارف . وبما كشفوا من حقائق ، هو الذي جعله ، يهرف بما لا يعرف .

وأحسبه أنه قرأ لبعض الماديين ، الاستخفاف بعلوم الطاقات الروحية

العاقلة ، وبعلمائها ، فخال ذلك جحوداً ، ومـــا هو بجحود ، إن هو إلا اعتداد بما هو متخصص به من علوم مادية ، كشأن أقزام المعرفـة المادية في الغرب تجدهم يفخرون بجحود عوالم الطاقة العاقلة ، وبالله الخالق العظيم ، إشعاراً للجماهير ، أنهم في شموخ عمالقة علمائهـا . وذريعتهم ، أن أساطير عـــالم الروح ، أدخلت عليهم مـــن دونهم ، وأن شموخهم العلمي ، هوى في زعمهم . وتجاهلوا أنهم أقزام،في كشف واقع المعرفة . وأنهم لا يصاحون أن يكونوا غباراً عالقاً بأحذيتهم .

أو كشأن أطفال الثقافة لدينا ، تراهم يزعمون التجدد على غير علم، فيأخذون في الطعن على الدين وعلمائه ، ظانين أن ذلك هو التجدد .

وجهلوا ، أن التجدد ، ابتكار في الآداب ، وتفوق على الأجيال ، وصعود الى المعارف الحديثة ، وإنمائها ، وتصفيتها من صغار النفوس ، وأحقادها ، وظنونها ، وأوهامها ، ومفترياتها ، وبلايا إلحادها .

وآية ذلك ، انك ترى عباقرة علماء المادة المتشددين ، يعترفون بالإيمان بالخالق العظيم ، وكائنات عوالم الطاقة [1] ويعترفون بعوالم الآخرة ، ويعترفون بالعلم اليقيني المشاهد ، وبالوحي اليقيني المنزل .

ومهما يكن ، فإن هذه الأكوان ، التي أبصرها العلماء ، من الطاقة ، ومن المادة ، بمراقبهم الكاشفة ، وتلك التي لم يبصروها بها ... إن هي إلا آيات بينات ، وحُجج قاطعات ، وشواهد دالات ، عـــلى جلال الخالق العظيم ، الذي له الخلق والأمر .

---

١ راجع الوحي المحمدي ، للسيد محمد رشيد رضا . وكتاب المثل الأعلى في الأنبياء الـــذي ترجمه أمين محمود الشريف . وكتاب تحت أطلال المادة لمؤلفه فريد وجدي . وكتاب على حافة العالم الأثيري الذي ترجمه أحمد فهمي أبو الخير . وكتاب إعلام الموقعين لابن الجوزي . وكتاب الله يتجلى في عصر العلم . وكتاب العلوم الطبيعية في القرآن تأليف يوسف مروة . وكتاب الطريق إلى مكة تأليف محمد أسد ترجمة عفيف البعلبكي .

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٢٠ ــ ٥٠)

إذن ، فالذين ينفون أن يكون ، بين هذه العوالم ، المترامية في أبعاد الفضاء ، كائنات طاقية عاقلة ، إن هم إلا أطفال أغرار بدائيون ، في دراسة العلوم الحديثة ، وإن هم ، إلا أطفال أغرار بدائيون في دراسة وحي الله اليقيني (القرآن المجيد) الذي :

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤١ ــ ٤٢)

وفي دراسة الأديان السماوية السابقة .

وجحود حقائق الأشياء ، باسم العلم كارثة . لأن أكثر السامعين ، ليس لديهم الملكات العلمية الكاشفة ، المحررة ، القادرة ، على تمييز العلم من الجهل ، والحق من الباطل ، والصدق من الكذب .

تعريفات وبيان بعوالم الطاقات العاقلة

عرفنا أن الطاقة هي التي لا ترى بالعين المجردة ، ولا بواسطة المراقب والمجاهر ، بل لا ترى ولو اخترعوا مرقب المراقب .

والسبب أن الطاقة ليست مكونة من ذرات .

نعم قد ترى الطاقة ، إذا لبست لباساً من الذرات ، خذ مثلاً طاقة الضوء ، فانها تبدو إذا اتصلت بذرات المادة .

أما المادة — وإن صغرت ذراتها ، واختفت عن العين المجردة ، فانها ترى بالمراقب والمجاهر ، وما استعصى عن الرؤية اليوم — فغداً يُرى ، ما دامت صناعة المراقب الحديثة والمجاهر ، والأشعة الكاشفة آخذة في سبق الاطراد ، وجدة الابتكار . إلى نهاية الامكان العلمي الانساني المتطور ...

وقد تقدمت البحوث المطردة حول دلائل الطاقات الروحية ، المركزة في مناهج تكوين الكائنات المدهشة المحيرة في أعمالها .

وما اكتشفه علماء الحضارة من يقين علومها قليل جداً ، وما لم يكتشفوه كثيرٌ وكثير .

ومـــا أعمق كلمة قالها « ماكس بلانك » العـــالم الطبيعي الذي فتح الطريق إلى أسرار الذرة .

« إن الدين والعلوم الطبيعية يقاتلان معـــاً ، في معركة مشتركة ضد الشك والجحود والخرافة ، ولقد كانت الجامعـــة في الحرب ، وسوف تكون دائماً إلى الله »[1] .

وكلمة (وولتر اوسكار لندبرج) :

« ولا يزال الانسان في مهد العلم والمعرفة ، وهو يدرك أن الكون بأرضه وسماواته وما بينهما فسيح إلى أقصى الحدود ... وهـو يكاد يلمس أحياناً أن هناك صوراً أخرى من المادة والطاقـــة والأبعاد وغير ذلك من العوالم التي يجهلها في الوقت الحاضر كل الجهل »[2] .

وأعمق من الكلمتين ، كلمة رسول الله ﷺ :

« ما يزال الانسان عالماً ما دام يطلب العلم ، فاذا ظن أنـــه علم ، فقد جهل » ..

.. والقصد أن الذين يواصلون كشف معارف الوجود بنشاط واطراد، دون كلل أو ملل ، هم علماء ، لأنهم يعلمون جهلهم الأعمى بمعظمها .

وهذا هـــو الذي يجعلهم علماء ، لأن أشطار المثقفين ، يحسبون العلم الحديث ، قد كشف كل معارف الوجود ، والحق أن معـارف الوجود المختفية في حنادس جهل الانسان بها هي الأكثر .

وكلمة رسول الله ﷺ ذات شقين عظيمين :

---

١ واجع مقال صفات الله ، ص ١٥٦ من كتاب الله يتجلى في عصر العلم .

٢ في كلمته استخدام الأسلوب العلمي . ص ٣٥ عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم .

الأول : أن معارف الوجود المختفية ، كثيرة كثرة هائلـة . ينتهي الوجود ولا ينتهي كشفها .

الثاني : أن العلماء حقـاً هم الذين يعلمون جهلهم بمعظم معـارف الوجود ... فيدأبون بشوق وسهد ولذة من أجل كشفها ... ذلك لأن الأكوان هي كلمات الله ، وكلمات الله لا تحصيها الأرقام الحادثة المحدودة ، وأنى تحصيها ، والله عز وجل يقول :

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

(٣١ ــ ٢٧)

وما أحاط به علماء البشر ، من معارف كلمات الله ، ومـا أحصوه من آثارها لا يزيدُ عن شطر فنجان القهوة من لجج المحيطات .

والهدى العملي ، الذي يظـل مستفاداً من كلمة رسول الله ﷺ ، على تداول الحضارات ، هو أن الباحثين المكتشفين من البشر ، هم علماء، ما داموا يحسون بجهلهم اللهيف إلى كشف المزيد ، مـن علوم التكوين التي لم تكتشف ، فإذا ظنوا أنهم علموها قاطبة فقد جهلوا .

هب أن كـل الكائنين العاقلين الموجودين في السموات والأرض وما بينهما ، ظلوا يدرسون ويبحثون ويدونون المعارف التي يصلون إليها، فإنها لم تأخذ من علم الله مثقال ذرة .

والبشر كافة تنتهي حياتهم من هذا العالم الفاني ، وينتقلون الى عـالم الخلد ... والعلوم الكونية التي اكتشفتها حضاراتهم الصاعدة المتتابعة تظلُّ أقل من العلوم التي لم تكتشف بمراحل هائلة .

وإني أصارح أن ليس المجهول لعلماء الحضارة ، كنه عوالم الطاقات، العاقلة وغير العاقلة ، بل هنالك في مجاهل أبعاد الفضاء ، عوالم ماديــة محجوبة لا تزال مجهولة أيضاً .

ومن أجل ذلك ، من نفى وجود عالمي النعيم والعذاب باسم العــلم اليقيني ، فإنه يكون كاذباً . ومن الجهل الفاضح ، أنك تجد أشطار الدارسين لعلم النفس يجحدون علم الأرواح ، والذين يدرسون علم الأرواح يجحدون علم النفس . والباعث على الجحود من كلا الفريقين هي الثقافة الشطرية التي تريك جانباً من الواقع اليقيني ، وتسدل على جوانب أخرى ظلام الجهل ، ومن كان كذلك فكيف يصلح أن يعطي للعــلم حكماً صادقاً لا يجافي الواقع اليقيني الكوني .

وإني قبل أن أدع هذه الكلمة ، أريد أن أنبه ، أني رأيت العلماء المتقدمين ، حين رأوا الشكوك تغزو المجتمعات العلمية الإسلامية ، في العصر العباسي ، من دخول فلسفة الإغريق ومعارفهم ، نهضوا يفندونها، بحقائق وحي الله اليقيني ، في مؤلفات ضخمة قيمة على أسلوب منطقهم وأصول معارفهم .

والآن وقد بطلت الفلسفة الإغريقية ، التي كانت تحسب مــن العلم اليقيني ، لا من تخيلاتــه وفروضه وظنونه في جُل اتجاهاتها ، لظهور المعارف الغربية المادية وفلسفاتها ، واتجاهات مذاهبها الإيمانية والإلحاديــة والتطورات التي دخلت على كل من الإلحاد والايمان .

وبما أن الاتجاه العلمي اليقيني ، سواء في الماديــات أو في الطاقات أصبح بيناً ، وله علماؤه المتخصصون ، الذين يزدادون يوماً فيوماً ، في الغرب خصوصاً علوم الطاقات الروحية العاقلة .

فكان لزامــاً على علمائنـــا المحدثين الأعلام في الشرق ، أن ينقدوا

بواعث المذاهب الالحادية في الغرب ، من الوجهة العلمية اليقينيــة التي لا تقبل الريب بحال . وان يقيموا على أسلوبهم البراهين العلمية اليقينيــة لبطلانها . فليس في العالم الانساني قاطبـة علماء ، إذا ظهرت لهم حقائق العلم اليقيني يتنكرون لها . ما داموا علماء ، يقصدون الوصول إلى اليقين العلمي في كل شيء ...

ولمـــا رأيت الثقافة الغربية تعم كل معاهد الشرق ، حتى المعـــاهد الخاصة ، بدراسة الأديـــان . ورأيت الالحـاد المبني على ظنونهـــا ، وفروضها العلميـــة . يتطاير في غُبارهـا الحالك ، ويتسرب إلى تثقيف الشبان الشادين ، ويستحكم في ضمائرهم ويتفاقم في عقولهم وأعمـــالهم ، شعرت أن الواجب أن أخاطبهم بما درسوا من علوم الطبيعـة وسواها ، وأن أبرهنْ لهم ببراهينها المؤكدة لدى علمائها المتعمقين .

فإن لجأنا إلى دلائل منطق الاغريق . ودلائل معارفهم ، سخروا منا في أنفسهم . وأعرضوا ، أو جاملوا وسكتوا ... وهم يروننـــا عُبدان تقاليد الجهل ، ويرون أنفسهم أحرارَ يقين العلم . وأننا متخلفون منطبعون بمواريث نظريات الإغريق ، وأنهم صاعدون متقلبون في أضواء المعارف اليقينية الحديثة .

هكذا تصور لهم الدراسة الطفلية الطائرة .

نعم ، دخلت الفلسفة الاغريقيـة وجل معارفهـــا في متاحف عاديات الظنون والأوهام والفروض ...

ودخل معها ما ثني عليهـا من الأحكام والنظريات . وظل وحي الله اليقيني (القرآن المجيد) ترفرف أعلام معجزاته العلمية اليقينيـة ، فوق منائر الجامعات العلمية والمجامع ، وشتى مختبرات البحوث .

وأقبلت الحضارة الحديثة ، وهي تحمل أعلام العلوم المادية . وفلسفاتها

الالحادية ، ومذاهبهـا الجاحدة ، وانطبعت بألوانها ومذاهبها وإلحادهـا الاجيال الغربية ، وتسربت إلى شبان الشرق ، الذين تثقفوا في معاهدها، وتأثروا بها ، ونقلوها إلى الشرق ، حتى انطبعت بها معاهدهم وثقافاتهم ومؤلفاتهم ، وآدابهم وامتزجت بها مجموعاتهم النفسية .

حتى اضطر علماء عصرنا ، أن يفسروا للشباب الالتباسات التي جعلت الغربيين يلحدون ، ويرفضون مواريثهم الروحية وسواها ، ولا أثر لها في خاتم الوحي اليقيني (القرآن المجيد) .

ومن أنعم نظره في مـا كتبه الرافعي ، والسيد رشيد رضا ، وأحمد أمين ، والعقـاد ، ومنصور فهمي ، والأمير شكيب أرسلان ، وفريد وجدي ، والخضر حسين ، ويوسف مروة ، والسيد أمير عـلي ، وأبو الحسن علي الحسني الندوي ، وغيرهم كثير .

ولا يزال درس الحضارة الحديثـة ومعارفها ومذاهبها الفلسفية ، في نطاق المقارنـة والنقد والبحث والدرس ، لدى علماء الإسلام الناشئين ، وهم كثيرون جداً ، في كل قطر عربـي ، وفي كل بلاد اسلامية .

وإنهم في مـا كتبوا وألفوا دفعوا بلاءً ساحقـاً من الالحاد ، عن صفوف شبان الشرق وجانب من شبان الغرب .

نعم ستنتهي الحضارة المادية الحديثة ، وتأتي حضارة الطاقات الروحية العاقلة وسواها ، ويظل (القرآن المجيد) كما هو الآن ، المنار الساطع، الموجه إلى الحقائق العلمية اليقينية ، والكاشف لخفاياها وأسرارها .

والقرآن المجيد ، هو موجـه الأجيال إلى الحقائق العلمية اليقينيـة الخالدة في الماضي والحاضر والمستقبل إلى أبد الآبدين .

عالما النعيم والعذاب
في نصوص وحي الله اليقيني

• كل أتباعِ وحي الله ورسله الكرام — صلوات الله وسلامه عليهم — هم مؤمنون بوجود عالمي النعيم والعذاب .

• وعالما النعيم والعذاب هما ، من جملة عوالم الآخرة التي لا تزول أبداً .

• أما عوالم السماوات والأرض وما بينهما فإن لها أجلاً تنتهي اليه ، وتتبدل فيه ، وذلك في يوم القيامة ..

يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيرَ الأَرْضِ وَالسَّمٰوٰاتُ ، وَبَرَزُوا لِلّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ (١٤ — ٤٨)

وهذا التبديل في تكوين الأرض والسموات ، هو من مقتضيات إحياء البشر كافة عليها ، وانتقالهم منها إلى عوالم الآخرة .

والبشر أنفسهم ، حين يستعيدون تكوين أجسادهم بواسطة ذرة الحياة ،

من تراب الأرض ، كالنبات يوم القيامة ، يخلقون خلقاً جديداً ، مناسباً لسنن العوالم التي ينتقلون اليها ، وكيفيات العيش فيها .

وهذا منصوص عليه في قوله تعالى:

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلى أنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ في مَا لا تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرونَ (٥٦ ــ ٦٠ و ٦١ و ٦٢)

أجل قدّر الله الموت في هذه الحياة على البشر جميعاً ، لأجل انتقالهم إلى عوالم الآخرة ، ولم يسبق أحد المولى في هذا التقدير:

١ ـ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبوقِينَ

ولما كان الله خلقنا على أمثال وهيئات وكيفيات وصور وفق متطلبات هذا العالم الذي نعيش فيه ، كذلك حين يبعثنا فانه يخلقنا خلقاً موائماً للعوالم التي سوف ننتقل اليها ، فيبدل أمثالنا أي كيفياتنا إلى كيفيات وصور توافق نواميس العالم الثاني وأوضاعه ، نحن نجهلها الآن :

٢ ـ عَلى أنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ في مَا لا تَعلَمُونَ

ولكن إذا رجعنا إلى علمنا بالنشأة الانسانية الاولى ــ التي نحن عليها الآن ــ وتذكرنا أنها موافقة لسنن عالمنا هذا الذي نحن نعيش فيه ، وكيف هي في أحسن تقويم ، عرفنا أن النشأة الآتية ، ستكون أيضاً موافقة لسنن العوالم التي سننتقل اليها تماماً ، وستكون في تقويم أحسن ، وأحسن مما عرفنا الآن ، بمراحل .

٣ - وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ

ولولا ، هذه ، أداة تنبيه وتحضيض ، معناها هلا تذكرون .

بيان نعيم الآخرة

ومن أجل ذلك ، نجد أن الله بين لنا أن نعيم الآخرة غير نعيم الدنيا . بينه في جملة من نصوص وحيه اليقيني — القرآن المجيد — :

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٢ — ١٧)

فالنعيم المخفي الذي ستقر به أعين المؤمنين الصادقين في العالم الثاني ، جزاء أعمالهم الصالحة ، واستقامتهم على دعوة الإيمان في دنياهم ، لا تعلم به أنفسهم ، وهم في عالمهم المحدود الزائل .

وكيف لا تجهل الأنفس حقائق نعم الآخرة التي وصفها الله بقوله :

وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٣ — ٧١)

وقوله تعالى :

مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ

مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ.
(٤٧ ــ ١٥)

وهذا أيضاً من نواميس عالم النعيم الخاص ، وليس من نواميس عالمنا أن يجري اللبن والخمر والعسل أنهاراً ، كما أن حقائق هذه الأشياء أعلى وأرفع وأشهى من حقائقها في دنيانا الفانية .. ولكن التشابه في الشكل موجود ، وإن كانت الحقائق مختلفة . استظهر هذا النص القرآني لاعلان هذه الحقيقة :

وَبَشِّرِ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هٰذا الَّذي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيها أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خَالِدُونَ (٢ ــ ٢٥)

وأكبر نعم الآخرة ، وأروعها وأعلاها وأسعدها على الاطلاق ، هي نعمة رضوانه تعالى المتجلية في كل شيء بين أيديهم ، ويستمتعون به ويتلذذون ، المتجلية في قوله تعالى :

وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ (٩ ــ ٧٢)

واليك الحديث القدسي الذي رواه مسلم ، فإنه يوضح هذه الحقيقة

توضيحاً صريحاً، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال قال الله عز وجل : «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

ونحن نعلم أن المادة الكثيفة المكون بها الجسد الانساني في عالمنا هذا المادي ، لا نستطيع أن نرى بسببه الملائكة الكرام بأبصارنا ، إلا بتصريف إلهي ، كرؤية الأنبياء للملائكة . بخلاف تكويننا الجديد ، الذي نكون عليه في عالمنا الثاني ، فإنه لا يحول دون مشاهدة الملائكة الكرام،وسماع أصواتهم ، تأمل قوله تعالى :

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (١٣ ــ ٢٣ و ٢٤)

وقوله تعالى :

لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ هٰذا يَوْمُكُمُ الذي كُنْتُمْ تُوعَدونَ (١٢ ــ ١٠٣)

وعالم الآخرة لا يخالطه حزنٌ ولا نصب ولا تعب .

وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذي أَحَلَّنا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥ ــ ٣٤ و ٣٥)

وإذا أردنا أن نستقصي كل كائنات عالم النعيم ، وما هي عليه حقائقها التي لا مثيل لها في عالمنا هذا ، لطال بنا القول واستغرق مجلداً .

وعالم النعيم لا شمس فيه ولا حر ، ولا قمر فيه ولا بردٌ . وهذا صريحٌ في قوله تعالى :

وَجزَاهُمْ بِمَا صَبرُوا جَنَّةً وَحَريراً . مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً (٧٦ــ١٢ و١٣)

والزمهرير البرد ويطلق على القمر .

سطحية في النظر

تجد أشطار المثقفين والعامة ، الذين لا يعلمون ان سنن العوالم ، التي يتقلب فيها الانسان تختلف ، ألا ترى أن الإنسان في عالم الرحم يحيا حياة تختلف كل الاختلاف عن حياته في هذه الأرض ، وكذلك حياته في هذه الأرض ، تختلف عن حياته في عالم النعيم وعالم العذاب .

وكم من أسئلة ، ترد من أشطار المثقفين والعامة ، حول الحياة في عالم النعيم ، نستدل منها ، أنهم لم يطلعوا على نصوص الوحي اليقيني ، التي عينت الخلاف الأكيد بين العالمين ، وذكرنا جانباً منها هنا ، ولو أنهم اطلعوا أو علموا أو درسوا أو فهموا لما سألوا تلك الأسئلة السخيفة ، التي تدل على سوء فهمهم ، وشطرية علمهم ، وسذاجة تفكيرهم ، كأن تسمع من أحدهم يقول : إن حقائق العالم الثاني عند المسلمين فيه خمور ونساء وولدان كاللؤلؤ المنثور ، ولو علموا أن حقائق العالم الثاني هي واحدة ولا يمكن أن تختلف ، وانما الخلاف الذي نراه في نصوص الكتب الدينية منشأه اختلاف اللغات ووضع التأويلات واختلاف العقليات والبيئات

والثقافات ، من كل ذلك وجدت الخُلفة لا من نصوص وحي الله حاشا أن يكون بينها خلاف .

ومـا أدق نظر « غوستاف لوبون » المستشرق الافرنسي الذي يقول في كتابه « حضارة العرب » : إن عالم النعيم واحدٌ في كل الأديان ، وإنما العبارات التي تقربه إلى الأذهان هي التي تختلف مدلولاتها ، وسبب الاختلاف هو انك تستعمل ألفاظاً لأشياء وحقائق مختلفة عن حقائق عالمنا الزائل .

وكم أتمنى ، أن يفهم أشطـــار المثقفين ، الفهم الصحيح العلمي ، المقصود في وحي الله ، كما فهمه هذا المستشرق الكبير . وحسبنا أن نختم هذه الكلمة بالآية الكريمة التي مر ذكرها ، لتكون صفعة في وجه الذي يهرف بما لا يعرف :

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٢ ــ ١٧)

بيان عذاب الآخرة

سبق بحثُ عالمي النعيم والعذاب في العلم اليقيني .

وفي هذه الكلمة أبحثها من وجهةِ الوحي اليقيني ...

وظاهر أن النعيم والعذاب حقيقتان موجودتان في كل عالم مشتملٍ على كائنات حرة مختارة ، فيـــه الخير والشر ، والحق والباطل ، والايمـان والكفر .

ولكن عين هذا الواقع يختلف في كل عالمٍ عن العالم الآخر . لأن كل

عالم له خصائص تكوينية ، وكيفية كائناته وفق سننه وأسبابه ومناسباته .

والنصوص اليقينية التي وردت في عذاب الآخرة ، وأنه سوى عذاب الدنيا كثيرة جداً .

انظر مدلولات هذه الألفاظ : النار ، اللظى ، الجحيم ، السعير ، جهنم ، تجدها مخالفة لمدلولاتها المتواضع عليها لغة ، وهذا وحده برهان، أن عوالم الآخرة سوى عوالم الدنيا .

١ — استظهر الآيات الآتية وتعمق معناهما .تلمس المباينة ..

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً . إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها أَبداً وَكَانَ ذٰلِكَ عَلى اللهِ يَسِيراً (٤ — ١٦٨ و ١٦٩)

إِنَّ اللهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً . خَالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٣٣ — ٦٤ و ٦٥)

المباينة ظاهرة ، فالعذاب بالنار في الدنيا ، لا يستغرق سوى بضع دقائق ، حتى يقضى على المعذب .

أما عذاب النار في الآخرة ، فانه لا يقضى فيه على المعذبين بالموت .. وفي ذلك يقول الله عز وجل :

.. لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِها كَذٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٥ — ٣٦)

إذن فنار الآخرة ، وجحيمها ، وسعيرها ، ولظاها ، وجهنمها

أبدية ولا تميت ، لأن حقيقتي النارين مختلفتان .

أوقد شعلة الفكر ، وتعمق مدلول الآية الآتية تُبصر صورة أخرى من صور المباينة بين عذاب عالمي الدنيا والآخرة .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ (٤ ــ ٥٦)

٢ ــ وما دام أهلُ نار الآخرة يعيشون فيها ، ولا يموتون ، فلا بد من الطعام والشراب ، لأن الحياة الجسديــة تقتضي ذلك ، وفي الوقت نفسه يكون طعامهم وشرابهم لوناً من ألوان العذاب .

أتل الآيات الآتية يتضح لك ذلك :

إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ العَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ المِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ اليَومَ هٰهُنا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخَاطِئُونَ (٦٩ ــ ٣٧)

وَاسْتَفْتَحوا وَخاب كُلُّ جَبّارٍ عَنيدٍ (١٥)

مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦)

يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيأْتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٤ ــ ١٧)

٣ ــ وكم تكون حسرات ظمأ أهل النار إلى الماء الذي يستمتع بــه أهل الجنة ويفيض عليهم أنهاراً تجري ، إنها شعلات من الندم والتمني ، تحس ذلك في ندائهم الموجع :

وَنَادَى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضوا عَلَيْنا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلى الكَافِرِينَ (٧ ــ ٥٠)

والآن يستطيع الدارسون أن يتبينوا من نصوص الوحي اليقينية التي أدليت بها ، أن عذاب الآخرة غير عذاب الدنيا من كل وجه .

وفي ذلك كفاية لأهل الايمان ، ولا حاجة بهم إلى ادخال التأويلات الفلسفية ، ولا إلى الآراء الشاطحة . التي تبعد عن حقائق مدلولات الآيات الكريمة .

والذين يلجأون إلى التأويلات الفلسفية ، أو إلى الآراء الشاطحة ، الأسطورية ، هم جماعة يحسبون أن سنن عوالم الآخرة ، هي نفس سنن عوالم الدنيا ، ولو علموا يقيناً أنها سواها ، لما سمعت منهم من يقول : إن هذه النصوص ، يقصد منها الارهاب فقط ، لكي يتجنب الأشرار ارتكاب الشرور ، والمنحرفون الزيغ والافساد .

ولا سمعت من يقول ، إن عذاب الآخرة كعذاب الجرب الذي يجعل صاحبه يمزق جلده بأظافره ، ويسيل منه الدم ، وهو ملتذ بذلك .

أقوال مؤولى نصوص عذاب الآخرة

عرفنا من نصوص وحي الله اليقيني التي سبقت ، أن عذاب الآخرة غير عذاب الدنيا من كل الأوجه ...

وعرفنا أن مدلولاتها صريحة جداً ، ومعلنة أن المغايرة مدعمة بأصح البراهين وزيادة ..

وهذه المغايرة القطعية ، تجعل كل أقاويل المبطلين ، وسخافاتهم عن

الآخرة ساقطةً من نفسها ، وتجعل مدلولات نصوصها القطعيــة ، غير مفتقرةٍ إلى التأويلات الفلسفية ، من جهة أناسٍ ، لما يدخل الايمان في قلوبهم ... بل ظل عالقــاً بعقولهم ، وموزوناً بموازين علوم الكون ، وجهلوا أن المكتشف من علوم الكون قليل قليل .

والعلم القليل محال أن يزن الحقائق الصحيحة عن عوالم الكون ، ويكشف أعيانها لطالبي يقين المعرفة .

ألا تجد كل تأويلاتهم الفاسفية مبنيــة على اعتبار ، أن سنن عوالم الآخرة وتكوينها ، كسنن كرتنا الأرضية وتكوينها ..

فكل تأويلاتهم مبنيـــة على هذا الاعتبـــار ، أنظر مثلاً كيف أوّلوا قوله تعالى :

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٧٥ ــ ٢٢ و ٢٣)

أي إلى نعيم ربها ، محكمين سنن هذا العالم على سنن عالم الآخرة ، قائلين الرؤيا تقتضي الحصر في مكان المواجهة والبداية والنهايــة . وكل ذلك يستحيل على الذات الإلهية الموجدة كل العوالم ، والمحيطة بها .

ولو علموا أن العالمين مختلفـــان في حقائقهما ، لأدركوا أن تـأويلهم لا لزوم له على جميع الاحتمالات .

وهذا شأن تآويل النصوص القطعية كافــة ، وشُبهتها كشبهة القصة المنسوبة إلى جحا ، أنـه زرع قرون خراف في قطعة أرض بور لـه ، لتنبت خرافاً ، ذلك لأنه رأى أناساً ، يزرعون عيدان كرمــة لتخرج كروماً . ولم يفطن إلى ما بينهما من خلاف وتباين . وهذه القصة الموضوعة تكشف الفارق الكبير ما بين قرون الخراف وعيدان الكروم المشتملة على سر الحياة النباتية .

يا غُفَّل : تفكروا إن كنتم من أهل الفكر ، واعلموا إن كنتم من أهل العلم هذا القمر وما بيننا وبينه من بُعد إلا ما بين الأذن والأنف ، ومع ذلك فان نواميسه تخالف نواميس أرضنا كل المخالفة .

حتى إن الانسان ، لما اراد أن يصعد اليه ، أعد لنفسه كل الوسائل العلمية التي تجعلها توائم سننه ، لكي يستطيع البقاء على ظهره حياً .

ومن أجل ذلك ، أفهمنا الله في آيات وحيه اليقيني عن عالمي النعيم والعذاب ، أن لها تكوينها الخاص بهما ، وان اعادة خلق الانسان سيكون على كيفيات وسنن صالحة لحياة الانسان فيهما .

فهل يتخيل هؤلاء المغرورون بمعارف العصر ، أن الانسان يعلم ما لا يعلمه الله مكوّن الأكوان والمقدر لها نواميسها ، ويلٌ لهم .

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (٦٧ ــ ١٤)

وهل استبعد أهل الجاهلية الأولى ، المكابرون المجادلون انتقال البشرية الى عالمي النعيم والعذاب ، إلا لأن هذه الحقائق العلمية كانت مجهولة لهم ، فأخذوا بظنونهم وأساطيرهم :

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٤٥ ــ ٢٤)

أجل لو كان مشركو الجاهلية ، الكافرون بنشأة الحياة الثانية ، على إلمـام بعلوم الطبيعة ، المكتشفة في عصرنا ، وطفقوا يتفكرون في نظام تكوينهم الموائم لنواميس نشأتهم عـلى ظهر الكرة الأرضية ، لعلموا بالضرورة أنّ نشأتهم الثانية في العالم الثاني ستتم على تكوين مناسب لسننه المخصصة لبقائهم الأبدي فيه .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرونَ (٥٦ ـ ٦٢)

إذن فما تسمع من شبهات أشطار المثقفين هؤلاء وتأويلاتهم وتفسيراتهم التي لا تمت الى حقائق العلم بصلة ، هي ساقطة من نفسها .

ألا تسمع أقوالهم .. إسمع واضحك :

١ ـ « إن كان السمك في البحر ، يتألم من وجوده في الماء ، يتألم المجرمون من وجودهم في النار » .

٢ ـ « لن يحس أهل جهنم بنارها ، إلا ما يحسه الأجرب ، حين يحك جلده بأظافره وينهشها نهشاً ، ودماؤه تسيل ، وهو متلذذ بذلك . »

٣ ـ « إن المادة تغطي الطاقة الروحية في جسد الانسان في الدنيا ، وفي الآخرة الطاقة الروحية تغطي جسد الانسان ، وحقائق الطاقة الروحية سوى حقائق الجسد المادي ... »

٤ ـ « إن حياة العالم الثاني حياة روحية صرفة ، ولا بعث ولا حشر لمادة الجسد . »

هذه الكلمات وأمثالها تسمعها من أشطار المثقفين ، أو من غير المؤمنين بالوحي الإلهي ، أو تسمعها من المستغرقين في نزف دمائهم بشهواتهم ، ولا يصبحون ولا يمسون إلا في رموس حاناتها ومواخيرها ..

أو تسمعها من المنافقين الملاحدة ، الذين لا ضمير لهم ولا ذمام ولا انسانية ولا كرامة .

ومهما يكن فنصوص وحي الله اليقيني ، تطرح كلماتهم المهلهلة بالظنون والأوهام ، تحت نعال العلماء ، تطرحها بأصلين أساسين : الوحي ، والعلم .

١ ــ الوحي يدل أن عوالم الآخرة سوى عوالم الدنيا ، في تكوينها ومواطنها وسننها فقياس عوالم الدنيا عليها رعونة وجهل ، وقد مر توضيح ذلك .

٢ ــ العلم أثبت أن عوالم الفضاء هائلة جداً ، وكثيرة ومختفية في أبعاده ، ولا يعلم نهايتها وإحصاءها إلا الذي خلقها .

ونفي وجود عوالم الآخرة ان تكون وراء أبعادها شراسة من الظلم ، وانتكاس من التخلف ، وعتو من الكفر ، بما أوحى الله جلّ وعزّ .

كما أن طلب معرفة كنه عوالم الآخرة ، سذاجة ما بعدها سذاجة ، ونفاق ، ولا نفاق أخبث منه .

اعلموا أننا نعيش الآن في هذه الأرض ، ونحن نجهل كنه ما هو ماثل بين أيدينا من عوالم الطاقات ، كالجاذبية ، ونجهل ما هو قريب منها من عوالم المجرة ، التي منها مجموعتنا الشمسية .

ولا ندري عن كنه عناصرها المكونة منها إلا القليل القليل .

وإذا كان المريخ ، وهو قريب من الأرض كما نعلم ، ومع ذلك يُعلن العلماء ، الذين يطوفون حوله بصواريخهم ، أنهم يجهلون إن كان مشتملاً على حياة جسدية مادية أم لا .

فما بالك بعوالم الآخرة، التي هي في أبعد أبعاد الفضاء،أي وراء عوالم الكواكب والسموات السبع .

لذلك يجب علينا أن نقف تجاه نصوص وحي الله اليقينية بكل أدب وخشوع ، وأن نتقيد بما تحمله من معانٍ صريحة ومدلولات أكيدة ، لا لُبس فيها ولا إبهام ، مفوضين الأمرَ إليه جلّ وعزّ ، فهو أعلم بما خلق ويخلق ، وكيف ينعم من يستحق التنعيم ؟!! ويعذب من يستحق التعذيب ؟!!

أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ (٦٧ ــ ١٤)

البعث

بعض الناس :

يعيشون في هـــذا العالم ، ويشاهدون عجـائب التكوين والأكوان ، وغرائب الخلق والمخلوقات ، ومدهشات الوجود والموجودات ، ويزدادون من يوم إلى يوم معرفةً بها ، بوسائل صواريخهم ، ومحطاتهم الفضائية ، ومراصدهم ومراقبهم ، ومختبراتهم .

أجل يزدادون معرفة بها حتى يلمسوا بحواسهم الخمس ، آيات مكون الأكوان الناطقة في كل ذرة من ذراته ، وفي كل خلية من خلياته بجلاله وكبير قدرته ، ويتحتم وجوده في نفوسهم جل وعز ، ويلمسون أنــه أبدع الأكوان بعــد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، وهؤلاء سوى الذيــن يجحدون بـالله كل الجحود وينسبون عجـائب خلق الوجود إلى الصدفـة والطبيعة .

ولكن ذلك البعض المؤمن أيضاً لا يؤمنون بقدرته تعالى ، على إعادة تكوين الخلق بعد انتهائه من هذه الحياة ، وعدم ايمانهم ناجمٌ عن أمورٍ أساسية هي ...

الأمر الأول : هزال الايمان

إن ايمانهم بالله الخالق العظيم ، لم يبلغ في عقولهم المستوى الذي هو عليه جل وعز ، من جليل الصفات ، وكبير الاقتدار ، ونفوذ الارادة، وواسع العلم الشامل ، لكل ما كان ويكون ، إلى أبد الآبدين . بل إن أحاسيس ايمانهم بالله الخالق العظيم ، لا تزال في دور الطفولة الحسية ، الملونة بألوان الاشراك ، والموبوءة بأوبئة الوثنية . من أجل ذلك تجد الخالق العظيم صغيراً في ايمانهم إلى النهاية ، حتى تصوروه طاقة روحية حالة في وثنٍ ، أو بقرة ، أو شمسٍ ، أو قمرٍ وهلم جرا ..

ومن كان هذا علم عقيدتهم بالله الخالق العظيم ، فكيف تصدق عقولهم ، أو تطمئن قلوبهم ، أنه يستطيع أن يعيد خلق السموات والأرض ، وأن يعيد خلقهم بعد أن ينتهي أجلهم ، وتبلى أجسادهم ، وينقلهم إلى عوالم أخرى كونها للأبد لا للزوال ، كعوالمنا هذه ...

أجل محال أن تصدق عقولهم ، أو تطمئن قلوبهم أن آلهتهم التي عبدوها في جرم الشمس ، أو الكواكب ، أو الحيوانات ، أو الأحجار ... وتخيلوها طاقات روحية أزلية تحل في ذات الجرم المؤله المعبود لهم .. تستطيع مجتمعة أو متفرقة ، اعادة تكوين الانسان والسموات والأرض ، وتبدلها تبديلاً رائعاً جديداً ، بعد تداعيها وتصدعها ..

فمن تخيلهم هذا الطفلي الصغير ، لله الخالق العظيم ، انطلق كفرهم بعوالم الآخرة ، وجحدوا قدرته ، على اعادة خلق الانسان بعد فنائه .

فإن أردنا أن يعلموا واقع النشأة الأخرى ، ويؤمنوا بها ايماناً صحيحاً ناجماً عن علم يقيني ، فأول ما يجدر بنا ، أن نصلح لهم عقيدتهم بالله الخالق العظيم .

وإصلاحها يكون ببيان ما يجب له تعالى ، من كبير الصفات ، التي

تليق بجلاله ، وببيان ما يستحيل عليه من حقير الصفات ، التي لا تليق بجلاله ، وكبير سلطانـــه ، وحينئذ يفهمون قول الله عزّ وجلّ ، في حقيقة البعث :

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

(٣١ ــ ٢٨)

ويفهمون قوله تعالى :

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)

فَسُبْحَانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

(٣٦ ــ ٨٣)

فعقيدته المضطربة ، في الله الخالق العظيم ، هي من أسباب جحودهم ، لحقيقة العالم الثاني ، وبعثهم إليه .

وبالحري بعد أن تثقفوا بالعلوم الحديثة ، التثقيف المدخول ، الشطري المجافي للايمان بالله الخالق العظيم .

ولو أنهم تثقفوا الثقافة الكاملة ، التي تجعلهم يميزون بين يقين العلم ، وبين ظنونه وأوهامه ، لما جحدوا بتاتاً ، ولكن يصدق عليهم قول الله عزّ وجلّ :

ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٥٣ ــ ٣٠)

الأمر الثاني : قلة العلم

إن معارف العلماء الماديين ، المحيطة بحقائق العوالم ، المترامية خلف المجرات والسموات وسواها ظنية فرضية ، ولم تبلغ درجة اليقين العلمي الصحيح ، بل هي غارقة في وحول الظن المحقق الشامل لعوالم المجرات ذاتها ، التي كثر الحديث عنها . بعد إقامة المحطات المختلفة . في أبعاد الأجواء ، ومواصلة رواد الفضاء لرحلاتهم الى القمر وسواه من الكواكب القريبة لأرضنا .

إذن فما وصلنا إليه من معارف الكائنات المادية ، التي لا تزال وراء أبعاد الفضاء . هي بمثابة خيط دقيق ينفذ من كوة ضيقة جداً ، الى أهل سجن مظلم ولدوا فيه ونشأوا فيه ولا يعلمون عن الوجود شيئاً .

فمثل هذا الخيط الدقيق من أشعة الشمس محال أن يعطيهم معرفة يقينية قاطعة . هي المجموعة الشمسية ، وعن كل ما للشمس من أشعة ، وعن العوالم التي تتصل بها ، وتفيد منها ، كالحياة على أرضنا ، ماءها ، وهواءها . وحيوانها . ونباتها .

وهذا شأن علمهم بالنسبة لعلوم الأكوان المختفية وراء أبعاد الوجود ، فما علمهم منها — إن هو إلا خيط ضئيل جداً — من العلم ، لا يجعلهم قادرين أن يتصوروا ، إمكان خلق البشر نزلة أخرى ، ونقلهم الى عوالم معدة في هذا الفضاء لهذا الغرض ..

وكيف يقدرون أن يتصوروا تحقيق ذلك ، والوجود كل الوجود في نظرهم هو ما يشاهدونه من الشمس والقمر ، وهذه النجوم المتناثرة حولها..

وما يتجلى من المراصد الفلكية ، أو من محطات الفضاء .

فهذه المعارف المحدودة بالنسبة لعوالم الفضاء الهائلة لا تجعل المطلع

عليها يدرك : أن ثمـة عوالم معدة لحياة إنسانية أخرى ، فالعلم القليل لا يكشف الحقيقة أبداً ، وهذا مصداق قوله تعالى :

يَعْلَمونَ ظَاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنيا وَهُمْ عَنِ الآخِرةِ هُمْ غَافِلونَ .

الأمر الثالث : جهل بوجود الروح

اعتقادهم الوهمي أن الإنسان كالشجرة ، إذا مات ، مات معه كل شيء يمكن أن يستعيد به الحياة ...

... فكما أن ذرات عناصر الجسد تتفكك وتتلاشى في عناصر الأرض، وتنتقلُ إلى كائنات أخرى – حيوانيـة أو نباتية أو سواهـا . فكذلك طاقة الروح التي عليها قوام الجسد وحياته ، تتبدد هي الأخرى وتتلاشى حتى لا يبقى لها بقية تؤذن بإعادة خلق الانسان مرة ثانية .

* هذا الاعتقاد الوهمي المبني على نفي بقاء الطاقـة الروحية للانسان بعد مفارقة الجسد .

* وعلى نفي بقاء ذرة الحياة المستكنة في خلية عجب الذنب .

* هذا الاعتقاد هو الذي جعلهم يجحدون البعث إلى العـالم الثاني . بعد نهاية هذا العالم .

ولو علموا أن ذرة الحياة المستكنـة في عجب الذنب لا تفنى فيهـا الحياة ، وإن فنيت كل خلايا الجسد بعد الموت !!

ولو علموا أن سكون الحياة في ذرة نواة الخلية وهمودها فيهـا حقباً طويلـة ، مشاهد في الأمكنة ، التي انحسر عنهـا الجليد ، وانبثق في أتربتها الأحياء الحيوانية والنباتية ، لمـا حشرجت في أنفسهم صور بعث الخلائق إلى درجة الجحود .

• ولماذا نذهب إلى ملايين الملايين مـــن الحقب ، ونحن نشاهد بين أيدينا كثيراً من الأحياء الحيوانية والنباتية ، تموت في فصل الشتاء ، فاذا انتهى ، وتنسم الربيع ، تنسمت معـــه تلك الأحياء الهامدة نسمات عودة الحياة اليها . وفي دودة القز التي تستعيد الحياة من بقاياها ، بعد همودها مثل مشاهد لنا .

• ألا يكفي كل ذلك ، لنعلم أن ذرة الحياة ، المستكنة في خليـــة نواة عجب الذنب ، تظل هامـــدة ، حتى يأتي ربيعها في الأرض التي يعدها الخالق العظيم للحياة الثانية،ومن هذا البيان نفهم سر قوله تعالى :

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٧ ــ ٢٥)

وهذه الحياة ، كشفها لنا خاتم رسل الله ﷺ في قولـــه كما رواه للنسائي : « كل بني آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذنب منه خلق وفيه يركب » .

أجل إن الجسد الإنساني كـــله يتبدد ويفنى ، وتظل ذرة الحياة في خليتها هامدة في عجب الذنب ، لا تكاد ترى لصغرها ، ولدى البعث تستجد فيها الحياة ويعود الجسد الإنساني إلى شأنه أول مرة ، حتى الغافة المزالة بالطهور تعود إليه ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم :

« يحشر الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق ، وبلـــغ شحوم الآذان . فقالت السيدة عائشة أو يبصر بعضنا بعضاً قـــال : قد شُغل الناس لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وأما بعد مفارقة الروح للجسد ، فإنها تنتقل إلى عالم الأرواح ، وتظل هناك الى يوم البعث الموقوت ، فإنها تعود إلى جسدها بالذات ، بعـــد

نباته في « الساهرة » أي أرض البعث التي تبدل بهـــا هذه الأرض .
وتجمع فيها كل ذرات أجساد الأموات وتظل هامدة حتى تحيي حياتهـــا
النباتية وتعود اليها أرواحها الخاصة .

وبقاء الأرواح الثابت في علم الأرواح الحديث إن لم يكن للبعث ،
فإنه يكون ضرباً من العبث ، وخلق الأكوان يدل يقيناً ، أنه لا عبث
فيه ، فالجهل بكل ذلك هو من أسباب جحود خلود الأرواح والبعث
إلى العالم الثاني ، وهذا الذي جعلهم يحسبون انهم خلقوا عبثاً لا بقاء لهم
ولا غاية من وجودهم وفي ذلك ورد النص الكريم :

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَــا خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعونَ .
(٢٣ ــ ١٢٥)

الأمر الرابع : اختلاط الأمر عليهم بفصل العلوم عن الفلسفة

لا ريب أن اهتمام العلماء ونشاطهم ، في مواصلـــة فصل العلوم عن
الفلسفة وفروضها وظنونها . قد أدى بأشطار المثقفين ، وأغبياء المطالعين ،
إلى الاعتقاد ، بـــأن علم الأرواح خارج عن نطاق العلوم التي انفصلت
عن الفلسفة ، أو التي يعمل العلماء نفصلها ، لذلك جحدوا علم الأرواح
وعوالم البعث كل الجحود ، جاهلين أن علومـاً كثيرة ستكتشف وتفصل
عن الفلسفة ، لأن هذا الوجود وما يشتملُ عليـــه من كائنات ، ليس
هو فقط هذه العناصر المكونة من الذرات المادية ، وما اكتشف منها من
علوم ، بل هناك علوم كثيرة ستكتشف ، من الطاقات العاقلة وسواهـا
لا تزال في بداية البحث .

إذن فقول أشطار المثقفين ومـــن هم دونهم مـن المطالعين : « إن

علم الطاقات الروحية العاقلة ، لا يزال في نطاق الفلسفة ، ولمـا ينفصل عنها ، حتى يكون علماً موثوقاً بـه » . هو قولٌ هراء باعثه سطحية المعرفة . والواقع أن هناك علماء يجمعون مسائل حقائق الروح ، ويعملون على فصلها عن الفلسفة ، على أن كل عالم بعلم ما ، ومتخصصٍ فيه ، إذا سألته عن مسائل علم مـن العلوم التي لم يطلع عليها ، قال لك : « لا أدري » . وهو لا يقصد بذلك جحوده ونفيه ، وإنما يقصد أنه هو لم يحط به علماً ..

ولعل منكري علم الأرواح هؤلاء ، رأوا علماء الفيزيـاء ، أو علماء النفس ، لا يتحدثون عن مسائل علم الأرواح ، وإذا سألوهم عنها قالوا لهم : « لا ندري » . فتخيلوا ذلك منهم نفياً لعلم الأرواح ، وما هو إلا انصاف لواقع العلم اليقيني الذي يجهلونه .

ومن أجل ذلك قال القدماء : « نصف العلم لا أدري » ،على أن سؤالهم لعلماء الكيمياء أو الفيزيـاء عن حقائق الروح هـو جهل محض ، إذ لا ينبغي أن يُسأل صاحب علم إلا عن عامه المتخصص فيـه والمذكور به بين الناس .

لذلك ، إذا سألت عالماً عن علم غير متخصص فيـه ، قال لك : لا أدري .

* وهذا عين يقين العلم ، لأنـا إذا نظرنا إلى علوم الوجـود التي لا تزال مختفية في مجاهل أبعاد الكائنات ، وما علمه الانسان منهـا ، لا تزيد عن شطر الواحد مـن المليار ، فتكون – لا أدري – هي كل العلم إلا النزر القليل المتكشف .

وإذا كنا نحن سكان هذه الكرة الأرضية ، قد امتلأت مكتباتنا العامة والخاصة بآلاف آلاف المجلدات ، وكل هذه المجلدات ، لما تستوعب الواحد من المليار .

فكيف يكون من يقين العلم نفي هؤلاء الأطفال الحمقى لعوالم الآخرة وحشر البشر اليها .

من هذا البيان الموجز ، تدرك أن كلمة لا أدري ، التي ينطق بها علماء الطبيعة ، أو علماء النفس ، إذا سألتهم عن مسائل علم الروح الناشيء ، لا يقصدون بها جحودها علمياً ، هذا هو الحق ، وهل بعد الحق إلا الضلال ؟ على أن البحث عن حقيقة كنه الروح غير مستطاع ككل الطاقات ، لذلك كان حديث علم الأرواح عن مظاهرها وآثارها فقط .

الأمر الخامس : تظاهر اشطار المثقفين بعمق العلم

من أسباب الكفر بالله واليوم الآخر ، هو حب صغار المثقفين أن يظهروا بمظهر التعمق في العلم والتفوق في الأدب ، وإلى جانب ذلك ، يزعمون التفكير الحر المنطلق الذي يرفض الاذعان لأساطير الأجيال المتخلفة .

وحب الظهور بالتفوق العلمي الكبير ، والزعم بالعبقرية الأدبية المجددة ليس له من برهان يدلون به تجاه أترابهم وفي الأندية إلا أن يسخروا بالايمان بالله واليوم الآخر ، والحط من قدر فحول العلماء والأدباء .

فهذا التظاهر الغبي الأحمق الهازىء هو كل برهانهم الذي يملكونه ، وليس لهم من برهان سواه .

الأمر السادس : عدم ايمانهم بالله الخالق العظيم جل جلاله

* لن يجتمع إلحاد بالله جلّ وعزّ ، وإيمان باليوم الآخر ، في نفس واحدة .

ه لذلك تجد الإلحـــاد بالله الخالق العظيم هـــو سبب رئيسي للكفر باليوم الآخر .

لأن الذي لا يؤمن بالله الخالق العظيم ، فكيف يؤمن باحياء الموتى ، وانتقـالهم إلى عوالم الآخرة ، وكـل ذلك لا يتم إلا بقدرة الله وعلمـه وارادته .

اذن فلا تنتظر من ملحد بالله . ايماناً باليوم الآخر ...

الأمر السابع : جهلهم بتأجيل عذاب الكفر

هو نسيانهم أن الله يمهل ولا يهمل ، وهذا النسيان هـو الذي جعل جحودهم بالله واليوم الآخر يتفاقم يوماً فيوماً . وجعلهم يقولون لو أن الله موجود حقـــاً وقادرٌ حقاً ، هذه القدرة التي تتحدث عنهـــا كتب الأديان ، وأن علمه شاملٌ لما كان ويكون أزلاً وأبداً لعاقبنا على جحودنا للبعث والسخرية به .

أجل هذا النسيان ، هو الذي جعلهم يجرؤون على مثل هاتيك الأقوال الجاحدة وارتكاب الفواحش في السر والعلانية .

والحق أن مصدر هذا النسيان ، هو الجهل المطبق ، بحقائق العـــلم والوحي القطعيين معاً .

لأن العلم القطعي الكوني ، لا يتغير إلا بقدرة خالقه جـلّ وعزّ ، سواء آمن أهل السموات والأرض أو كفروا ، وقد أكّد ذاك الوحي اليقيني ، إذ يقول الله عز وجل ، في جزاء الكافرين :

فَهَلْ يَنظُرونَ إِلَّا سُنَّةَ الأَوَّلينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْديلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْويلاً (٢٥ ـــ ٤٣)

وهل سنة الأولين إلا عدم إهمال المؤاخذة مهما طال الأمد .

فالملحدون مهما ألحدوا ، والفاجرون مهما فجروا ، فإن ذلك لا يُعد إهمالاً من الله لهم ، إن أرخى لهم الأرسان ، بل هو إمهال مـــن الله لهم ، إذ يقول الله عز وجل :

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبوا مَا تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِـــنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبادِهِ بَصيراً (٣٥ ـــ ٤٥)

ولو عجل الله العذاب لهم لما كان أي معنى لحرية الإرادة ، وهــذا صريح في قوله تعالى :

قُلْ إِنّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَا عِنْدي ما تَسْتَعْجِلونَ بِهِ ، إِنِ الحُكْمُ إِلَّا لِلهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدي مَا تَسْتَعْجِلونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمينَ (٦ ـــ ٥٨)

اذن فالجهل والسطحية والغبـــاوة ، هي التي تجعلهم يقولون : هؤلاء العصاة ، يعصون ويفجرون وهم سالمون ، ما أجهلهم وما أغباهم بمـــا

ذكر هنا وما لم يذكر كثير وكثير ، وفي النهاية ما أبعدهم عن معرفة يقين العلم والوحي معاً .

هذه الأمور السبعة هي التي ركّزت جحود البعث لدى اشطار المثقفين، ولدى فئة من شبان العامة ، وجعلتهم إذا ذكر لديهم الإيمان بالله واليوم الآخر صفّروا وصفقوا ، وهذا التصفير والتصفيق ليس مصدره العلم اليقيني والبراهين القطعية كما رأيت ، بل مصدره قلة العلم لدى فئة ، والجهل المطبق لدى آخرين .

ثمرة الإيمان بالله واليوم الاخر

تعلو الثمرة بعلو قيمتها الغذائية ، ولا ثمرة أعلى قيمة من ثمرة الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر .

وما كلُّ إيمان يثمر ثمرات الأمجاد العالية الخالدة .

وإنما يثمرها الإيمان العملي المسيطر على المجموعة النفسية ، المدعـــمُ بالعقـــل والعلم ، يثمرها في سمو الحضارة الصاعدة ، وفي سعادة الحرية الغالية وفي عزة الخلق الكريم ، وفي التفوق العلمي الكبير .

أجل إن هذا الإيمان العملي المثالي ، إذا تحقق في الالتزام بمثُل وحي الله العليا المنزلة على خاتم رسل الله ﷺ دون مـا تفريط أو تساهل أو مخالفة أو زيادة أو نقصان ، فإنه يعطيك أمجاد الخلود ، وسمو المكانة ، وصفاء السريرة ، ودماثة الخلق ، واكتشاف المعارف ، وتجدد الآداب والصنائع ، وثقة الناس الغالية .

حسبه أن يعطيك صدق الإقتداء برسول الإنسانيـــة الأكبر وخاتمها ، فيربط مسيرة حياتك بمسيرة حياته ، فتكون في الدنيا عجباً ، وفي الآخرة أعجب .

ولمَ لا تكون كذلك ؟!! وقد أوثقت أعمالك بأفق الأمجاد الأعلى ،

وشموخ صروحه الخالدة ، وعزمات همه النافذة ، التي مجّدها (حسان ابن ثابت) عن عيانٍ بقوله فيه ﷺ :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجلّ من الدهر

اذن فأمجاد المؤمن العملي الصادق ستكون حتماً قبساً من أمجاد رسول الله ﷺ ومن كبار همه وسمو شمائله .

وكم من شرف ، وجلال ، وخلود ، ورفعة ، في صدق هـذا الإيمان ، برسول الانسانية الأكبر ، وما أنزل عليه من وحي معجز متحد .

فإن رأيت جاهلاً أو غبياً أو واهن الخلق حقير الآمال محروماً لا يحسن النطق الصحيح ، ولا يستطيع أن يحقق للإنسانية ولأمته وللغته مجداً مـن أمجاد العلم والقلم والحضارة فاعلم أنه واهن الإيمان برسالة الأسوة الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، محروم من الإستمساك الجدي بروح ما أوحى الله عليه من وحي .

أما ثمرة الإيمان بخلود الأرواح ، وبعثها ليوم الحساب ، الذي لا يغادر صغيرة أو كبيرة من خير أو من شر ، إلا وهي محصية فيه ، ولهـا موازينها ، ولها مثوباتها وعقوبتها :

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَـنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ (٩٩ ــ ٧ و ٨)

فإنهـا شعل من الإرادات المؤمنة بتحقيق الخير والهدى والاستقامة في الأرض ، وإنها تمام لمكارم الأخلاق ، وتحقيق التضحيات في سبيل الأعمال البارّة الشريفة .

وهي وقاية أكيدة من الخيانة ، ولغو التول ، وقتل الوقت في الفسوق

والعصيان ، ورفعة عن الانحطاط والتواكل ..

وأنت تستطيع أن تأمن المؤمنين العمليين الصادقين بالله ووحيه ورسله واليوم الآخر .. باطمئنان وأمان على مالك ونفسك وأهلك ووطنك وأمتك، ولكنك لا تستطيع أن تأمن الجاحدين ، أو ضعفاء الإيمان ، المستهترين بكل ذلك ، لأنهم يستبيحون حرمات الإيمان ، ويخونون حفظ شريعة البلاد ، ويسلبون وينهبون ، ويرون ذلك ذكاء ووعياً وعبقرية ، وانتهازاً للفرص ، وانفلاتاً من ربقة الحرمان . وقبل نهاية هذه الكلمة أود أن تدمن نظرك وذاكرتك في قوله تعالى :

لا خَيْرَ في كَثيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ ، إلَّا مَنْ أَمرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْروفٍ أَوْ إصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ٱبْتِغاء مَرْضَاةِ اللهِ ، فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجراً عَظيماً

وفي قوله تعالى :

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً . الَّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَياةِ الدُّنيا وَهُمْ يَحْسَبونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنونَ صُنْعاً . أُولٰئِكَ الَّذينَ كَفَروا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلَا نُقيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَزْناً (١٨ ــ ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٥)

المَوضُوع الثَاني

سُبُل لِفهْم سُورَة يَاسِين

الأعلام والصوى

إذا كنت تطلب مدينةً أو عاصمةً لأول مرة ... لكي تستمتع بمـا تشتمل عليه من جامعات كبرى ، ومكاتب عامة ، ومستشفيات راقية، وحدائق غنّاء ، وميادين فسيحة ، وشوارع واسعة ، ومتاجر أنيقـة ، وزينات ومباهج وأفراح ، وأمن ضافٍ ، وخير عميم .

... ولكي تستأنس بأهلها ، وبما يتمتعون به من غزارة في المعرفة ، وفصاحة في اللسان ، وسمو في الخلق ، واستقامة في الدين ، وصدق في المعاملة ، ونبالة في الأصل ، وحرية في العقيدة ، وتسامح في مبادلـة الرأي ، وكرم في الطبع ، ولطفٍ في العشرة ، فتعرَّف أولاً إلى أعلامها الهادية ، وصُواها المنصوبة في طريقها المستقيم .

ومن لم يسترشد بأعلامها وصواها ، فانـه لن يهتدي منها أبداً إلى عين ما يطلب ... بل يضلُّ في شُعب الطرق ، وفي مهاوي الأودية ، وفي متاهات الفيافي .

هذا الضلال هو الواقع المشاهد في مواريث البشر العقائدية ، وتقاليدها وأسفارها وتواريخها وآدابها إلا ما ندر .

ومن أجل تحرير المعرفـة الانسانية ، مـن زيوف المواريث ، ومـن

دسائس رزاياها، ومن خبائث مزاعمها الملفقة ... يؤلف المؤلفون المتعمقون. ويكتب الكاتبون الأصحاء ، ويحاضر المحاضرون الانسانيون .

ومؤلفي هذا أعددتــه بوسع معارف العصر ، لكي يلمس المطالعون المثقفون المثل العليا ، والمعجزات المتحدية ، التي تضمها بين جانحتيهـا سورة ياسين ... وتحدوهم اليها ريادة الفكر ، ومسيرةُ العلم ... يالله ، ما أجلها .. إنها مدينة الأسرار والعجائب ، مدينة المعجزات .

المدينة التي يرتادُها الرواد العلماء الراسخون آلاف المرات على تداول الأجيال .. وهي لم تزل بكراً في معالمها وآثارها ومقدساتها ، وأعرافها .. وبكراً في ذخائرها وكنوزها ، وحرماتها وأدلائهـا ، بكراً في أسرارها وأنوارهـا ومحاريبها ، تلك هي مدينة سورة ياسين ، ومن أجل إرشاد المتشوفين إلى الطريق الحق المستقيم المفضي اليها .

ومن أجل افساح المجال ، لاستمتاعهم بما تحويه من جمال ، وكمال ، ومعارف صاعدة ، وتوجيهات عاليـة فذة ، وحقائق يقينية كونيـة ، أقمت لهم المعـالم المرقومـة ، والصوى المنيرة الكاشفـة لوصولهم اليهـا بسلام ، وليفيدوا من التعمق في فهم موضوعاتها ، وادمـان النظر في تأويل آياتها .

ولا ريب أن الذي يقبل لكشف كنوزها ، وما أكثرها ، وخفايـا معجزاتها ، وما أجلّها ، فانه يلمس السماء أمواجـاً من النور ، ويجد الحقائق ماثلة بين يديه ، وناطقةً بجلائل المعجزات ، وما بينه وبينها من حجاب ، كما يصبح منارة خيرٍ وهداية ، وقمـة حق وعلم ، وصرح سعادةٍ ، ومودة ، واخلاصٍ للناس جميعاً .

والآن يسعدني أن أقدم جانباً من المعالم والصوى التي تكشف جانبـاً من معجزات سورة ياسين .

وقد تعمدت أن أسهب القول ، عن حقـــائق العالم الثاني ، وخلود الأرواح للبعث ، لأني رأيت الآيات وفيرة جـداً ، حول هذا الموضوع في (القرآن المجيد) ووفرتها تدل بيقين ، أن الله عزّ وجلّ ، ما أكثر من ذكرها في خاتم كتب السماء (القرآن المجيد) ، إلا لمجيء أزمان ، ينصرف فيه الناس ، إمـــا عن الاهتمام بأمرها ، إذا كانوا مـن ضعفاء الايمان المنافقين ، وإما لجحودها ، اذا كانوا من الجاحدين الملحدين ، ظناً منهم أن الايمان بها يصرفهم عن عمار الأرض ، والصعود بالمعارف الانسانية ، إلى نهاية مثلها العليا .

وها نحن ذا ، وصلنا إلى هذا الزمـــان ، ولمسنا اعجاز القرآن ملء عقولنا وقلوبنا ، وبالحري حين شرعت في متابعـة درس معجزات سورة ياسين ، منذ ثلاثين عامـــاً تقريباً ، وقد تبينت أنها مشتملة عـلى آيات كثيرة في هـذا الموضوع ، واليك النصوص التي وردت في سورة ياسين فقط ، حول البعث وحديث الأرواح وعالمي النعيم والعذاب .

النصوص

وهذه هي الأرقام المتعلقـــة بعوالم الأرواح ، وبعث الموتى ، وعالمي النعيم والعذاب ، تجدها مفصلة في القسم الرابع في « تأويل آيات سورة ياسين » .

إحياء الموتى ٣٦ — ١٢

حديث شهيد الدعوة ٣٦ — ٢٦ و ٢٧

الأجيال التي تنتقل من الدنيا لا ترجع اليها ، وانمـا تحضر بين يدي ربها يوم القيامة ٣٦ — ٣١ و ٣٢

نفخ الصور للبعث ، وحضور الموتى للحساب ، ومـــا يكون مـــن أحوال من أجل ذلك . من آية ٥١ إلى آية ٦٦

الدليل العلمي اليقيني على حقيقة البعث ، وحتمية حدوثه ، من آيـة ٧٧ إلى نهاية السورة .

فيكـــون مجموع الآيـــات الواردة في سورة ياسين وحدهـــا ، التي جاءت في هذا الموضوع الجليل ، عددهـا ٢٧ آيـة من مجموع ٨٣ آيـة الخاصة بسورة ياسين .

وقد تجد تفصيلاً لذلك في الموضوعات الآتية .

معجزة البعث وحقائق العالم الثاني

لا ريب أن معجزة البعث ، براهينهـــا في مجـال العلم اليقيني ، وفي مجال الوحي اليقيني كثيرة جداً ، وعالية جداً .

واني في هذه الكلمة لا أستقصي الدلائل كلها الواردة في خاتم كتب السماء (القرآن المجيد) وإنمـــا أذكر ما كشفه الله لي ، مـــن دلائل البعث وحقائق العالم الثاني ، في سورة ياسين ، التي أحاول ذكرهـــا إن شاء الله في كتابي هذا ،مضافاً اليه بعض ما جاء في العلم في هذا الصدد .

الآيات الواردة في سورة ياسين حول البعث

إن استقصاء جميع النصوص ، الواردة في القرآن المجيـــد ، حول البعث وحقائق العالم الثاني ، وشرحها من الوجهة العلمية اليقينية ، تقتضي مجلداً ضخماً ، لذلك اقتصرت في هذه الكلمة ، على الآيات الواردة في سورة ياسين وحقائق العالم الثاني ، إذ نحن في صدد بسط معجزاتها ، واني أعرضها عـــلى المطالعين آية آية ، مشتملة على مـــا تدل عليه من حقائق البعث وعوالمه ، واليك هي مرتبة حسب ورودها في سورة ياسين .

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّموا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمامٍ مُبينٍ (٣٦ ــ ١٢)

فإحياء الموتى أمره عظيم ، وشأنه كبير ، وهو لدى إنعام النظر في حقائقه ، وفي حقائق صفات الله سهل جداً .

ولكن الذي جعله مستحيلاً ، في نظر أكثر القدامى من مشركي العرب ، وسواهم ، هو أنهم كانوا متخذين آلهة ، من أفراد الكائنات ، ليس في مقدورها إحياء نملة ، لذلك كان عابدوها ينكرون قدرتها على تحقيق البعث . والذين استصغروا تلك الآلهة المتخذة من أفراد الكائنات، ووجدوها غير خليقة بالعبادة ، ألحدوا جملة واحدة ، وأولئك وهؤلاء أنكروا البعث ، وهذا ظاهر في آيات القرآن الكريم ، أما الأولون فالله عزّ وجلّ يقول فيهم :

وَكَانوا يَقولونَ أَئِذا مِتْنَا وكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَئِنَّا لَمَبعوثونَ . (٥٦ ــ ٤٧)

ذٰلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَروا بِآيَاتِنا وَقالوا أَئِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَئِنا لَمَبْعوثونَ خَلْقاً جَديداً (١٧ ــ ٩٨)

وأما الآخرون ، فإن الله عز وجل ، نص علينا أقوالهم الباطلة :

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجونَ . هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما توعَدونَ .

إنْ هِيَ إلاَّ حَياتُنا الدُّنْيا نَموتُ ونَحْيا ومَــا نَحْنُ بِمَبْعوثِينَ.

(٢٣ ــ ٣٥ و ٣٦ و ٣٧)

تفصيل ما أجمل

إنك تجد معجزة البعث ، وحقائق عوالم الطاقات العاقلة ــ الأرواح والملائكة والجان ــ مستفيضة في خاتم الوحي الإلهي ، استفاضة تدل على أمور ثلاث ..

الأمر الأول : حول استبعاد أهل الجاهلية للبعث

يدل على أن معظم الأميين من عرب الجاهلية كانوا يستبعدون البعث، ويسخرون ممن يؤمن بـه ، والقرآن المجيد أشار إلى ذلك في عدة آيات كقوله تعالى :

وَقَالَ الَّذينَ كَفَروا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكُمْ لَفي خلْقٍ جَديدٍ (٣٤ ــ ٧)

إيَعِدُكُمْ أنَّكُمْ إذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تراباً وَعِظامــاً أنَّكُمْ مُخْرَجونَ. هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِمــا توعَدونَ. إنْ هِيَ إلاَّ حَياتُنا الدُّنْيا نَموتُ ونَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعوثِين (٢٣ ــ ٣٥ و ٣٦ و ٣٧)

وكان الذين يؤمنون بالبعث أفراداً قلائل من عرب الجاهلية ، كزهير ابن أبـي سلمى الذي يقول :

فلا تكتُمنَّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكتم الله يَعلَمِ
يؤخَّر فيوضَع في كتابٍ فيدخر ليومِ الحسابِ أو يُعجل فيُنقَمِ

وقس بن ساعدة الأيادي ، وورقة بن نوفل ، وسواهم ..

وكان جحود أهل الجاهلية ، المتفاقم لحقائق البعث ، من الأسباب الوجيهة ، التي اقتضت إفاضة وحي الله في ذلك ودعمه ، بالبراهين التي تطمئن بها يقظات عقولهم ، ولمحات قلوبهم ، وهي لا تتجاوز المحسوسات إلا قليلاً .

إذا لم تكن قد نزلت حقائق الوحي الإلهَي اليقيني الذي ذكر كثيراً من عوالم الفضاء الهائلة المختفية في أبعاده السحيقة ، العوالم التي أخذ أهل العلم الحديث يتعرفون اليهـا شيئاً فشيئاً ، وبالحري — بعد صعودهم إلى القمر ومعالجتهم للوصول إلى المريخ وإلى كواكب أخر — وبعد اقامتهم للمحطات الفضائيـة ، وصنعهم للمراقب المقربـة للأبعاد السحيقة حتّى أوشكوا أن يلمسوا عوالمها ، وهم في محطاتّهم .

مـن أجل ذلك اقتضت الحكمة الإلهَيـة أن يكون في خاتم الوحي الإلهي الآيات الوفيرة التي تتحدث عن حقائق البعث وعوالمه ، بالأسلوب الحسي القريب ، خذ مثلاً هذه الآية الكريمة :

وَٱلَّذي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ تُخْرَجونَ (٤٣ — ١١)

فالماء الذي ينزل على الأرض الميتة فيحيي بقدرة الله نباتَها المحسوس لهم المشاهد هو صورة محسوسة لإخراجهم أحياء من تراب الأرض .

وخذ مثلاً آخر وهو قوله تعالى :

يَوْمَ نَطْوي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (٢١ ــ ١٠٤)

ولا ريب أن خلق الانسان يشاهدونـه كل يوم آلاف المرات ، وكما بدأ خلقه أول مرةٍ ، بقدرته تعالى ، وارادته وعلمـه ، كذلك يعيده نزلة أخرى .

أجل هم يرون ذلك مراراً وتكراراً .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ إِنَّ ذٰلِكَ عَلى اللهِ يَسيرٌ (٢٩ ــ ١٩)

فهذا أيضاً دليل حسي يمكن أن يدركه أهل الجاهليه بسهولة ، ولكن آية رقم ٢٠ التي تليها موضوعة لعصر العلم ، لأننّا لا نرى كيفيـة بدء الخلق إلا بعين العلم .

قُلْ سِيروا في الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِـرَةَ ، إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ[١] (٢٩ ــ ٢٠)

ورؤية كيفية بدء الخلق بعين العلم هي آيـة علمية لإعادته ، ولكن حقائقها لا تدرك إلا بنظر العلم الخالص وأدواته المعدة لذلك .

وإذا كان الإنسان الجاهلي يريد أن يشاهد الإلـه المعبود الذي خلق

---

١ تقدم بحث هذه الآية الكريمة وهي من دلائل البحث العلمية .

الكائنات التي مـا أحصاها علم الانسان الحديث في عصرنا على تقدمه الخارق ، فما بالك بعلم الانسان الجاهلي على اختلاطه وقلته ، ومن أجل ذلك كان يأبى الإيمان بالإلـه المعبود إلا حين يراه ماثلاً بين يديه في جماد ، أو حيوان ، أو نبات ، ليحسه ويلمسه ويتمسح به وإذا غضب منه حطمه وشتمه وإذا كان يؤكل أكاه كإلـه التمر الذي نصبته بنو حنيفة معبوداً لهم حتى قال الشاعر فيهم :

« أكلت حنيفة ربها عام المجاعة »[1] .

ولعل هذه القصة من وضع الشعراء الهجائين ، ومـا نحن بحاجة إلى اختراع رب من التمر ليأكله عابدوه إذا جاعوا لنبرهن على بطلان الآلهة المتخذة من أشياء الكائنات ، وهذه الأحجار الصم المنصوبة للعبادة لدى كل قبيلة فيها كل برهان البطلان لمن طلبه .

هذا حال أهل الجاهلية في عبادة الأنصاب التي كانت تحتشد في منازلهم ، وحالهم في جحود البعث ، ومـن جراء ذلك استفاضت آيـات القرآن المجيد المنزلة لاثبات البعث بالتجربة والمشاهدة المحسوسة في صميم الحياة .

الأمر الثاني : تفاقم الغرور العلمي في عصرنا

يتبين التالون المتعمقون في نصوص آيات القرآن المجيد ، الدالـة على وقوع حقيقة البعث ، بأدلة علمية يقينية ، يلمسونها لمس اليد في العلوم المكتشفة حديثاً ، والتي سوف تكتشف ، ذلك لأننا نجد أن الله جلت

---

[1] والإنسان إذا غضب وحقد تجد دونه الوحوش الكاسرة يبطش ويفتك ويكذب ويخترع ألواناً من الذم يعجز عن اختراع مثلها الشيطان فلم لا تكون هذه القصة من مصادر حقد الإنسان لأخيه الإنسان ، وإلا فالتمر إذا نصب إلهاً معبوداً فسد من نفسه وأكلته الحشرات كما هو معروف .

قدرته ، ذكرها بروح الأسلوب العلمي اليقيني الخالد ، الذي يستحيل أن يخالطه أدنى ريب ، يكفي أن نقول هــو أسلوب اعجاز القرآن العلمي اليقيني ، المدخر لعصر كشف حقائق العلم اليقيني .

كما يدل على أن هذا العصر ، يتفاقم فيه كشف ظاهر المعرفة المادية ، وكشفها يفضي إلى الغرور العلمي ، الذي يتفشى بسببه الالحــاد الأرعن الطائش .

أجل في هذا العصر كثر الذين كفروا بعوالم الأرواح العاقلة . ونفذوا منها إلى الكفر بوقوع البعث ، وقد تسرب هذا الكفر المتفاقم من أشطار المثقفين إلى العامة .. وكثرة أعدادهم تكشف لنا الحكمة ، في كثرة آيات الوحي المشتملة على البراهين العلمية اليقينية ...

من أجل ذلك لا تجد سورة مذكورة فيهــا عوالم الطاقات العاقلــة والبعث ، إلا وفيها البراهين العاميــة اليقينية ، وعرضها كافة هنــا غير ممكن ، إذ يستوعب مجلداً ضخماً ...

وإذا أذن لي ربي وأعانني أخرجته للناس تحت عنوان « دلائل البعث في العلم والوحي اليقينيين » .

وإني في هــذا المؤلف أكتفي بذكر الآيــات التي وردت في سورة ياسين ، مع ذكر قليل جداً من الآيات التي وردت في هذا الشأن ـ وقد أرجأت ذكر ذلك في جملة معجزات سورة ياسين في القسم الخامس .

الأمر الثالث : رفع الانسانية الى السلوك السامي بايمانها بالبعث

إن كثرة النصوص الواردة في خاتم الوحي الإلهَي ، عن عوالم الطاقات العاقلــة ، وعن عالمي النعيم والعذاب ، ترفع الانسان عـن الاسفاف ،

وتنقذه من مباذل السلوك المنحط ، وتمنحه الضمير الحي المسؤول الذي يجعله يتذوق طعم الانسانية العالية ، ومحبة الله ورسله وكتبه في جملة أشياء .

أ – في يقظة المجموعة النفسية الإنسانية الدالة إلى اعتناق الخير والهداية التي أوحاها الله عز وجل ، وأي خير ونفع وسعادة للإنسانية أكبر من ذلك .

ب – في توطيد الإيمان العلمي الصادق ، من أجل نيل سعادة الدنيا والآخرة ، ومن أجل النهوض بالإنسانية إلى بلوغ حقائق العلم الكاشفة .

ج – تُشعل عزائم الأمجاد الخالدة النافعة بارادات البطولة المعممة الصاعدة بكل أفراد الأمة ، الى طهر الملائكة الكرام ، لتكون خير أمة أُخرجت للناس بحق .

د – تهذيب إنسانية الإنسان الحر ، بصفاء اليقين ، باستقامة السلوك، بصيانة الأعراض عن الدنس والانتهاك ، بوقد الفكر ، بغزارة العلم ...

وهذه جملة الفوائد التي يلمسها المتأملون ، في كثرة النصوص الواردة في شئون العالم الثاني .

أنواع الأسئلة التي ترد حول الآخرة

الأسئلة التي ترد حول عوالم الآخرة من فئات ثلاث :

١ – فئة تسأل لكشف المعرفة اليقينية المتعلقة بمسائل العالم الثاني ، وليس لها من غرض في النفي أو الإثبات ، إلا ما يثبته العلم أو ينفيه .

فما أثبته العلم من مسائل الآخرة أخذت به . وقبلته . وما نفاه العلم تركته وأعرضت عنه .

وهي مؤمنة على بصيرة وعلم ويقين ، وهي خير فئات السائلين عن عوالم الآخرة .

٢ — وفئة تسأل بتعنت وتعجيز وسخرية ، وهي ملحدة خبيثة الطوية ، تقصد بأسئلتها التشكيك والتعجيز والتشويش ، ولا تقصد الوصول الى كشف واقع المعرفة .

ومن أجل ذلك لا يرجى منها الإيمان ، بعوالم الآخرة ، لأنها غير مؤمنة بالله الخالق العظيم ، ومن لا يؤمن بالله الخالق العظيم ، فكيف يرجى منه أن يؤمن بعوالم الآخرة ؟! ! ولو تنادت بذلك كل براهين العلم اليقيني ، وهي شر الفئات الثلاث التي تسأل عن عوالم الآخرة ..

٣ — وفئة تسأل عن جهل وسذاجة ، وهي عامية مؤمنة ، وهي كظماء الصحراء المحرقة ، تعبُّ ما يقدم لها من ماء باندفاع ولهفة أياً كان الماء المقدم المعبوب ، وهي فئة المسلِّمين الراضين بكل ما يذكر لهم من الدلائل ، وإن كانت ملفَّقة متهافتة .. وهذه أوهى الفئات السائلة عن عوالم الآخرة .

ومن هنا تجد لكل فئة من الفئات الثلاث لوناً خاصاً من الأسئلة . وإليك أمثلة من أسئلة الفئات الثلاث :

١ — فمن أمثلة الطائفة الأولى التي تسأل للوصول إلى كشف واقع العلم اليقيني فقط وموضوع السؤال هو :

أن المشاهد أن جسد الإنسان ينبوعاً من القاذورات ، أنى واجهته .

« فمن عينيه يخرج الغمص ، ومن فمه يخرج البصاق والبلغم والقيء .. واللعاب ، ومن أنفه المخاط ، ومن أذنيه وأبطيه وعانته يخرج ما يستقذر

ويفوح بالصنان ؛ ومن سائر مسام جسده العرق البغيض الكريه ، ومن السبيلين تخرج عفونة البراز القاتلة وروائح البول الفادحة » .

هذا هو الموضوع ، والسؤال عنه هو :

س – كيف يكون هذا الجسد الذي هو ينبوع كل هذه القاذورات في عالم النعيم ، الذي لا ينبغي أن توجد فيه قاذورات ، ولن توجد...

ج – والجواب ظاهر في يقين العلم وفي يقين الوحي .

١ – يقين العلم في مشاهدته وتجربته لمس يقيناً ، أن الإنتقال من عالم إلى عالم ، يخالف في سننه ومقضياتها العالم الذي ينتقل منه ، فما بالك بعوالم الآخرة ، المترامية وراء عوالم السموات، بالنسبة لعوالم الدنيا، والحق أن تكون تلك العوالم وأهلها هي على حال تناسبها حتماً من الطهارة والصفاء .

٢ – ويقين الوحي منصوص عليه في قوله تعالى :

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٢ ــ ١٧)

وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي ، الذي رواه مسلم : أعددت لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

هذا بالنسبة للمكان الذي ينتقلون اليه ، واما بالنسبة لتكوينهم الخاص، فإنه سيكون على حالٍ توائم حياتهم الأبدية فيه ، وفي ذلك يقول الله عز وجل :

عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ .
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (آية ٦١ ـ ٦٢)

٢ ــ ومن أمثله أسئلة الطائفة الثانيــة ، التي تسأل للسخرية والتعجيز واذاعة الالحاد ، وليس لها من غرض إلا طمس معالم المعرفة اليقينية !!
هذا السؤال :

س : أين العلم الذي يثبت لنـــا بالتجربة والمشاهدة ــ أن أجسادنا يوجد فيها طاقات روحية عاقلة تبقى بعد الموت ليوم البعث والنشور .

وإذا شرعت تجيبُ من الوجهة العلمية اليقينية المشاهدة تشمئز نفوسهم، ويتنكرون للجواب ، ويلغون فيه ، لأنهم ليسوا رواد علم وطلاب حق ، بل هم رواد فتنة ، وتدعيم للباطل ..!!

ووحي الله حذرنا منهم لخبث طويتهم في قوله تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعوا لِهَذا القُرآنِ وَٱلْغَوْا فِيـــهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبونَ (٤١ ــ ٢٦)

والجواب العلميُّ اليقينيُّ المشاهد ، لهذا السؤال مر مفصلاً في أبواب عدة ، وإذا كانت العودة اليها تعسر عليك فسأجمل الجواب هنا ...

وأقول الحق إن الذي يسأل هذا السؤال هـــو ممن يتصورون أن سير عمل طاقةِ الحياة الروحيـة ــ الروح ــ في تكوين الجسد الانساني عضواً عضواً من البداية إلى النهاية ، خالٍ من العلم .

وعلى ذلك فيكون عمل تكوين الجسد الانساني يتم بـــالجهل حسب تخريصهم .

واسناد عمل العلم إلى تخريص الجهل هـــو سخرية القدر بالمسندين ، ومثلهم في ذلك كمثل من يسند صنع التلفزيون إلى صانع أباريق الفخار ، أو صنع الانسان الالكتروني إلى لا شيء ، وقد يتسترون بالصدفـة فراراً من السخرية ، ونسوا أن نسبة حقائق العلوم اليقينيـة الماثلـــة في تكوين

الكائنات إلى الصدفة ، هو نسبتها إلى عين الجهل ، ألا يرون لو نسب أحدنـا صنع الانسان الالكتروني الى الصدفة الا يدل ذلك على جهلـه ، لأن الصدفة ، لن تكون إلا رميـة من غير رام ، وهي لا تتكرر ، لأجل صنع شيءٍ مـا ، فان تكررت كانت سنّة من سنن التكوين ، والسنّة تقوم على العلم الدقيق ، كسير الشمس في الفلك ، ومـن أجل ذلك ، نراها تتكرر بصورة دائمة ، من أجل تكوين الكائن واتمامـه واستمرار بقائه . ومن أجل قيامه بوظائفه .

وهذا هو الفارق بين عمل الصدفة وعمل السنُّة .

إذن فالسنَّة طـاقة مخططة بعلم لغاية يتم بمقتضاها تكوين الكائنات ، وهذا شأن سنة تكوين الروح للجسد الإنساني .

والسُّنن لا تفنى ولا تتبدل أعمالها ولا تحول ، لأن الله الخالق العظيم الذي ابتدعها هو الذي يهيمن عليها، ويتصرف فيها بعلمه وقدرته وإرادته.

لذلك تجدها تعمل باستمرار بقدرته تعالى دون تخلف :

سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا ، وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلا .

(١٧ ـــ ٧٧)

وقوام السنن العلم اليقيني ، والعلم اليقيني خـالدٌ لا يفنى ، والأرواح في الأصل كانت خارجة عن الأجساد المادية ، لأن الأرض كانت ميتة فحلت الحياة في الأجساد ، وبعد فناء الجسد تعود الأرواح الى مستقرها حتى يأتي يوم البعث الموعود .

... كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُهُ ... (٢١ ـــ ١٠٤)

والذين يجهلون حقائق العلم ، وينفون بقاء الأرواح بعد الأجساد ، هم يقصدون من وراء ذلك نفي البعث الموعود .

والخلاصة أن هذا السؤال ، وأمثاله لا يقصد منه الإهتداء إلى واقع العلم اليقيني ، بل يقصد منه إذاعة الإلحـاد وتشويش الفكر ، واغلاق القلب عن نور الإيمان ..

٣ – ومن أمثلة اسئلة الطائفة الثالثـة الساذجة المؤمنة تقليداً ، التي لا تعلم شيئاً وتود أن تعلم كل شيء ، ولو من طريق الأساطير التي تدس على الأديان عادة وتحشر فيها حشراً بأصابع دساسة آثمة لعينة هو قولهم :

إنا نسمع القراء دائماً يتلون قول الله عز وجل :

وَسَارِعوا إلى مَغفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (٣ – ١٣٣)

فإذا كانت الجنة عرضها عرض السموات والأرض ، فأين يكون طولها .!!؟

وتحس حين يطرحون عليك هذا السؤال ، أنهم مشفقون على نص الآية حيث لم يفهموه الفهم الواقعي .

ومثار اشفاقهم هو أنهم يحسبون الوجود هو هذه السموات أي النجوم المتناثرة التي تملأ الفضاء المواجه لهم ، وهم يشاهدونها ، تحبس أنفاسه بازدحامها ، وما دامت هي عرض الجنة ، فأين يكون طولها ؟

أجل هم يرون الفضاء محتشداً بالعوالم التي تحبس انفاسه حتى لم يبق للجنة مكان بينها فضلاً عن عرضها الذي يماثلها في السعة ، ومن أجل ذلك يتساءلون أين يكون طولها .

وهذا الفريق إذا قلت له إن الله أعلم بالمكان الذي فيه طولها ، لاقتنعوا وسكتوا ، لأنهم مؤمنون بكل ما يقال لهم عن الله ، إن صدقاً، وإن كذباً ..

وبما أنني في هذا المؤلف لا أذكر من مسائل وحي الله إلا اليقيني . القطعي ، وكذلك من مسائل العلم ، قلت للسائلين :

« يا إخوتي إن هذا الفضاء الذي تشاهدونه أزرق اللون . لا يُحصي عوالمه المتناثرة فيه ، ولا يعلم بها ولا يستقصي حدودها إلا الله الذي أوجدها ، وعين لها أماكنها فيه ، وما ترونه أنتم بأعينكم المجردة ، وما يراه العلماء بمراصدهم ، ومحطاتهم الفضائية ، من الكواكب والنجوم والمجرات ، التي تعد ببلايين البلايين فإنه لا تزيد بالنسبة لعوالم الله الخالق العظيم في هذا الفضاء ذي الأهوال في انفساحات أبعاده وما وراءها ، ووراء ورائها ، لا تزيد عن جملة من السميكات الصغيرة الملونة التي تملأ إناء زجاجياً قذفت به في البحر بلايين الحيتان أشباه الأعلام .

قل وهذا شأن السموات والأرض ، وما بينهما من عوالم الكواكب والمجرات بالنسبة لعوالم الآخرة ، والجنة من ضمنها .

والحق أنه لا يعلم بحدود سعة ملك الله إلا الله جل وعز ، أما ما يذكره العلماء وإن كان أهوالاً من السعة ، إن هو إلا تخمين من العلم وتقريب من الوحي :

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٧٠ ــ ٤)

وإذا كان يوم الأرض التي يكون منها البعث بمثل هذا الامتداد الهائل، فكيف تكون أبعاد عوالمه .

وهنا لا يسعنا إلا أن نخشع ونقول :

« سبحانك يا مكون الأكوان ، لا يحصيها أحـــد سواك ، فأنت وحدك علام الغيوب » .

وإني هنا طرحتُ الأسئلة السخيفة الرعناء التي لا تدل على علم ولا على ذكاء ، ولا على خلق ، ولا على احترام لمقام عظمة هذه العوالم وجلال مبدعها جل وعز .

الحقائق الثلاث

التي بها تكشف حقائق العلم اليقيني

تمهيد

لا بد للدارس المتعمق المحرر أن يستوعب حقائق « مسائل ثلاث » . كل مسألة تخالف في صميم التكوين ... المسألة الأخرى .

« الأولى » : مسألة مباينة سنن الأكوان بعضها عن بعض ...

« الثانية » : مسألة مباينـة سنن عوالمنا هذه الفانيـة ، لسنن عوالم الآخرة الخالدة ...

« الثالثة » : مسألة مباينـة سنن كل العوالم المترامية في شتى أبعاد الفضاء ، في كل صفاتها وأوضاعها عن صفات خالقها جل وعز ..

ولا ريب أن تحققك من كل مسألة من هذه المسائل الثلاث، ودرسك لها ، وتمحيصك إياها يزيح عن معارفك بلايا الفروض والظنون والأوهام والأساطير ، وأشباه ذلك .

ويزيح عن مجموعتك النفسية ، وعن كل ما تقرأه وتكتبه ، التباس

مدلولات الألفاظ ، وبواعث متناقضاتها في حقائق الوحي الإلهي ، وفي مؤلفات العقائد والفلسفة والآداب ، في القديم والحديث .

ولا ريب أن الأفراد والجماعات ، إذا استوعبوا مدلولات هذه المسائل الثلاث ، وكشفوها كشفاً علمياً خالصاً ، فانهم حتماً يحسمون كل خلافات الأجيال المتخلفة ، التي تفاقمت على تداول الحقب ، وتحجرت في عقائدهم ، في تقاليدهم ، في معارفهم ، في آدابهم ، في عنصرياتهم ، في كل مرافق حياتهم .

أجل هم يحسمون بها ، كل خلافات الأجيال ، لدى شتى الأمم ، بصراحة ، بصرامة ، بعلم ، بحق .

وتجعل ما يقدمه المعرضون ، عن توجيهات هذه المسائل الثلاث الصاعدة ، من مؤلفات قلقة ، ومحاضرات متهافتة ، ودعايات متباينة ، في مكانة السخرية والانهزام الفكري ، والوهن العلمي ، والانحطاط الخلقي .. بل تجعل المعرضين أنفسهم ، أعداء لأنفسهم ، ولأمتهم ، وللانسانية .

وأحسبك الآن تغمرك حماسة المعرفة ، وتقول وأنت مرهف سمعك .. حدثني حدثني ، عن المسائل الثلاث ، التي هذا شأنها ، واصارحك أني أودُّ قبل أن أتحدث عنها ، وأفصلها لك تفصيلاً ضافياً ، أن تعلم ، أنها أجدى وأنفع من فصل العلوم عن الفلسفة ، وانت تعلمُ ما أفادته الانسانية ، من صعودٍ علميّ ، وحضاري محرر ، حين فصلت العلوم عن ظنون الفلسفة وفروضها ، والحق أنه من يتدبر حقائق هذه المسائل الثلاث ، ويطبقها في ما يكتب أو يقرأ .. يجدها صاروخية في تصفية علوم المادة ، وعلوم الطاقة ، عن كل ما علِقَ بها ويعلق : من خلط تصورات وحدة نواميس الأكوان ، ومن تحليلات مباينات نظريات

التكوين ، ومن إغراب شطحات التأويلات في نصوص الكتب السماويـة المقدسة ، والعبث فيها بالزيادة والنقصان .

أجل يجدها مفصلة ناطقة في المباينات الثلاث الآتية :

الأولى : مباينة سنن الأكوان بعضها عن بعض

ومن لم يعقل مباينة السنن التكوينية ، مـا بين عالم وعالم ، ومن لم يعلم أن تكوين كل عالم بالذات، له مميزاته وخصائصه . عن العالم الآخر، فإنه حتماً يتصور أن العوالم كلها تحكمها ، وتهيمن عليها وتتصرف فيها وتسيرها السنن المفروضة على الكرة الأرضية .

ومن أجل ذلك ، كانت ملكات معارفه ، ومؤلفات أقلامه ، مبنية على اعتقاد ، أن سنن أرضنا وكائناتنا ، هي التي تهيمن على كل عـالم من العوالم المترامية في أبعاد الفضاء ، سواء ما عُلم منها أو لم يعلم ، ولم يدر في أفكاره أن سنن الزمان والمكان ، والحرارة والبرودة ، والضوء والظلام ، ووجود الأحياء وعـدم وجودهم ، وأشكالهم وأنواعهم إن وجدوا ، وما كان ويكون من شتى أنواع التكوين ، الذي لمـا ينته حصرهُ في علم الإنسان ، فإن كل ذلك يختلف ويتباين في العوالم وسننها ، وكذلك يختلف في يقين العلم وأحكامه .

إذن فكل الكتابات والمؤلفات المبنية على تصور وحدة السنن منقوضة، وتفتقر الى نظر جديد ، وكتابة حديثة .

الثانية : مباينة عوالم الدنيا لعوالم الآخرة

يا لله ، كم جرّ عليهم عـدم انتباههم إلى المباينة الحاصلة بين سنن

عوالم الدنيا ونجومها وسمواتها ، وبين سنن عوالم الآخرة ، من أخطاء في أحكامهم ، ومن أرزاء في تأويلاتهم ، ومن انحراف في فلسفاتهم ، ومن قلة أدب في كتاباتهم .

خذ مثلاً ما كتبه علماء الأديان وسواهم ، عن عوالم الآخرة ، وأنعم نظرك في دلائلها ، فانك تجدهم يفرضون سنن عالمهم هذا عليها ، فإذا تحدثوا عن رؤية الله الخالق العظيم ، في عالم النعيم ، تجدهم يخوضون خوضاً ، في وحول القال والقيل ، إلى أذقانهم ، حتى لا يكادوا يتنفسون ، إلا بضيق وعسر ...

فتراهم كأنهم يتحدثون عن رؤيتنا لشخص مثلنا ، خاضع لسنن الزمان والمكان ، المفروضة في أرضنا ، ومن سوء هذا الفهم ، أنكر المعتزلة رؤية الله يوم القيامة ، وأولوا نصوص الوحي التي تثبت الرؤية ، كقوله تعالى :

وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إلى رَبِّها نَاظِرَةٌ (٧٥ — ٢٢ و ٢٣)

فقالوا ناظرة الى نعيم ربها، كأن المسألة متعلقة بسوء فهمهم، إن شاءوا نفوا ما أثبته الله ، وإن شاءوا أثبتوا ما نفاه الله ..

بل كأنهم لا يعلمون ، أن الكلام كلام الله ، وأن ما يذكره لهم من أوصاف عوالم الآخرة ، يذكره بما يتفاهمون به ويعلمونه ، وإن كان فوق ما يعلمونه ، فلا يلتفتون إلى هذه الحقيقة ، بل يأخذون الأمر ، كأن أوضاع عوالم الآخرة وسننها وتكويناتها ووسائل العيش فيها ، هو مثل ما في أرضنا هذه ، ومن وهمهم هذا المتحكم في تفكيرهم وعلمهم، تجدهم يخوضون في نظريات وتأويلات وتناقضات حول ما أنزل الله من وحي ، ما كانوا ليخوضوا فيه .

١ — لو أنهم انتبهوا إلى الفوارق التكوينية الأصيلة التي تقدم ذكرها.

٢ — أو لو أنهم وعوا ما قاله علماء السلف : الألفاظ معلومـة ، وكيفيات مدلولاتها مجهولة ، ولما تكتشف بعد ، والله أعلم بمراده . لأن تعيين حقائق المراد ، الآن غير ممكن ، ونحن نعيش في عوالم سوى تلك العوالم بالذات .

ومثل هذا الخلط الذي تقرأه ، في مؤلفات أهل الملل والنحل . فإنك تقرأه في مؤلفات المتفلسفين وبحوثهم ، حول بداية تكوين العوالم ، ونهايتها ووظائفها ومواطنها ، وخلافاتهم في كل ذلك حول إيمانهم وكفرهم ، وكلماتهم في كل ذلك هواء في هواء ، لا لزوم لها ، ولا حاجة اليها .

وكم تمنيت أن يقتصروا على براهين العلم اليقيني ، والوحي اليقيني ، ولو أنهم اقتصروا على ذلك لما اختلفوا أبداً في شيء مـــا ، ولما وجد بين الناس ، مـن يشرك بـالله واليوم الآخر ، أو يفكر في ذلك . لأن كل اختلاف لا يكون مصدره إلا جهل الانسان وظنونـــه بكتاب الوحي اليقيني وبكتاب الكون اليقيني :

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً **٤ ـ آية ٨٢**

الثالثة : مباينة العوالم وذواتها وصفاتها لذات الله وصفاته

إن هذه المباينـــة ، هي قمة المباينات ، واكثرهـــا شعباً ، وأوسعها اختلافاً ، وأوفرها مؤلفات ، مما هبّ ودبّ ، وكم سهد لها الساهدون، وكم فكر فيها المفكرون ، وكم حاضر لها المحاضرون ، من أهل الأديان السماوية والوضعية ، وأهل الشرائع والدساتير ، وأهل النحل والفلسفات .

وانك لو ذهبت الى المكاتب العامة ، في كل عواصم الأمم ، وطفقت

تحصي المجلدات الضخام المخصصة لهذا الموضوع ، بشتى اللغات،لوجدتها حقاً وفيرة تعد بالملايين .

تلك المسألة المشتملة على تفصيل حقيقة الحقائق أي ، على سر وجود الخالق العظيم جل وعز : المبدع لكل شيءٍ ، والمهيمن على كل شيءٍ ، والمتصرف في كل شيء ، الأزلي الأبدي ، الذي بيده ملك كل شيء ، وملكوته واليه المرجع والمآب .

وأنت إذا أوتيت عُمْرَ نوح ، وصبر أيوب ، وحكمة لقمان ، وأخذت تطوف على هاتيك المجلدات المتكدسة كالجبال ، في شتى مكتبات الأمم : دارساً ناقداً ، منعماً نظرك ، واعياً مقارناً ، فانك تجد نفسك غائصاً في بحران من الاضطراب والقلق والتباين المحيط الشاسع ، ما بين مؤلف من أهل ملة أو نحلة أو الحاد ، كأنك بين يدي مليون ومليون ومليون موضوع ، لا بين يدي موضوع واحد ، وهو حقيقة الايمان بالله واليوم الآخر وحقيقة بدء خلق الكائنات .

وإذا أنت أخذت تتقصى الأسباب والبواعث ، التي أدت بعلماء الأمم ، ومؤلفيهم ، إلى كل هذا الخلف المخيف ، والتباين الهائل ، حول موضوع واحد ، هو أسطع من الشمس في كبد السماء ، فلن تجد سوى سببٍ واحدٍ لا ندَّ له .

ذلك السبب هو عدم حصر الفكر والعلم ، قبل مباشرة الكتابة في التباين بين صفات كل الكائنات ، وبين صفات الله المكون لها جل جلاله .... ذلك لأن الحصر هو وصفات المعرفة ، فإذا لم يحصر الفكر والعلم في ذلك ، ظلت الفوضى والاضطراب وشتى الاختلافات، في مكانها الموجه لكل المؤلفين والكاتبين ، إلى ما شاء الله .

وإني أريد أن أقدم قصة مثلٍ حيٍ ناطق بحقيقة هذا التباين ، ليلمس ويحس بواقع العلم والعقل اليقينين .

هب أن الله أمدك بألوان من الطاقات الخارقة ، تستطيع بها أن تطوف بين الأكوان المترامية في أبعاد الفضاء السحيقة ، التي لم تكتشف بعد ، وأقدرك أن تعيش فيها ما شئت أن تعيش ، لتدرس وتدقق وتحصي وتكتب ..

وهب أنك وجدت بين هاتيك الأكوان : كوناً عامراً بصنف من المخلوقات المادية ، على وجه من الشبه بالانسان ، ويدب على سطحه قريباً من دبيب الإنسان على سطح الأرض ، ويتفاهمون بالهام الأرواح ، وبأصوات ناعمة شتى ، كأصوات آلات الموسيقى .

ووجود من يدبون في عالم غير عالمنا الأرضي ، ليس غريباً عن العلم والوحي معاً ، فالصحون الطائرة التي ترى من حين لحين إن لم يكن مصدرها من الأرض فلا بد أن يكون مصدرها من عالم آخر . ووحي الله ينص على وجود من يدبون في عالم غير عالم الأرض ، أي في بعض عوالم السموات . استظهر هذه الآية الكريمة الدالة على ذلك :

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٤٢ ــ ٢٩)

واستظهر قوله تعالى أيضاً :

إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤٥ ــ ٣ و ٤)

تدبر لفظة فيهما ، ولفظة جمعهم ، ولفظة دابة ، تفهم سر الإعجاز في وحي الله تعالى .

وهب أن الله ألهمك ، أسلوب التفاهم ، الذي فطر الله عليه أولئك الذين نزلت بينهم ، وألهمك عبقرية إبداع البيان الجذاب ، وسحره المهيمن دون أن تفتقر إلى سهد التفوق ، وجهد التحصيل ، في كل ما تأخذ أو تدع .

بل وهبك الأحسن الفائق في كل ما يتنافسون فيه ويتفاخرون ، حتى أصبحت بينهم منار علمٍ وأدب وعَلَمَ نبل وخلق مثل : مكانك بين أهل عالمك .

وبما أنك أصبحت تجمع بين أسلوبين متباينين من التفاهم المتفوق :

أسلوب العالم الذي انتقلت اليه ، وأسلوب العالم الذي كنت فيه ..

فأنت مضطر أن تصف لهم عالمك الذي كنت فيه بأسلوب تفاهمهم .

* تصف لهم مكان الكرة الأرضية ، من بين عوالم الفضاء، وأبعادها عنها ، ثم تصف لهم بُعدَ عالمهم بالذات عنهـا ، وتصف لهم تكوينها الجغرافي ، وتكوين الأحياء الحيوانية والنباتية فيها ، ووفرة أنواعهـا ، وألوان حياتها ، وطريقة استمرارها في سلائلها ، واختلاف مواطنهـا ، وامتياز حياة الانسان فيها .

وتُسهب في أوصاف جبالهـا ، وسهولها ، وأوديتهـا ، وأنهارها ، وحدائقها ، وثمارهـا ، وفواكهها ، وهوائها ، وبحارهـا ، وكائنات بحارها ، وعناصر هوائها ، وأثرها في حياة حيوانها ونباتهـا ومعادنها ، ومصير كل ذلك في حياة سكان أهل الأرض ..

أجل تصف لهم كل ذلك بنفس أسلوبهم ، وطريقة تفاهمهم ، فتأخذ أسماء الكائنات لديهم القريبة الشبه ، في ضروراتها ووسائلها وغاياتها ، من كائنات أرضنا ...

مثلاً إذا رأيت من كائناتهم ، مـا يشبه الماء في ضرورته للحياة ، واسمه لديهم مثلاً : « السُّواغ » فأنت إذا استعملت لفظة سواغ لديهم

باسم الماء تكون مُصيباً وجه الشبه من بعض نواحيه ، لأن معظم وضع الكلمات واشتقاقها في اللغات ، أو نقلها ، يلاحظ فيه هذا الوجه من الشبه .

اذن فأنت تسمي لهم (سواغاً) الماء الذي تعرف في عالمك ، وإذا احببت أن تصف السُّواغ ، قلت : وشاهدت الماء الديهم يجري ، ما بين جبلٍ وجبلٍ ، كأنه الجسر الممدود ، دون أن يكون له حواجز تمسكه من السيلان ، وقل مثل ذلك في كل الألفاظ التي تستعملها .

إذا عرفت الغاية الهادية من هذه القصة ، فانك تستطيع أن تدرك مدلولات الألفاظ ، التي يعبر الله بها لنا ، عن نعم عالم النعيم ، بل يمكنك أن تدرك الفارق الكبير الهائل ، ما بين مدلولات الألفاظ ، وحقائق عالم النعيم ، من اطلاق لفظة جنة عليه . والجنة هي البستان ، وكم من مليار مليار من المعاني الرائعة الساحرة ، التي لا مثيل لجمالها وفتنتها وحسنها في جنة الآخرة ، ومع ذلك أطلق الله عليها اسم جنة ، لأننا نعيش في عالم ، يفهم أن الجنة محل التنعم ، وفيها أسبابه . وقس على ذلك كل الاطلاقات .

ومن هذه القصة ، تفهم أخطاء المؤلفين والكاتبين ، من أرباب النحل ، والمذاهب والفلسفات ، التي تتناول الصفات ، التي تليق بجلال الله وعظمته ، والصفات التي لا تليق بجلاله وعظمته ، وتتناول بدء خلق العوالم واستمرارها ونهايتها ، وعوالم الخلود التي تبقى .

تتناوله بألفاظنا المقيدة بنواميس أرضنا ودلائلها المحدودة بحدودها ، دون نظر الى الخلاف الشاسع ، ما بين صفات العوالم كافة ، وبين صفات الله جل وعز .

ولولا استمساكهم بدلائل الألفاظ ، المحدودة في ما لا يحدُّ ولا يحاط

به علماً ، واعتبارهم لها ، واعتمادهم عليها ، في كل ما يؤلفون ويكتبون، لما اختلفوا كل هذا الاختلاف الشاسع ، ولما وقعوا في كل هذا التفاوت الواسع ، حول وجود الله وصفاته ، وتحديده بحدود الأكوان وصفاتها، وحول بدء خلق العوالم بقصص وثنية سخيفة مضحكة .

والآن قبل أن أنهي البحث في هذه المسائل ، أرجو من الله عز وجل أن يلهم مؤلفي الأمم ، في الإيمان بالله والملائكة وعوالم الأرواح ، وما هو في غيوب الكون أن لا يتسرعوا في إصدار الأحكام ، خشية أن يتقدم العلم ، فتصبح أحكامهم سخرية الساخرين ، ومهزلة الهازلين ، ويصبحوا هم وما ألّفوا وسهروا من أجله وجهدوا له في محل الإشفاق عليهم والنقد ، والله ولي الأمر ، واليه المرجع والمآب .

تحريم الايمان بدون برهان

الايمان بدون برهان يحاربه وحي الله اليقيني ، وبلاؤه فوق كل بلاء .

وكم من أمم تبددت ، وكم من جماعات تفرقت ، وكم مـــن أفراد تحاقدت ، بسبب الاعتماد على الظنون والأوهام ، واهمال البراهين العلمية اليقينيـــة ، ومن جراء ذلك ، تشعبت بينهم النحلُ والملـــل والمذاهب والفرق ، وتفاقمت في مؤلفاتهم وخطبهم ومحاضراتهم التأويلات الفاسدة ، وخبائث الزيادة والنقصان ، ولعنـــات الدسائس التي دُست عـــلى ألسنة مؤسسيها الأُول وأتباعهم الأبرار الصادقين ، ابتغاء الفتنة والتمزيق والهدم ..

ولولا محاربة وحي الله اليقيني للظنون والأوهام ، ولولا فرض البرهان العلمي اليقيني على كل دعوة تقدم للجماهير ، لنجح المتنبئون المفترون ، والمنحرفون المجرمون ، والدعاة الأسطوريون .

ومهما يكن فالإيمان بغير برهان علمي يقيني ينطق بصدقه ، فإنه يكون جريمة منكرةً ، وفساداً كبيراً بين الناس .

لذلك نجد خاتم وحي الله اليقيني ، يحمل حملات عنيفة ، على الأغبياء المسخرين الذين يصدقون كل مـــا يسمعونه ، فتراهم يطمئنون إلى كل ما يلقى اليهم من عقائد ومذاهب ، كأنهم القِـربَ التي تقبل أنفاس كل

نافخ ، وتراهم يؤمنون بالأساطير التي تُدس اليهم ، حول الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر والأرواح والجن والشاطين ، في لفائف من ترهاتٍ خاسرةٍ بلهاء .

والآن عرفت أن الله ما فرض اقامة البرهان العلمي اليقيني المشاهد ، إلا لكي تبنى حضارة الإسلام ، على عين الواقع اليقيني المشاهد ، وعلى الذكاء والحذر والبعد عـن مثل هذه المواقف المتحاجزة ، إلا ليكـون الصعود العلمي قائمـاً على منطق البرهان اليقيني ، وإلا ليكون التفاهم الانساني مشيداً على احقاق الحق وابطال الباطل ، وجلب كل سعادة وخير للناس جميعاً ، ودفع كل شقاء وشر عن الناس جميعاً .

وحتى لا ترى بين أمتين مـن أمم البشر قتالاً ، وحتى لا ترى بين فئتين من أمـة واحدة تحاقداً وتربصاً ، وحتى لا ترى بين شخصين من فئة واحدة خصومة .

والآن اسمع نصوص وحي الله اليقيني ، التي وردت في طلب البرهان اليقيني .

وما هي نصوص انسان مثلك ، حتى لا تبالي بها وتظل مسخراً بالظنون والأوهام والدسائس في عقائدك ، بل هي نصوص وحي رب العالمين ، فاحذر المخالفة ، فانها تُردي وتشقي .

ألا ترى أن الله عز وجل ، يفهمنا أن طلب البرهان في اثبات حقائق الأشياء ضروري ، في القديم وفي الحديث :

أَمِ اتَّخَذوا مِنْ دونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتوا بُرْهَانَكُمْ ، هٰذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمونَ الحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢١ ــ ٢٤)

.... أإلٰهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٧ــ٦٤)
وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هَاتوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِموا أنَّ الحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانوا يَفْتَرونَ (٢٨ ــ ٧٥)

العلم والبرهان أساسان لكل دعوة صادقة

قد رأينا أن الله عز وجل ، أمرنا في صميم وحيه ، بأمرين أساسين، لتصديق كل دعوة ، وقبولها :

قُلْ إنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدي مَا تَسْتَعْجِلونَ بِهِ إنِ الْحُكْم إلَّا لله يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلينَ (٦ــ٥٧)
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ اُفْتَرى عَلى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرينَ (٢٩ ــ ٦٨)

يجب أن تكون الدعوة علمية ، وأن تكون مؤيدة بيقين براهين العلم، وبراهين يقين العلم هو السلطان البين ، فإذا خلت الدعوة من السلطان فهي باطلة .

هٰؤُلاءِ قَوْمُنا اتَّخذوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اُفْتَرى عَلى اللهِ كَذِباً (١٨ ــ ١٥)

وحينئذ تكون الدعوة قائمة على الظن والهوى والكذب . ومع كل

ذلك فأكثر البشر لا يؤمنون إلا بالظنون والأهواء والكذب :

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦ ـ ١١٦)

... وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (٦ ـ ١١٩)

وواضح أن وحي الله القرآن المجيد هو نفسه برهان علمي قائم بذاته:

يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (٤ ـ ١٧٤)

وواضح أن الدعوة اليه جل وعز ، قائمة على العلم ، ولا ظلم أكبر من دعوة الجهل الباطلة التي تُنسبُ إلى الله افتراء لإضلال البشر .

... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ (٦ ـ ١٤٤)

... قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (٦ ـ ١٤٨)

والآن فهمنا أن الله جل وعز ، شيد حقائق وحيه على أمور عظيمة :

على حرية العلم وعلى حرية الفكر ، وعلى القوة والذكاء ، ولم يشيده على الجبر والتماليد والضعف والغباوة ..

لذلك تجد القرآن الكريم ، محتشداً بالبراهين العلمية اليقينية ، المؤيدة صدقه .

فمن تنكر له عن عصبية ، أو عنصرية ، أو جهل بـــه ، أو حقد عليه . أو توهم في الكفر بـــه لمصلحة ، أو السيادة ، أو سوى ذلك من صغائر الدنيا ... فحجة قائمة عليه من حقيقتي العلم والوحي اليقينيين .

ولا أكبر من الحجة التي أودعها الله في يقين وحيه ــ القرآن المجيد ــ ولا أصغر من تعطيل حرية الفكر الإرادي الذي وظيفته كشف الحقائق في الأشياء ، ولولا تعطيله بلهو الحياة ومساخرها ، لما كفر أكثر الناس، واقيمت عليهم الحجة من الله عز وجل :

قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٦ ــ ١٤٩)

والقاعدة أن كل محاجة فيما لا يعلمه المحاجِـج والمحاجَج أو لا يستطيعان أن يديرا المحاجة ، من أجل كشف واقع العــلم اليقيني . فإنها تكون باطلاً في باطل .

فالعلم أولاً والعلم آخراً قبل المحاجحة ، وإلا أصبحت المحاجحة ضرباً من المهاترات والمماحكة بالظنون والأوهام .

هَا أَنْتُمْ هؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٣ ــ ٦٦)

ولما كان القرآن المجيد ، نزل مفصلاً بعلم الله ، كان مؤيداً بالبراهين العلمية اليقينية المثبتة . أنه كلام الله :

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧ ــ ٥٢)

وهل من علم أصح وأشمل وأصدق من علم الله بحقائق الأشياء . هذه هي الحقيقة ، وإن جهلها من جهلها من العلماء غير المنصفين ، ولم يشهدوا بها ويعلنوها مع علمهم بها :

لَٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً (٤ ـــ ١٦٦)

الايمان بغير علم وبرهان

الإيمان بغير علم وبرهان ، هو ظن ووهم وخيال ، ومن أجل ذلك ، كان سبب الكفر بالله واليوم الآخر ، هو عدم الاطلاع على وحي الله اليقيني المؤيد بالبراهين الحاسمة ، وعدم الاطلاع على علوم التكوين المكتشفة الثابتة بالدلائل القطعية .

ومن أجل ذلك ، لن ترى عجباً ، في جحود الجاحدين ، وكفر الكافرين ، بالله واليوم الآخر ، وعوالم الطاقات الحيّة العاقلة ، الأرواح والملائكة والجن ، ما داموا يتخيلون جهلاً ، أن الكائن الحي المدرك في كل العوالم هو الانسان وحده ، وليس من كائن حي مدرك سواه .

وعلى زعمهم هذا يكون خلق الكائنات على عظمتها وجلالها ودقائقها تم بالجهل المطبق ، وظل هذا الجهل المطبق في زعمهم سائداً في كل عوالمها بلايين البلايين من الحقب ، حتى تم تكوين البشر بالجهل المطبق على زعمهم أيضاً . حينئذ وجد في العوالم من عقل العوالم وعلم بوجودها .

وظل هؤلاء الذين زعموا ذلك يعتقدون أن ليس في الأكوان من

مدركٍ لها وعالم بها سواهم ، ومن أجل ذلك ألهوا أنفسهم وأهواءهم .

وظلوا يعتقدون أن تكوين الأكوان – حتّى الأجنة في بطون أمهاتها – إنما تم ويتم بجهلٍ لا بعلم ، وبصدفةٍ لا بارادة ، وبتكوين ذاتي ، لا بقدرة منسقة منظمة وفق منهاج معين .

فعلى هذا يكون ما يسمونه علوماً هو جهلاً منظماً ، وما يسمونه ارادة مصممة هو نفاذ تكوين أهوج ، وما يسمونه قدرة مبدعة هو الطبيعة ، هي الحالة المنطبعة عليها تكوين الكائنات ، فيكون على زعمهم الحالة التي عليها تكوين الكائنات ، هي التي أوجدت الحالة التي عليها تكوين الكائنات ، كالذي فسّر الماء بالماء .

ولكن لما أنعم الباحثون المنقبون أنظارهم الفاحصة الكاشفة في خلق الأكوان ومواطنها ووظائفها ، أخذت تظهر لهم العلوم المكونة بمقتضاها شيئاً فشيئاً ، فعلموا أنها علوم ، وأن وراءها عالماً مريداً قادراً ومهيمناً عليها ومتصرفاً فيها ، فآمنوا به عن علم ومعرفة ..

والخلاصة أن الذين يكفرون بالعلم هم النزر القليل ، الذين ألهّوا أنفسهم وأخذوا يضلون الناس عن براهين مكون الأكوان المهيمن عليها والمتصرف فيها ، ويرون أن الطبيعة هي كل شيء ، وأن تكوين عوالمها تم ويتم بالصدفة .

ومن ضل عن برهان مكون الأكوان المهيمن عليها والمتصرف فيها هذا الضلال الكبير ، محال أن يؤمن بعوالم الآخرة التي أعدها سبحانه وتعالى لتكون جزاء وفاقاً على الايمان والكفر ،وعلى الاستقامة والاعوجاج، وعلى الخير والشر .

أجل لو علموا ذلك أو بعض ذلك ، لما كفروا بعوالم الآخرة هذا الكفر الصريح ، وأنكروا البعث اليها كل الانكار .

حتى إذا سمعوا المؤمنين يتلون نصوص الوحي اليقيني ، الناطقة بحقائق عوالم الآخرة والانتقال اليها ، سخروا سخرية المجانين ، وهزئوا هزء الحشاشين .

ونحن لا نأسف إذا رأيناهم على مثل هذه البشاعة من قلة الأدب ، لأن الجهل والسطحية تفعل ذلك ، وأكثر من ذلك .

النصوص الدالة أن القرآن الكريم

مشتمل على تأويل مدخر للمستقبل

يؤكد العلم اليقيني المشاهد ، أن القرآن الكريم ، روح من الله عز وجل ، دالّ على شمول علم الله ، وتخصيص إرادته ، ونفاذ قدرته .

ويؤكد أيضاً ، أن الأكوان كلها مبدعة وفق علم الله ، وتخصيص إرادته ، ونفاذ قدرته .

لذلك نجد أن كل ما في القرآن المجيد ، من آيات التكوين ، هو عين ما اقيمت عليه الأكوان ، من دقائق الصنع ، وكمال الاتساق ، وروعة الابداع ، ووضوح الدلائل .

وكم من معجزات أودعها الله ، في آيات القرآن المجيد ، للأجيال القادمة ، ومن أجل أن يدرسوها ويتحققوا في أنفسهم ، أنها كلام الله المعجز المتحدي .

وكم هي النصوص ، التي تعلن أن القرآن المجيد ، مشتمل على تأويل معجز مدخر للمستقبل ، الممتد إلى قيام الساعة .

والقصد من هذه الآيات ، هو اثبات المعجزات اليقينية الآتية ،

وزجر الحمقى الجاهلين ، الذين يفرضون اهواءهم ، على تأويل الآيات إن كانوا من ذوي الأهواء ، أو يفرضون غباوتهم التقليدية ، إن كانوا من الأغبياء المقلدين .

اذن فلدينا موضوعان :

١ – موضوع الآيات التي تنص أن في القرآن ، نصوصاً تأويلها اليقيني مدخر للمستقبل الممتد .

٢ – وموضوع يشرح الآيات ، التي تحمل المعجزات المدّخرة للمستقبل.

وفي هذه الكلمة ، نعرض للدارسين نصوص الوحي ، التي تؤكد من طريق الواقع اليقيني المشاهد ، أن القرآن المجيد ، مشتمل على تأويل خفي متشابه مدّخر للمستقبل ، واليك قسماً منها :

الأول

أفهمنا الله جل وعز في محكم القرآن المجيد ، أن هناك قسماً من القرآن المجيد محكماً ، أي الذي تأويله بيّن لا يحتمل وجهين ، وأن هناك قسماً تأويله خفي متشابه يحتمل أوجهاً ، ومن باب هذا الاحتمال للأوجه يُدخل المفسدون الذين في قلوبهم زيغ التأويل الفاسد الذي يجافي حقائق القرآن اليقينية والعلم اليقيني ، والحق أن التأويل الصحيح للمتشابه يعلمه الله عز وجل ، ويعلمه الراسخون في العلم ، الذين يعلمون صحة التأويل ، وحكمته وواقعه اليقيني ، بما يفيض الله عليهم من نور العلم والحق والهدى ، وهم الذين يؤمنون بكل من المحكم والمتشابه ، ويعلمون الحكمة في وجود المتشابه :

هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ

الكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ ، فَأَمّا الَّذينَ في قُلوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعونَ
مَا تَشابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغاءَ الفِتْنَةِ وَٱبْتِغاءَ تَأْويلِهِ ، وَما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ
إلاَّ اللهُ وَالرّاسِخونَ في العِلْمِ يَقولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ
رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إلَّا أُولو الألْبابِ (٣ — ٧)

الثـــاني

لا ريب أن القرآن المجيد ، هو من رب العالمين ، وإن كان الكافرون يزعمون أنه افتراء على الله ، لجهلهم بحقائق المعرفة اليقينية ، ولو كانوا من أهل العلم لأحاطوا بها معرفة ، ولفهموا معجزات التأويل ، إذ في تأويل القرآن الكريم ما هو مدّخر للمستقبل ، وفيه التحدي المعجز .

أنظر هذه الآيات :

وَما كانَ هٰذا القُرآنُ أنْ يُفْتَرَى مِنْ دونِ اللهِ وَلٰكِنْ تَصْديقَ
الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصيلَ الكِتابِ لا رَيْبَ فيهِ مِنْ رَبِّ
العالَمينَ (٣٧)

أَمْ يَقولونَ ٱفْتَراهُ ، قُلْ فَأْتوا بِسورةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعوا مَنِ
ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ (٣٨)

بَلْ كَذَّبوا بِما لَمْ يُحيطوا بِعِلْمِهِ وَلَمّا يَأْتِهِمْ تَأْويلُهُ كَذٰلِكَ

كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ.

(١٠ ــ ٣٩)

أجل إن هذه الآيات ، تفهمنا أن القرآن المجيد ، هو كلام الله الحق ، وليس فيه افتراء . والبراهين العامية اليقينية المودعة فيه ، تدل أنه كلام رب العالمين ، وهو يتحدى الذين يزعمون أنه مفترى على الله ، بأن يأتوا بسورة مثله مستعينين بمن يؤمنون بقدرهم وألوهيتهم .

والحقيقة العلمية ، تكشف أن تكذيبهم مصدره الجهل ، وليس مصدره العلم ، ولو أنهم أحاطوا بمعجزات القرآن المجيد علماً ، لما جحدوه . على أن القرآن المجيد ، يؤكد لنا أن فيه معجزات مدخرة لأجيال ، لم يأتهم تأويلها بعد ، وعدم الإحاطة بتأويل الآيات التي تحمل المعجزات للمستقبل ، هو الذي حدا بالأقدمين من أهل النحل ، الى التكذيب ، بسبب التأويل الزايغ ، الذي جرهم اليه علمهم القاصر ، عن إدراك تلك المعجزات . على أن القرآن المجيد . ينادي أن فيه آيات مدّخرة حقائقها للمستقبل ، حتى لا نقع في بلايا التأويل الفاسد المدسوس ، أو التأويل الأسطوري ، لأن تداول الحضارات . وتقدم العلم اليقيني ، يكشف معجزات الوحي اليقينية بلا ريب :

وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٤٣ ــ ٨٩)

والله يؤكد للكافرين ، الذين أصروا على كفرهم ، أن معجزات آيات القرآن المجيد ، ستظهر في آفاق الأرض ، وتظهر في أنفسهم ، إذا حرروها من أغلال التقاليد ، تظهر أنها كلام الله الحق :

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤١ — ٥٣)

ولا ريب أن العلم الذي أنزله الله ، ليكشف الحقائق في كل عصر . وليهدم الوثنية والإلحاد ، هو السلطان المطاق من الله عز وجل :

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ . (٣٠ — ٣٥)

ومهما يكن ، فالإحاطة بحقيقة التأويل الدالّ على اعجاز القرآن المجيد ، هي من شأن العلماء المفكرين ، لا مـــن شأن الجهلة العميان ، الذين لا يميزون بين الحق والباطل ، والوحي والأسطورة ، والجهل والعلم :

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ (١٣ — ١٩)

والقرآن الكريم منذ مطلع فجره معروف أنه مشتمل عـــلى قسم من الآيات مدخر تأويلها للمستقبل .

انظر هذه الفقرات من الحديث الشريف الـــذي ورد في حق القرآن الكريم ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعـــالى عنه عن النبي ﷺ قال :

« ان هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوّم ولا تنقضي

عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد ... »[1]

وانظر أيضاً في الفقرات الآتية من الحديث الشريف الذي رواه الترمذي في الجزء الثاني صفحة ١٤٩ عن القرآن الكريم :

« فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبارٍ قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلهُ الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلَق من كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه » .

فأشار رسول الله ﷺ في قوله : « نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم » إلى اكتشاف آثار الأمم السابقة وأخبارها ، كما حدث في اكتشاف أخبار الفراعنة الأقدمين ، والدول العربية القديمة في اليمن ، كدولة سبأ ، وكما يحدث من الأنباء والأخبار التي نشاهدها الآن ، وسوف تستمر إلى قيام الساعة وبعد قيام الساعة ، كأخبار يوم القيامة وما بعده . وأشار رسول الله ﷺ بقوله : « لا يخلق من كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه » ، انه سيظل جديداً على تداول الحضارات ، وتظل فيه غرائب المعجزات والمعارف مدخرة ، تظهر شيئاً فشيئاً ، ليكون القرآن الكريم حجة الله القاطعة ، وبرهانه الكبير للعلم والعلماء إلى قيام الساعة .

اسمع ما يقوله الرافعي في هذا الصدد :

« قد ثبت أن رسول الله ﷺ قُبض ، ولم يفسر من القرآن إلا قليلاً جداً » .

وهذا وحده يجعل كل منصف يقول : « أشهد أن محمداً رسول

---

١ رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن ابراهيم الهجري عن أبي الأحوص عنه وقال تفرد به صالح بن عمر عنه وهو صحيح . راجع الجزء الثالث من الترغيب والترهيب ص ١٧١ .

الله » . إذ لو كان النبي ﷺ فسر للعرب بما يحتمله زمنهم، وتطيقه أفهامهم لجمد القرآن جموداً تهدمه عليه الأزمنة والعصور بآلاتها ووسائلها . فإن كلام الرسول نصٌّ قاطع .

ولكنه ترك تأريخ الانسانية يفسر كتاب الانسانية ، فتأمل حكمة ذلك السكوت ، فهي اعجازٌ لا يكابر فيه إلا من قلع مخه من رأسه ... »[1] .

وتأمل ما جاء في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ص ٥٥ :

« لا شك أن العلوم سوف تكشفُ في المستقبل عن صحة كثيرٍ من الأمور التي وردت في كتب الوحي ولم يصل اليها علمنا بعد » هذا حق واستشهد له المترجم بقوله تعالى :

خُلِقَ الإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آياتي فَلَا تَسْتَعْجِلون .

(٢١ ـ ٣٧)

ومهما يكن منصوص القرآن المجيد ، التي تنص أن القرآن المجيد ، يحمل أنباء معجزات غيبية مدخرة للمستقبل ستُكشف وتُعلم بعد حين ، هي كثيرة جداً :

إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .

(٣٨ ـ ٨٧ و ٨٨)

أجل إن معجزات القرآن الكريم ، ستظهر في كل جيل ظهور الشمس في وهج الضحى ، والكفر بها مخاطرة إلحادية مخيفة ، لأنها تحتم الإصرار

---

١ راجع كتاب إعجاز القرآن ص ١١ للرافعي .

على الكفر والالحاد بالجهل المطبق ، وينبغي أن يتذكر الملحـد الجريء ، هـاتين الآيتين الآتيتين ، فإن مصيره كمصير الذين كفروا مـــن قبل ، عذاب في عذاب ، لا نهاية له ، وهلاك مدمّر :

لِيَكْفُروا بِمَا آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعوا فَسَوْفَ تَعْلَمونَ (٣٤) ١٦ ـ ٥٥
أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كانوا به يُشْرِكونَ .
(٣٠ ـــ ٣٥)

فيجب على الذين يستعجلون بالجهالة والرعونة ، فيلحدون بدون علم يقيني ، وبدون وحي يقيني ، أن يعلموا أن جحود أي شيء أو اثباته، بدون دلائل العلم اليقيني ، والوحي اليقيني ، هو مسئولية ضمير وحريـة وانسانية ، وهذا لا ينبغي أن يصدر من انسان له أثارة من العلم ولمحـة من الفكر ، وحرية في الرأي .

سعة الفضاء وعوالمه

الفضاء

الفضاء أهوالُ أبعادٍ وراء أهوالِ أبعاد.. وعوالمه السابحة فيه بالنسبة لسعته، وأعماق أبعاده، لا تزيد عن نثارة من صغار الأسماك، تسبح في لجج المحيطات، ولا تكاد تبين.

وقد انكشفت هذه السعة وأهوال الأبعاد، عياناً لرسول الله ﷺ، ليلـة المعراج، في أحاديثه الصحيحة. وجاء التصريح بهذه الأبعـاد في قوله تعالى:

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٧٠ - ٤)

وكان من الإعجاز الكبير، الدال عـلى جلال رسالة خاتم الرسل وصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، انكشاف جانب من أبعاد هـذه السعة، لعلماء الفلك المحدثين.

عوالمه

إن العوالم المتناثرة في الفضاء ، سواء أكانت النجوم ذوات الأبراج ، أم الكواكب ذوات الأفلاك ، هي قليلة بالنسبة لسعة الفضاء ، وكثيرة كثيرة ذات أهوال بالنسبة لأعدادها ومواطنها ، وأبعاد بعضها عن بعض، ولا يحيط بها إحاطة تامة كما هي عليه في الواقع اليقيني ، إلا الله عز وجل خالقها العظيم :

وَلِلَّهِ جُنودُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكيماً (٤٨ــ٧)

... وَما يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ .. (٧٤ ــ ٣١)

وجنود الله هي مخلوقاته .

وأقلام الكاتبين لا تحصيها ، ولو كانت الأشجار أقلاماً وبحار البحار مداداً :

وَلَوْ أَنَّما في الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيمٌ (٣١-٢٧)

وكلمات الله هي علومه التي أقام الكائنات بمقتضاها :

إنَّما أَمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أَنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ (٣٦ ــ ٨٢)

بَديعُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَإذا قَضى أَمْراً فَإنَّما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكونُ (٢ ــ ١١٧)

وبدأ الله الكائنات بالطاقة ، التي كون منها الذرات ، ثم العناصر ، ثم مواد الكائنات ،

ثُمَّ ٱسْتَوى إلى السَّماء وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَهــا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قَالَتا أَتَيْنا طَائِعِينَ (٤١ ــ ١١)

وتكاثف الذرات تشبه الدخان تماماً .

وفي نهاية الوجود ، تنحل الذرات إلى سراب ، أي طاقة كما كانت أول مرة :

... كَما بَدأنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُهُ ... ٢١ - ١٠٤

لأن السراب هو انعكاس ضوء الشمس ، والضوء هو من الطاقات . وبعد ذلك يخلق الله العوالم خلقــاً آخر ، يلائم العالم الثـاني ، بنواميسه وسننه ، وتكون العوالم المخلوقة خلقاً جديداً ، هي بدل العوالم الحالية :

يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَــيْرَ الأرْضِ وَالسَّمٰواتُ وَبَرَزوا للهِ الواحِدِ القَهّارِ (١٤ ــ ٤٨)

والله سبحانه وتعالى ، هو الذي نثر عوالم المادة في أبعــاد الفضاء ، فخلق السموات السبع ، وهي من أكبر العوالم وأعظمها أجراماً وأعمقها بعداً ، ويليها عوالم النجوم والكواكب والسُّدم والنيازك .

والحق اليقيني ، أن الأجرام السماويـة ، التي دون السموات السبع ، سواء أكانت النجوم ذوات البروج ، أو الكواكب ذوات الأفلاك ، في كثرة من الأعداد ، وسعة من الأبعاد ، وعمقها وتقديره يُعجز حساب أعلام الفلكيين .

حتى أن مجموعتنا الشمسية ، في عمق أبعاد كواكبها ، التي لم تستوفها بعد مراصد المحطات الفضائية ، لا تزيد بالنسبة لمجرتنا الأرضية ، عن حبات رمل بين هضاب رمال الربع الخالي في جزيرة العرب . ووحي الله اليقيني ، محال أن يكون مناقضاً للحقائق اليقينية في كائنات هذا الفضاء ، لأنه كلام خالقها ومبدعها من أصغر ذرة بل مما هو أصغر من الذرة بمراحل إلى أكبر الأجرام السماوية ، التي لم يصل علم الانسان بعد إلى كشفها والتعرف إلى أبعادها كافة .

اذن فكلام الله فيه من كشف حقائق العوالم العَجب العُجاب ، وفيه من الآيات المعجزة الصارخة المتحدية ، ما تجعل علم الانسان على مختلف الحضارات من أقدم الأزمان إلى يوم القيامة ، لا تزيد عن رشفة ماءٍ من السيل العرم ، بالنسبة لما تحويه من معجزات علم الله جل جلاله .

وما عليك إلا أن تفتح المصحف الشريف ، وتمعن نظرك بعمق وفكر ، متدبراً آياته ، متأملاً في حقائق مدلولاتها ، فإن الله بلا ريب سيكشف لك من الأسرار والعجائب ، ما لم يبلغه حسبانك الآن،وبالحري إذا أضفت إلى تدبّر آيات القرآن الكريم النظر في التفاسير الصحيحة ، التي كتبها شوامخ علماء الاسلام ، فانك حينئذ تدرك جلال أسرار هذه المخلوقات المترامية في أبعاد الفضاء ، التي لا تنتهي أسرارها ولا تنقضي عجائبها ، ولا يعلم أعدادها غير الله عز وجل ، وإن كان علماء البشر، لا يزالون يواصلون دراستها في مراصدهم ومحطاتهم الفضائية ومجامعهم وجامعاتهم ، لأن أهوال سعة الفضاء وكثرة عوالمه تدعوهم إلى ذلك .

اذن فهذه العوالم التي أحاط بها علم الانسان ، ما هي إلا ومضة خافتة حيال لجج فوق لجج من الأضواء التي تبهر الأبصار والبصائر .

وإذا كان هذا جلال علم الله ، الذي أودعه في وحيه ــ القرآن المجيد ــ فكيف لا يكون فيه في كل عصر من المعجزات العلمية اليقينية

ما يُعمق إيمان العلماء الأحرار ويقويه .

ولم لا يعمقه ؟ وفي كل يوم تنكشف من معارفه اليقينية المودعة فيه ، وفي الوجود ما يقدم العلم ، ويحرر العقل ، وينهض بالانسانية إلى كشف مثله العليا .

وهذه المعارف تنكشف لأعلام العلماء يوماً فيوماً . ولن يكون ما بين معارف القرآن المجيد اليقينية وبين معارف الكائنات اليقينية أي تناقض .

لذلك أعلن الله في آياته ، أن علم العلماء بالنسبة للمعارف المدخرة في العوالم قليل جداً ، فما لك بعوالم الطاقات وعوالم السموات السبع وما وراءهن تحوي من المعارف الخفية ما تنحسر دونه العقول . وتعيي عن الإحاطه به الأفكار .

تفكر وافهم ، وتحرر من سلطة ثقافتك المحدودة ، الموروثة وتقاليدها العمياء الرعناء ، قبل تلاوة هذه الآية الكريمة المعجزة :

وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَليلاً (١٧ ــ ٨٥)

والعلم القليل لا يحقق شيئاً ، فكيف يتمكن أن يحقق كنه عوالم الروح وسعتها وسننها ونواميسها ، وكيف يستطيع أن يزيح عن أستار معارفها ظلمات الجهل المتكاثفة . وقد استطارت في شتى النحل وتغلغت في أساطيرها وعقائد المتخلفين من أهلها، وتراكمت ثم تراكمت حتى أصبحت مثل سور ذي القرنين لا ينقب إلا بقدرة الله تعالى . لأن سمكه في القلوب وفي النفوس وفي العقول قد استحكم وتفاقم حتى في المعابد والكتب والصحف، وفي تقاليد الأمم المتوارثة حتى تصل بهم عصبية الإستمساك بتقاليد الآباء إلى أن يجحدوا نور الحق اليقيني ، ولو كان أسطع من نور الشمس :

وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِنْ نَذيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفوها إنَّا وَجَدْنا آبَاءَنا على أُمَّةٍ وَإنَّا عَلى آثَارِهِمْ مُقْتَدونَ .
(٤٣ ــ ٢٣)

بل تجدهم يجحدون الواقع المعاين لهم المحسوس ولا يبالون ، تأمل ذلك في قوله تعالى :

وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلوا فِيهِ يَعْرُجونَ (١٤)
لَقالوا إنَّما سُكِّرَتْ أبصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورونَ (١٥ ـ ١٥)

أسباب الجرأة على الكفر بوحي الله اليقيني

العلماء المتعمقون في دراسة وحـــي الله المعجز — القرآن المجيـــد — يدهشون أشد الدهشة ، من جرأة جاحديه المثقفين .

١ — لأنهم يعلمون أنهم قادرون عـــلى البحث والنظر والتمييز بـــين الحقائق اليقينية في الأديـــان وفي معارف البشر ، وبين الظنون والأوهام والأساطير السائدة في المجتمعات كلها .

٢ — ولأنهم يعلمون أن الحضارة التي يتمتعون بمخترعاتها الباهرة ، وبمعارفها اليقينيـــة ، هي ثمرة كفاح العلماء وسهرهم المجتهد ، في سبيل تحريرها من الظنون والأوهام ، وبذلهم حياتهم من أجلها ، لتظل صافية صحيحة . وما دام الأمر كذلك ، اذن فلماذا يكفرون بحقائق خاتم الوحي الإلهي — القرآن المجيد — اعتباطاً . بدون أي علم وفكر ، وبدون أي درس ونظر ، وبدون أية حجة وبرهان ، وبدون أيـــة روية وتعمق ، وبدون أي اكتراث ووخز ضمير . قل هذا جهلٌ هذا حمق .

أما يحذرون لعنـــة المسئولية التاريخيـــة ، ومِحَنَ هدم الحق يوم الدينونة ، وفضيحة العلم اليقيني ، ومقتَهُ لهم ، وسخرية الأجيال العالمة الآتية .

وهل من مُقعِدٍ لأبناء الانسانية عن متابعة الصعود العلمي ، وهل من هادم لصروح حضارتهم الجامعة ، وهل من مقوض لمنابر معارفهم الشامخة . وهل من زارع لأحقاد الأدغال الوحشية بينهم ، سوى الجناة المعرضين الداسين في صميم حقائق الأشياء ومعارفها اليقينية ، ما هبّ ودبّ من الظنون والمفتريات والأوهام والفروض والأساطير .

وهؤلاء هم الذين دسوا ويدسون في يقين خاتم وحي الله القرآن المجيد . التأويلات الفاسدة والمذاهب الهدامة .

ولا يشفي من داء هذا الحقد الأرعن الوحشي ودسائسه سوى معاودة الدرس الحر النزيه العالي المصفي .

وهأنذا أهيب بالشبان المثقفين المفكرين الأحرار في العالم ، الذين يرغبون أن يتبينوا بدلائل البحث العلمي القطعي ، الأسباب الحقيقية التي من أجلها جحد الجاحدون حقائق وحي الله اليقيني ، بسذاجة وجهل ورعونة ، وبدون مبالاة .

أهيب بهم أن ينعموا أنظارهم العميقة الناقدة في الأسباب الآتية :

السبب الأول : دس وساوس الالحاد في عقائد الطلاب

دسُّ وساوس الالحاد في عقائد الطلاب الشادين ، الذين يصدقون كل ما يسمعونه ، ويحسبونه عين واقع العلم اليقيني الملموس ، دون أن يخطر ببالهم ، أن الظنون والمفتريات والأساطير ، هي أكثر ما تُدس في عقائدهم ، باسم الحرية والانطلاق والعلم والحضارة الصاعدة .

وان أندر شيءٍ يتلقونه هو يقين العلم في عقائدهم الدينية ، وفي مختلف حقائق المعرفة الاجتماعية .

ولو كان العلم والحق يسير مسيرته التثقيفية الواقعيـة المحررة الصاعدة في سائر ألوان المعرفة ، لما كان ثمة تخلف إلحادي مهووس متهافت في حقائق الوحي الإلهي اليقيني .

ولا عجب إذا شاهدنا هوس الإلحاد التلقيني وأحقاده وخصوماتـه وغواياته ومسلماته الساذجة تستطير متفاقمة في أحاديث بعض الشبان الذين لا يميزون بين العلم والظن ، والحق والباطل ، والوحي والأسطورية .

هذا الهوس الساذج الجاهل ، هو الذي جعلهم يسلكون الأديان جميعاً أياً كان مصدرها في سلسلة الأساطير السوداء .

وكيف لا يكون مهووساً ساذجـاً جاهلاً ، من تتساوى في نظره المكسوف ، معجزات القرآن المجيد المتحديـة ، وترهات أسفار الوثنية المدونة لعبادة الحيوان والنبات والأحجار .

وكم هم الذين يؤثرون الإلحاد ، أو ترهات أسفار الوثنية ، عـلى حقائق المعرفة اليقينية المتحدية في إعجاز القرآن المجيد .

يؤثرونها بجهل التقليد ، بتلقين العصبية ، بدعاية التحرر ، بايثار حب التظاهر ، بسطوة الاستمرار ، وتماسك حلقاته الروحية المتتابعة في الأجيال.

ومهما يكن فالإلحاد إذا تمكن من المجموعة النفسية الساذجـة ، فإن صاحبه لن يؤمن بوحي الله اليقيني ، ولو صعدت به براهين يقين العلم ، إلى علياء السماء في ألف معراج مشعشع بأنوارها الكاشفة .

السبب الثاني : الخوف على المكانة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية

إذا داخل فكر الانسان الخوف على مكانته الاجتماعية أو الاقتصاديـة أو العلمية فيما لو آمن بوحي الله اليقيني . فانـه حينئذ لا يؤمن ،

ولو هتفت به كل هواتف السماء والأرض أنـــه حق حق ، وأنه علمي علمي ، وأنه إنساني إنساني ، وأنه نافع ومنقذ من كل المهالك ، ومن كل الأهوال المدمرة ..

أجل هو يرفض أن يدين بخاتم وحي الله الحق ، ويرضى أن يدين بالإلحاد ، ولا يبالي ، ولو علم أن إلحاده يورثه مقت الله والعلم ، وعذاب العالم الثاني ، ونقد شوامخ العلماء .

والحق أن أكثر البشر ، لا يبالون بعذاب الآخرة ، بمقدار ما يبالون بنعيم الدنيا .

ذلك لأن إيمانهم أو كفرهم بأي شيء :

- ليس باعثه إنعام النظر الناقد الأمين .
- وليس منبعه البحث الحر العميق .
- وليس منبعه طلب يقين العلم والحق الصريح .

ومن كان هذا شأنهم – فكيف يرجى منهم أن يؤمنوا بخاتم كتب السماء ، أو يبصروا أنواره ، وإن تفجرت بها كل مصابيح المعرفة اليقينية . ما دامت عقولهم وقلوبهم وبصائرهم مهووسة متحجرة عمياء .

السبب الثالث : الخوف على السلطان السياسي وسواه

خوف ساسة الأمم وقادتهم عـــلى زوال سلطانهم السياسي ، وتداعي سيطرتهم الاقتصادية ، وضعف عددهم الدفاعية ، وذوبان قوميتهم فيما لو آمنوا بمثل وحي الله العليا ، التي أوحاها في القرآن المجيد ، على خاتم رسل الله محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الخوف مزيف ، ومصدره الأراجيف التي دسها في التاريخ أعداء

مثل وحي الله العليا الظالمون .

هو خوفٌ باطل يهدمه واقع الحق اليقيني .

أما يعلمون أن الأمم التي آمنت بمثل وحي الله العليا ، بعد عدائها له ، وصدودها عنه ، وقتالها له كالعرب والأتراك وسواهما ، قد اعتزت وسادت ، وشادت ، وقادت .

أما كان الأخلق بهم ، أن يعودوا إلى حقائق تاريخ الدعوة الإسلامية ، ويفصلوا عنها دسائس الدساسين المجرمين ، الذين زيفوا يقين معارفها بخبائث نفسياتهم المنحطة ، ولوثوها بأوبئتها ، بدلاً من أن يأخذوها قضايا يقينية مسلّمة .

شهد الله لو اطلعوا على تاريخ العرب قبل إيمانهم بوحي الله وبعده ، وإلى تاريخ الأتراك ، وسواهم من الأمم ، لما أحجموا عن اعلان الايمان به ، مهما كانت الظروف .

يا هؤلاء ، هل سمعتم أن الايمان بوحي الله اليقيني ، يفرض على الأمة التي تؤمن به أن تتنازل عن وحدتها ، وشوكتها ، وسلطانها في الأرض ، لا لا ، كل الذي يفرضه وحي الله على الأمة التي تؤمن به ، أن تبذل وسعها في اعداد عدد الدفاع ، للإرهاب ، والسلم ، وصد مفاجآت ظلم البشر المتخلفين .

وكل الذي يفرضه وحي الله اليقيني ، أن تتخذ الأمة التي تؤمن به ، سلطانها ، ومعارفها ، وامكانياتها ، لنصرة الحق ، والحرية ، والعلم ، والايمان والخير ، ورفع الشرك والوثنية والظلم من الأرض ، ودعوة التعارف والتآلف بين الناس ، واخلاص الصدق في المعاملات كافة . وأن يكون ذلك مثلها الأعلى العملي الذي تدعو اليه الأمم جميعاً ، أفراداً وجماعات .

السبب الرابع : النزوات الشاعلة

النزوات المتفاقمة الشاعلة تسحق ارادة الايمان بيقين وحي الله سحقاً ، وصيحة أعاصيرها في الأعماق تدمرها تدميراً ، حتى تطير بها خنائثها كل مطار ، وتجعلها لا تستقر على حال كأنها الهباء .

وأنى يكون لمثقف مع وقيد النزوات الآثمة المستطيرة ، ارادةٌ موجهةٌ هاديةٌ تعصم من طغيان الالحاد بواقع وحي الله اليقيني .

أجل أنى يكون ذلك ، وطبيعة الايمـــان تفرض استقامـة السلوك ، وتوجب كبت النزوات الآثمة، وتحطم الآثمين الذين يستبيحون الحرمات، والرشى وخيانة الأوطان ، قصد الوصول اليها وعبها عبـاً جنونياً .

اذن فتعمد جمهرة الشبان المثقفين في الغرب ، أن يمارسوا الالحاد ، بوحي الله اليقيني رغم براهينـــه الواقعية الأكيدة ، سببه نزواتهم الملتهبة الفاجرة ، ونفوسهم الغاوية العاصية ، وقلوبهم اللهيفة الجاحدة .

ولو علم أولئك الشبان الغربيين ، ومن نشأ عـــلى شاكلتهم ، أن الإسلام ليس هو أغلالاً مـــن الفولاذ ، يفرض سهر الليل : صلاة وضراعة ، وسبح النهار ، تبتلاً ودعاء ، وإنما هو كمال في الاعتدال يبيح المُتعَ الفطرية الطـــاهرة ، التي جعلها الله مصايد لاستمرار الحياة الكريمة ، وفق دواعي الحضارة الإنسانية العالية ، المتطورة من الصلاح إلى الأصلح ، الى المثل الأعلى الممكن . دون أن تركب الإنسان ، فوادحُ عرام النزوات الآثمـــة ، وآفاتها القاتلة ، من جراء إنفلاتها الحيواني ، الخاسر ، المتخلف ، السادر على قرنيه إلى تحول حياته الى نزو ، وختل، وترصد لفريسة وراء فريسة سلسلة الموت القصيرة القاصمة .

ومن كانوا من شبيبة المدنية الحديثة ، وكانت هاتيك أعمال أعمارهم..

فإنهم لا يطيقون الإيمان بمثاليات ـ وحي الله ـ وإن كان حجة العلم اليقيني المتجدد ..

وتجد على لمحة من الخلق ، من لم يتندر بوحي الله وأهله سخريةً وعبثاً .

إذن فلا تأمن من هؤلاء وأولئك ، أن يؤمنوا بمثل وحي الله العليا، ولو قدمت لهم في كؤوس يقين المعرفة ، التي لا خلف فيها بين العلماء، ما دامت تلك أعمال أعمارهم في الحياة .

السبب الخامس : انطباعات المجموعات النفسية على مواريث الأدغال

جماهير مجتمعات البشر الراقية ، بله ما دونها ، لا تزال انطباعات مجموعاتها النفسية ، غارقة في خسران مواريث الأدغال . والكهوف ، والغابات .

ولا تزال حراب أظافرهم ، وبراثن أشداقهم الفاغرة ، الناهشة ، ماثلة بصورة مخيفة مدمرة للأمم والشعوب في قنابلهم الذرية والهيدروجينية، حتى لو جمعت كل ما فتكت به وحوش الغابات والأدغال والكهوف ، في ألف ألف قرن ، لفتكت بأضعافه في لحظة واحدة ، وحوش مدنيتنا الصاعدة على سطح القمر .

ألا ترى هياج المتقاتلين في عصرنا ، كهياج الوحوش الكاسرة ، وترصدهم ترصدها وبغتات ختلهم ووثبهم وبطشهم هي هي .

وجاء اقتدارهم على الصعود على سطح القمر داهية الدواهي . لأنهم امتلكوا القوى التي أصعدتهم إليه ، والقادرة على إبادتهم جميعاً .

ومجموعات نفسياتهم هي مجموعـات نفسيات وحوش الغـاب ، في حركاتها ، وسكناتها ، وفتكاتها ، ولا عبرة بمظاهر المدنية الفتانة ، لأنها تُفرح البصر وتغم البصيرة .

من أجل ذلك لم يستطع فحول علماء الحضارة الانسانيون الأمنـاء ، الذين اقتنعوا أن خاتم وحي الله اليقيني ــ القرآن المجيد ــ هو عين يقين العلم الإلهيَ ، وأنه حق وصدق ونور وهدى للناس كافة ، لم يستطيعوا أن يعلنوه من وجهة السلوك العملي ، كما أعلنوه من وجهة العلم القطعي .

نعم هم اكتفوا أن يعلنوا قناعتهم به في كتاباتهم الرائعة الكاشفة لخفايا معارفه العالية في آياته الكريمة ، مما لم يصل إلى مثله قدامى علماء الإسلام الذين ورثوه عن قناعـة ، وتمحيص ، وتحقيـق ، وتدقيق ، ودرس طويل ، ونقد علمي قطعي نزيه .

ولمسوا تفوقه الأكيد على كل ما في الدنيا من نحلٍ ومذاهب وفلسفات وأسفار وثنية متوارثة منذ أبعد الأزمان .

ولا ريب أن الذي حال دون اعلان قناعـة اولئك العلماء الشوامخ ، بخاتم وحي الله ــ القرآن المجيد ــ من الوجهة العمليـة السلوكية ، شأن المؤمنين في بيئاتهم الراقية ، هو انطباع نفسيات جماهيرهم بمواريث الغاب . وبألوان التفكير البدائي الوثني المتخلف ، وانقيادهـا لتوجيهاتهـا الحاقدة الرعناء ، التي تكون عادة في واجهـة تمثيل الأمة ، لصدهـا بالنبال ، والرماح ، والسيوف ، لدى كل صعودٍ حضاريٍ انسانيٍ عالٍ .

وإن كانت الأمة تعيش في بيئات راقية صاعدة تقدس حريـة العقيدة وتذود عنها ..

ومع كل ذلك فإنها لا تحتمل اعلان الايمان الجماعي العملي من فئة رجال الحل والعَقد ومن زمرة شوامخ العلماء ورؤساء رجـال الدين ، كما فعل

اللورد هدلي في انكلترا وأمثالـه ، ممن أعلنوا إسلامهم ولا تحصيهم معلمة ..

ولن يكون مثل هذا التسامح الكبير من الجماهير لدى الأمم كافـة ، وانطباعات مواريث الأجيال هي العاملة الموجهة لمجموعاتها النفسية .

أجل لن يكون مثل هـذا التسامح المقرون بالرضا والمودة والأمن ، إلا بعد حقب وحقب . تتعمق معارفهـا اليقينية عوالم الطاقات الروحيـة تعمقها معارف عوالم المادة ، وتفصل علومها تفصيلها وتغربلهـا وتطرح منهـا زوان أساطير الوثنيات ، وترهات الشرك . حينئذ يصبح هدف الجماهير كافة ، واشواقها وتبتلهـا هو كشف المعارف اليقينية ، في كل عوالم الطاقات العاقلة ، كما هو في العوالم المادية .

ومتى صعدت جماهير الأمم كافـة إلى هذا المستوى العلمي العـالي ، فحينئذ يصبح الانسان في كل مواطنه انساناً حقاً ، ويموت فيـه وحش الغـاب الفتاك الحقود ، الضيق الفكر ، والنفس ، والعقل ، والعلم ، والعاطفة .

وحينئذ ترى رجـال الحل والعقد ، ورجال العلم اليقيني ، ورجال الأديان الذين أعلنوا قناعتهم من الوجهة العامية ، بخاتم الوحي الإلهي ، والتزموا عقائده وعباداتـه في خلواتهم ، يعلنون كل ذلك على رؤوس الأشهاد في كل أمة دون حذر ، وخوف ، وتربص . ما داموا وثقوا أنهم يعيشون بين جماهير مهذبة راقيـة عالمة ، تقدس حريـة العقيدة ، قداستها السماوية ، وتدرك أنها سر حقائق المعرفة والحضارة والانسانية . وأنها سر السمو الروحي والتعـالي عن صغائر الأنانيات ، والمنازعات ، والمخاتلات ، الوحشية البشعة ، وحينئذ تصرع مواريث الأدغال ، التي لا طائل تحتهـا ، سوى الانقضاض والوثب والفتك والنهش ، تصرع أبدياً لا رجعة بعدها .

السبب السادس : الدعاية الكاذبة

الدعاية الكاذبة في كل شيء ، ذات تأثير اجرامي كبير ، يجعل الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، وفي الوقت نفسه محطم لوحدة الأمة وممزق لكلمتها ، وملوث لحقائق تاريخها لدى الآخرين .

والشعوب الغربية ، لولا الدعاية الاجرامية الكاذبة ، ضد سيرة خاتم رسل الله ، وما أنزل عليه من وحي معصوم عن الزيادة والنقص ، وتأويلات الدس الأسطوري ، لكانوا أسبق إلى اعتناقه ، وتأييده من الشعوب الشرقية ..

وخاتم الوحي الإلهي ، لا تؤخذُ حقائقه من مكاتب الدعاية العالمية ، ولا من الصحف والمجلات ، لأن تلك المكاتب مأجورة ومقيدة، والصحف والمجلات أبعد ما تكون عن كشف الواقع اليقيني في الأشياء ، إذا كان ذلك يناقض اتجاهاتها ، الملتزمة بها من قبل فئات يعيشون في الحياة ، لتخريب كل حقيقة علمية يقينية ، لا تكون وفق أهوائهم .

اذن فكيف تكون أمينة على كشف حقائق وحي الله ، ودعوة الايمان الحق ، ما دامت هي مؤسسة لغير ذلك .

وشبان الحضارة الحديثة ، المفكرون ، الواعون ، في أشد اللهفة لكشف الحقائق في كل ذلك .

وهم يتوقعون من مثل هذه الدراسة ، الاهتداء إلى وحي الله اليقيني . الذي فيه علاج كل أمراض الجماعات الانسانية وأفرادها ، وفيه توحيدها وسموها وسعادتها وتطهيرها ، من أحقاد الغابات والأدغال والكهوف والموروثة المتغلغلة في اللحم والدم ، وفي عالم المجموعة النفسية .

المَوضُوع الثَالِث

شرحُ لغويّاتِ سُورَةِ يا سِيْن

(١) يس : انسان .

(٢) والقرآن : الواو واو القسم والقرآن مقسم به .

(٣) الحكيم : أي ذو الحكمة المشتمل عليها .

(٤) الصراط : الطريق .

(٥) المستقيم : الذي لا عوج فيه .

(٦) لتنذر : لتخوف .

(٧) غافلون : أي في غفلة عن حقيقة الرسالة .

(٨) لقد : اللام دالة على قسم محذوف والأصل: والله لقد .

(٩) حق : وجب عليه .

(١٠) القول : المنصوص على تعذيب أكثرهم الذين يرفضون الايمان .

(١١) أعناقهم : رقابهم .

(١٢) الأغلال : القيود التي تشد بها الأيدي إلى الأعناق .

(١٣) مقمحون : غاضون أبصارهم مع رفع رؤوسهم .

(١٤) الأذقان : مفردها ذقن ، والذقن هو أسفل الوجه .

(١٥) سداً : البناء الذي يكون حاجزاً فلا يُنفذ منه .

(١٦) فأغشيناه : فغطيناه .

(١٧) الذكر : هو القرآن الكريم لأنه ذو الذكر والشرف .

(١٨) آثارهم : أعمالهم .

(١٩) أحصيناه : دوناه وسجلناه .

(٢٠) إمام مبين : اللوح المحفوظ .

(٢١) القرية : انطاكية .

(٢٢) فعززنا : فقويناهم بشخص ثالث .

(٢٣) تطيرنا بكم : تشاءمنا بكم .

(٢٤) البلاغ : التبليغ .

(٢٥) لنرجمنكم : لنضربنكم بالحجارة .

(٢٦) وليمسنكم : من المسّ وهو الوصول إليكم .

(٢٧) طائركم : شؤمكم ، والمراد به شؤم الكفر .

(٢٨) ذكرتم : وعظتكم .

(٢٩) يسعى : يسرع في مشيه .

(٣٠) المرسلين : رسل الدعوة الى الله الذين وصلوا مدينة انطاكية .

(٣١) لا يسألكم أجراً : لا يطالبونكم بأجرة على قيامهم بدعوتكم إلى الهداية .

(٣٢) فطرني : خلقني وأوجدني .

(٣٣) لا تغني عني : لا تدفع عني .

(٣٤) ينقذون : ينجون .

(٣٥) ضلال : التحير .

(٣٦) صيحة : صوتاً مهلكاً .

(٣٧) خامدون : ميتون .

(٣٨) يا حَسْرةً : يا ندامة .

(٣٩) كم : كثير .

(٤٠) القرون : الأجيال والشعوب .
(٤١) لا يرجعون : لا يعودون اليهم في الدنيا .
(٤٢) كلّ : كل الأجيال والشعوب .
(٤٣) لدينا محضرون : يوم القيامة يحضرون بين يدي الله .
(٤٤) وآية لهم : وعلامة لهم .
(٤٥) الأرض الميتة : الخالية من الحياة النباتية .
(٤٦) جنات : بساتين .
(٤٧) وما عملته أيديهم : وما صنعته أيديهم .
(٤٨) الأزواج : مفردها زوج وهو يطلق على الذكورة والأنوثة وكل شيء من إنسان وحيوان ونبات هو أزواج .
(٤٩) نسلخ منه النهار : السلخ هو إخراج الشيء من لباسه ومنه اخراج الحيوان من جلده وهنا إخراج النور الذي يلبس الظلام ويغطيه .
(٥٠) لمستقر : للمكان المعدّ لها .
(٥١) العزيز : القوي .
(٥٢) العليم : بما كان ويكون .
(٥٣) منازل : منازل القمر التي يبدو فيها .
(٥٤) العرجون : هو عذق التمر بعد إزالته عنه .
(٥٥) القديم : إشارة الى انكماشه وتقوسه .
(٥٦) الفَلَك : الطريق الفضاء الخاص لكل كوكب .
(٥٧) يسبحون : يسيرون في الفضاء مسيرة الفُلْك في البحر .
(٥٨) الفُلْك : السفينة .
(٥٩) المشحون : المحملة .

(٦٠) ذريتهم : أولادهم .

(٦١) من مثله : من مثل الفلك .

(٦٢) فلا صريخ لهم : فلا مغيث لهم .

(٦٣) ينقذون : يخلصون من الغرق .

(٦٤) معرضين : منصرفين عنها .

(٦٥) صيحة واحدة ، نفخة البعث .

(٦٦) يَخِصمونْ : يختصمون .

(٦٧) فلا يستطيعون : لا يتمكنون من الوصاية .

(٦٨) يرجعون : يعودون إلى منازلهم .

(٦٩) الصور : البوق .

(٧٠) الأجداث : القبور .

(٧١) ينسلون : يخرجون سراعاً .

(٧٢) فاكهين : متنعمين .

(٧٣) الأرائك : السُرر .

(٧٤) متكئون : جالسون .

(٧٥) يدعون : يشتهون .

(٧٦) وامتازوا : انفصلوا .

(٧٧) المجرمون : العصاة .

(٧٨) ألم أعهد إليكم : ألم آمركم .

(٧٩) جِبِلاً : خلقاً .

(٨٠) اصلوها : احترقوا بها .

(٨١) طمسنا : أعميناهم .

(٨٢) أنى : كيف .

(٨٣) استبقوا الصراط : ليتخطوه .

(٨٤) يبصرون : ينظرون .

(٨٥) المسخ : تحويل الصورة الى ماهو أقبح منها .

(٨٦) مكانتهم : مكان معاصيهم .

(٨٧) نعمره : نطيل عمره .

(٨٨) ننكسه : نرجعه إلى ضعفه الأول حين كان طفلاً .

(٨٩) حياً : حياة الانطلاق من قيود التقاليد المميتة .

(٩٠) أنعاماً : مواشي وهي الأبل والبقر والأغنام .

(٩١) ذللناها : أخضعناها لهم .

(٩٢) آلهة : أرباباً من أفراد الكائنات .

(٩٣) جند محضرون : عابدو الآلهـه هم جنودهـا الذين ينصرفون ويدافعون عنها .

(٩٤) خصيم : مخاصم ذو بيان .

(٩٥) ضرب مثلاً : لإنكار البعث .

(٩٦) رميم : بالية متفتتة .

(٩٧) انشأها : خلقها .

(٩٨) الشجر الأخضر : هو الذي يمتص حرارة الشمس ويختزنها .

(٩٩) العليم : بتكوين ما خلق .

(١٠٠) سبحان : تنزيهاً له من العجز وكل نقص .

(١٠١) ملكوت : الملك الحقيقي للشيء ايجاداً واعداماً .

(١٠٢) واليه ترجعون : يوم القيامة .

انتهى تفسير الكلمات وبيان مدلولاتها ...

المَوضُوعُ الرَابع

تفسِيرُ سُورَة يَاسِين

يس (١)

ياسين هي إنسان في بعض اللغات القديمة ، وقد وجدت ذلك في اللغة العربيــة ، لدى قبيلــة طي : كما نُقِل ذلك عن ابن عباس ... وهي مؤلفةٌ من أربعة أحرف في النطق ، وهي إذ يُبتدأ بها في هذه السورة المباركة ، التي هي قلبُ القرآن ، يُبتدأ فيها خطاً بحرفين ، مع اشارة مد الياء « يس » . وقد دلَّت على معنى انسان ، في تسمية النبي الياس بهــا في سورة الصافات . كما جاء في قولــه تعالى : « سلامٌ على إل ياسين » ، في قراءة حفص . وفي قراءة « عــلى آل ياسين » . وإل هي أداة تعريف : بمعنى هو ، وهذا يوجـد في بعض اللغات القديمــة والحديثة .

وأطلق الله على خاتم انبيائـه سيدنا محمد ﷺ « يس » لأنــه هو الانسان الكامل الذي تجمعت فيه كل صفات الكمال .

وبعض المفسرين يرى أن لفظة يس علمٌ على السورة وبعضهم يراها من قبيل الحروف المشتملة على أسرار خاصة لرسول الله ﷺ .

والقُرْآنِ الحَكِيمِ (٢)

والواو للقسم ، والقرآن مُقْسمٌ بـه وقد أقسم الله به . فكأن المعنى

أنا الله رب العزة ومنزلُ القرآن على محمد أُقسم بالقرآن أن محمداً من المرسلين .

الحكيم أي المشتمل في كل آياته على الحكمة المحكمة التي هي واقع الحق اليقيني .

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)

إن حرف تأكيد واللام في لفظة لمن هي أيضاً تفيد التأكيد . فكأنَّ الله عز وجل يقول أقسم بالقرآن وأؤكد وأؤكد إنلك يا محمد من المرسلين أي من رسلي الذين أرسلتهم لهداية الخلق إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)

الصراطُ – هو الطريق – المستقيمُ الذي لا عوج فيه ولا تشعب أي يُفضي بالناس إلى الايمـان اليقيني بالله عز وجل والى مـا يصلح حالهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة بدون التواءات وتعرجات تضل ، ولا تهدي .

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥)

العزيز هو القوي المهيمن على كل شيءٍ بسلطانه وقهره وهو في الوقت نفسه الرحيم بخلقه . ورحمته وسعت كل شيء . ومـا إنزال كتب الوحي وارسال الرسل إلا دليلٌ على رحمته الواسعة الشاملة . وآيات هذا القرآن مشتملةٌ على كل ذلك لأن الكلام صفة الموصوف .

لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦)

الانذار هو الدعوة إلى الاصلاح بالترهيب .

والتبشير هو الدعوة إلى الاصلاح بالترغيب .

ولما كان العرب في الجاهلية بعدوا كل البعد عن أضواء الحنيفية السمحة دين ابراهيم الخليل وركبوا رؤوسهم في ألوانٍ من الوثنية وأنواعٍ من الاشراك والالحاد واتبعوا المظالم والشهوات واختلفوا وتنابزوا وتفرقوا (أيدي سبا) ناسب أن تكون الآية فيها الانذار لأن آباءهم الأقربين لم يرسل اليهم رسل لذلك كانوا في غفلةٍ عن اصلاح وحي الله ومثله العليا. فلا بد لهم من الترهيب ليكفوا عما هم فيه ، ويأخذوا بوحي الله المنزل : القرآن الكريم من قريب .

لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ (٧)

اللام الداخلة على « قد » هي لامٌ دالةٌ على قسمٍ محذوف . والقول الذي حق على أكثرهم ووجب هو مؤاخذتهم بسبب اعراضهم واصرارهم على الكفر ، فكان المعنى : والله لقد ثبت ووجب العقاب على أكثرهم الذين أصروا على الكفر .

إِنَّا جَعَلْنَا في أَعناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحونَ (٨)

الأغلال هي القيود التي تُشدُّ بها الايدي الى الأذقان حتى لا يستطيع المشدودون بها المقمحون أن يحركوا روؤسهم يميناً أو يساراً وهذا هو مثلٌ لجمودهم على تقاليدهم الجاهلية وأساطير إشراكها ووثنياتها . والأقماح هو رفع الرأس إلى الأعلى بسبب شده بالأغلال دون استطاعة تحريكه . وهذا هو حالهم لجمودهم على تقاليدهم ...

وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْديهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرونَ (٩)

وهذا تصويرٌ آخر في منتهى البلاغة والبيان لأنه صوّر الكافرين

المستمسكين بتقاليدهم كالذين هم في مكان ضيق ، وأمامهم سدٌّ ومن خلفهم سدٌّ حتى غرقوا في الظلمات فلا يبصرون شيئاً .

وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنونَ (١٠)

لأن من كان في مثل هذه الصورة التي ذكرها الله عنهم ، فإنه لا أمل في إيمانهم ، سواء خوفهم الداعي من عاقبة الكفر أو لم يخوفهم.

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)

نعم يفيد التحذير بالآيات ذوي العقول الأحرار الذين يتبعون الحق ولا يبالون بتقاليدهم إذا ظهر لهم الحق ويعلمون أن الرحمن ليس هو هذه الآلهة التي تعبد من أحجارٍ وأبقارٍ وبشرٍ وسوى ذلك .. وهؤلاء يؤمنون به بالغيب وهم المبشرون بالغفران والأجر الكريم .

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)

هذه هي صفات الرحمن ، لا آلهتهم تلك . إذ هو يحيي الأموات ويُحصي أعمالهم التي باشروها في الدنيا ، وما خلّفوا بعد موتهم من آثار ، وكل ذلك مسجلٌ عليهم في كتابٍ لا غموض فيه ولا إبهام ، وهو الإمام المبين .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلونَ (١٣)

وهذا المثل المضروب لهم الذي تحقق فيهم كما تحقق في أهل انطاكية

من قبل ، هو من إعجاز القرآن الغيبي ، لأن الله وحده هو الذي كان يعلم نهاية أولئك الصناديد من الكفار الذين صُرعوا في غزوة بدر ، ولا يعلم بذلك أحدٌ من قبل بل هم سخروا من إنذار هذا المثل لأنهم كانوا في ذروة القوة ، وكان رسول الله ﷺ ومن كانوا معه في مكان من الضعف مشاهد لهم فلا يمكن أن يتصوروا انطباق هذا المثل عليهم .

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤)

وهذه الآية وما بعدها تفصيلٌ للمثل المضروب لهم . والذي يمثل نهايتهم بعد قولهم ، لأن الله أرسل إلى أهل انطاكية اثنين من الرسل فأصروا على تكذيبهما فقواهم بثالثٍ فأعلن الثلاثة أنهم مرسلون اليهم ، فكان جوابهم ما يأتي :

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥)

فهم أنكروا رسالتهم لا لشيءٍ إلا لأنهم بشرٌ مثلهم ، وهذا أوهن سبب في الانكار ، ومن أجل ذلك نفوا عن الله ارسالهم ونسبوا اليهم الكذب على الله . فكان ردهم محكماً لطيفاً إذ أكدوا ارسالهم اليهم .

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)
وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧)

وبمقتضى علمهم أن حرية العقيدة ممنوحة من الله ، لكل انسان ،

لذلك تركوا لهم الخيار في ايمانهم ، أو في عدمه ، وأعلنوا أن واجبهم هو تبليغ دعوة الايمان .

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)

ولكن هؤلاء الكفار لم يفطنوا لحرية الدعوة بالحسنى وجلال أقدارها وكبير منافعها لهم بل أعلنوا أنهم تطيروا بهم وتشاءموا وهددوهم برميهم بالأحجار وانزال العذاب الأليم بهم ، إن استمروا في دعوتهم هذه .

قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩)

وقد أفهمهم المرسلون أن تشاؤمهم بهم هو منبعثٌ من نفوسهم فهو معهم أينما ذهبوا ، لذلك كان تشاؤمهم من تذكيرهم لهم ونصحهم اياهم هو تجاوز لحدود العلم والحق والوحي . وهذا هو الاسراف .

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)

اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١)

أقصى المدينة المقصود به مزارعها البعيدة عن العمران المتصلة بها . والعادة أن هؤلاء الريفيين يؤمنون لدعوة الحق ، وهذا رجلٌ منهم قد بلغه ما أصاب المرسلين من أهل المدينة ، فجاء يجري ناصحاً قومه باتباع المرسلين ، لأنهم على الحق ، واتباعهم له لا يكلفهم اجراً ومالاً يدفعونه اليهم لأن مقصدهم الوحيد هو الأخذ بالهداية التي يحملونها ويبشرون بها .

وَما لي لا أَعبُدُ الّذي فَطَرَني وَاليهِ تُرجَعونَ (٢٢)

أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِــهِ آلِهَةً إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنقِذونِ (٢٣)

إنّي إذاً لَفي ضَلالٍ مُبينٍ (٢٤)

فهذا الرجل الذي جـاء إلى القوم الكافرين المتنكرين للرسل أفهمهم أن الهداية الحقة هي التي يحملها الرسل اليهم، وهي عبادة الله وحده الذي اليه المرجع والمآب وأفهمهم أنه لن يتخذ من دون الرحمن آلهة لأن المتصرف في الوجود هو الله وحده ، وان الآلهة لا تدفع الضر إذا أراد الله انزاله بانسان ولا تنقذه منه . والضلال الواضح الكبير هو الاعتقاد بخلاف ذلك .

إنّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعونِ (٢٥)

وأفهمهم أنه آمن بالله الذي هو ربهم ورب كل شيء ، وطلب اليهم أن يستمعوا لهـذا الايمان ويذعنوا له . ويفهم من محاورته لهم وتسفيهه لأحلامهم أنهم سخطوا عليه وبطشوا به ، وبذلك نال كرامة الشهادة في سبيل الدعوة إلى الايمان الحق وهنا أنعم الله عليه بما ينعمه على الشهداء المخلصين من غفرانٍ واكرامٍ وادخالٍ لعالم النعيم .

قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمونَ (٢٦)

بِما غَفَرَ لي رَبّي وَجَعَلَني مِنَ المُكْرَمينَ (٢٧)

والله عز وجل أهلكهم جزاء تحديهم للايمــان ، ومقاومتهم للعقيدة الصحيحة التي دعاهم اليهـا ذلك الرجل المؤمن مشفقاً عليهم ولم يهلكهم

بجنودٍ انزلهم من السماء لاهلاكهم ، ولكن اهلكهم بالصيحة . والصيحة ما ضربت امة إلا وجعلتها أجساداً هامدةً لا حراك بها ولا حياة .

وَمَا أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨)
إِنْ كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدةً فَإذا هُمْ خَامِدونَ (٢٩)

وقد وهب الله الانسان حرية الارادة وما ارسل اليه رسله وما أنزل عليه وحيه الا ليختار طريق النجاة والاستقامة ولكن الانسان في أكثر أحواله وجل تصرفاته ينزع إلى الاعوجاج والكفر ويستهزىء بالرسل الكرام مما يدعو إلى الحسرة عليه لما يلاقيه من عذاب في الدنيا والآخرة .

ويا ليت الانسان يعتبر بالأجيال الماضية التي اهلكها الله وأصبحت بعض أتربة الأرض حتى لا يستطيعوا العودة اليهم في هذه الحياة الدنيا وكفى بذلك عبرة لو كان الانسان من المعتبرين .

يا حَسْرَةً عَلى العِبادِ مَا يَأْتِيهِم مِن رَسولٍ إلاّ كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ (٣٠)
أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرُونِ أَنَّهُم إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعونَ (٣١)
وَإِنْ كُلٌ لَمَّا جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرونَ (٣٢)

ونجد أن الله سبحانه وتعالى سيخرج من أتربة الأرض ذرات حياة الانسان ونواياته التي هو ماثل فيها وهذا هو بعث الأجساد الانسانية من أتربة الأرض ثم تصفى وتنقل إلى أرض واسعة صالحة لأن تسع البشر

ويتم فيهـــا منح الحياة لتلك الذرات وهذا مشاهد للانسان في عالم النبات فكما أن الأرض كانت ميتة فأحياها الله بعالم النبات بعد أن كانت قطعة من النار لا حياة فيها ولا نبات وهذا هو مثل اخراج الحياة الانسانية من أتربة الأرض الميتة .

الا نرى ان الله حين أحيا الأرض الميتة بعالم النبات جعل فيها بساتين من النخيل والأعناب وفجر فيها أنواع العيون ليأكل الانسان مـــن الثمار وما عملته يده من أنواعها بمقتضى التزاوج .

وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبّـــاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)

وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فيهـا مِـنَ العُيونِ (٣٤)

لِيأْكُلوا مِنْ ثَمَـرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)

وهنا في الآية الآتية نجد أن الله كشف لعلم الانسان سر الحياة بل سر الوجود في التكوين من موجب وسالب وافهمهم أن هذا الازدواج هـو حاصلٌ في عالم النبـــات كما هو معروف في عالم الانسان بـل افهمهم أن المسألة أعمق وأن الأزواج محققة فيما لا يعلمون مـن العوالم الأخرى ومن أجل ذلك ابتدأ الآية بالتسبيح والتنزيه الذي يلىق بجلاله وقدرته وعلمه .

سُبْحَـــانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)

ونجد في الآية الآتية كشفاً علمياً رائعاً حيث أفهمنا أن الظلام والليل دو الأصل في الكائنات وأن النور يأتي من الكواكب والأضواء التي يبثها الله في الوجود فاذا كان ثمة حيوان ذو لحم أسود وجلده أبيض فاذا سلخت الجلد ظهر السواد الذي كان مختفياً ببياض الجلد ، وهذا المثل متمثلٌ في عوالم الفضاء فاذا ازيل عنها النور العارض عليها الذي هو النهار تعود الى الظلام كما لمس ذلك لمس اليد رواد الفضاء .

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهار فَإذا هُمْ مُظْلِمون (٣٧)

كما أن الشمس تجري حول محورها لمكان لها معين هي وما حولها من الكواكب ثم تعود إلى مركزها ذلك هو تقدير الله القوي العليم . ولعل طلوعها من المغرب هو اعلام من الله بنهاية العالم إذ في ذلك تغيير لسنن الله التي اقام عليها العوالم المشاهدة والخفية .

وَالشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍ لَها ، ذٰلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليم (٣٨)

ومنازل القمر معروفة لعلماء الفلك الأقدمين والمحدثين وهي أربع وعشرون منزلة وفي كل منزلة يظهر القمر بمظهر يخالف مظهر المنزلة التي قبلها وآخر منزلة هي التي يبدو فيها القمر كعنقود التمر القديم فانك تراه مقوساً مصفراً يابساً . وإن كان بعض المفسرين المحدثين يرون منازل القمر في أوجهه الثمانية التي يبدو فيها وبعضهم يراها ثماني وعشرين منزلة .

وَالقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالعُرْجون القَديم (٣٩)

ومن الحماقة الظن أن الله الذي أقام الشمس والقمر والكواكب التي تجري في الفضاء بقدرٍ موزون لا يتقدم ولا يتأخر ثانية أو ما دونها عن ما هو مقررٌ لها في علم الله أن يحصل بينها تصادم .. هذا محال ما دامت

العوالم مرتبطة بسنن التكوين التي ألزمها الله بها . وهذا شأن الليل السابق على النهار فلا يكون العكس . وقد روي عن عكرمة : لا يجتمع ليلتان ليس بينهما نهار بل تتعاقبان كما قدرهما الله تعالى .

لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

وأقام الله آية للعلم الانساني هذه الفلك التي حملت ذراريهم وما يحتاجونه وتنتقل بهم من مكان إلى مكان ، وهناك فُلك آخر مثل فُلك البحر يحملهم أيضاً من مكان إلى مكان وهو فُلك الهواء والذي خلقه الله ليكون لهم آية على اعجاز وحيه الغيبي .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحونِ (٤١)

وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبونَ (٤٢)

على أن الفلك التي تجري في عرض البحر لولا حفظ الله لها لغرقت بذنوبهم ولا مغيث لصريخهم ولا منقذ إلا الله إذ رحمهم وأنقذهم وجعلهم يتمتعون بالحياة الى زمن معين .

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذونَ (٤٣)

إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حينٍ (٤٤)

والبشر متى أصرّوا على الكفر ومارسوا الإعراض عن مثل وحي الله العليا لا يستجيبون لدعاة الايمان ولو ذكّروهم بالأمم الماضية التي هلكت بسبب إعراضها ولو أخافوهم بعذاب يوم القيامة ، على أن حال أكثرية البشر هو عدم الاهتمام حتى بآيات الله البينات وعدم المبالاة بها ، بل

يصرون على الاعراض ولا يخطر لهم على بال أن يتأملوا عجائب الآيات ويدرسوا دلائلها العلمية اليقينية المعجزة .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)

والمؤمنون إذا ألحّوا على الكافرين في الدعوة إلى الايمان وطلبوا اليهم الالتزام بأعماله الكريمة النافعة كانقـاذ الطبقة الفقيرة من كوارث الفقر وذكروهم ان الله رزقهم وأطعمهم ليرزقوا ويطعموا من هم دونهم ممن في حاجة الى الاطعام احتجوا عليهم بحجج شيطانية تظهر الهداية وتبطن الضلال ثم ينسبون الضلال إلى دعاة الايمان قائلين كان الله قادراً عـلى إطعامهم لو كانوا أهلاً لذلك .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧)

ولا يكفي هؤلاء الكافرين أنهم احتجوا بالقضاء والقـدر احتجاجـاً مقلوباً بعيداً عن واقعه القطعي بل اضافوا اعلان كفرهم بيوم القيامـة مستبعدين وقوعه ومكذبين لهم في مجيئه .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)

وهنـا يُفهمهم الله عز وجل أن يوم القيامـة لا يأتي إلا بغتة وهم لا يزالون يتنازعون ويختصمون في شئون الدنيا حتى انهم لا يتمكنون من التوصية بل لا يتمكنون من العودة إلى منازلهم وأهليهم .

مَا يَنْظُرونَ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمونَ (٤٩)
فَلَا يَسْتَطِيعونَ تَوْصِيَةً وَلا إلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعونَ (٥٠)

نحن ندرك أن الجيش العظيم الرابض في مكان بأثقاله وخيامه وعُدده إذا نُفخ له في البوق اعلاناً بقيامهم وانتقالهم إلى مكان آخر قاموا مسرعين واستجابوا لصوت البوق . هذه الصورة التي نعلمها مما نشاهده في مخيمات الجيوش كلما انتقلوا من مكان إلى مكان يضربها الله لنا مثلاً لانتقالنا من عالمنا الذي نحن فيه إلى عالم الآخرة فنخرج من قبورنا أحياءً بهذه النفخة المشتملة على سر الاحياء .

وَنُفِخَ في الّصورِ فَإذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلونَ (٥١)

وحينئذٍ يتنادى المبعوثون قائلين: يا عذابنا ... من بعثنا من مراقدنا . وهنا يتذكرون مـــا قال لهم المرسلون عن هذا البعث وتحققـه عليهم متبينين صدقهم .

قَالوا يَا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقدنِا هذا مَـــا وَعدَ الرَّحْمنُ
وَصَدَقَ الْمُرْسَلونَ (٥٢)

جهل المرتابون من عرب الجاهلية في حقيقـــة البعث وكيف يتم وأمم الأرض شتى وأفرادهم لا يحصون عـــداً والسبب أن صفات الله الخـالق العظيم صغيرة في عقولهم لذلك يرون محالاً أن يتم البعث . ولو انكشفت لهم حقيقة الكائنات الهائلة المترامية في ابعاد الفضاء لأدركوا أن بعثهم وخلقهم لا يزيد عـن بعث نفسٍ واحدة ، نداءٌ واحدٌ يكفي لبعثهم وحشرهم بين يدي ربهم .

إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدةً فَإِذا هُمْ جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرونَ (٥٣)

في ذلك اليوم توضع موازين العدل الألهي فلا يظلم أحدٌ مثقال ذرةٍ ولا يجزى إلا بما قدم من عمل .

فَاليَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ولا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ (٥٤)

وهنا أخذ الله سبحانه وتعالى يصف عالمي النعيم والعذاب الذين أعدهم الله للمؤمنين المحسنين والكافرين المسيئين بمـــا نراه بين أيدينا من وسائل النعيم والعذاب المقدر نواميسه في عالمنا هذا،لنستحضر في أذهاننا حقيقة عالمي العذاب والنعيم المغاير لنواميس عالمنا هذا،إذ بغير ذلك لا يمكن أن نفهم حقائق عوالم الآخرة فذكر لنـــا أن أصحاب عـــالم النعيم في ذلك اليوم منصرفون بما هم فيه وفرحون بما يتفكهون به هم وأزواجهم يتقلبون في ظلال على الأسرة المزينة بكل جمال وهم متكئون فيها .

إِنَّ أَصْحابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ في شُغُلٍ فاكِهونَ (٥٥)

هُمْ وَأَزْواجُهُمْ في ظِلالٍ عَلى الأَرائِكِ مُتَّكِئون (٥٦)

وقد اعدَّ الله لهم ما يطلبونه من كل نعيم ولهم فيها من كل أنواع الفاكهـــة وحسبك أن المولى الكريم في ذلك اليوم يؤمنهم الأمـان المطلق الدائم ويسلم عليهم السلام الصادر مـــن ينبوع ربوبيته ورحمتـــه الذي لا ينقطع أبداً .

لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعونَ (٥٧)

سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍ رَحيمٍ (٥٨)

وذكر لنا أن أصحاب عالم العذاب يُفضلون في ذلك اليوم عن المؤمنين ويذكرهم المولى العظيم بأنهم يستحقون هـذا الفعل لأنهم عبدوا الشيطان وهو عدوٌ لهم وانصرفوا عن عبادته على الرغم مما عهد اليهم بـه من نزول الوحي وطلب الايمان به وحده مفهمهم أن ذلك هو الصراط المستقيم .

وَٱمْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠)

وهنا وجههم الوجهة الصحيحة التي هي الطريق المستقيم وهي عبادته سبحانه وتعالى وحده .

وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)

وافهمهم سبحانه وتعالى أن الشيطان أضل منهم خلقاً كثيراً فلا ينبغي أن يغيب ذلك عن تفكيرهم .

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)

وأنذرهم سبحانه وتعالى بعذاب جهنم التي كانوا ينذرون بها وهؤلاء هم في ذلك اليوم يحترقون بها بسبب كفرهم .

هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)

وفي ذلك اليوم لا سبيل إلى كتمان الأعمال التي أسلفوها في الدنيا لأن الأفواه يختم عليها والأيدي تتكلم عنها والأرجل تشهد بها .

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)

والله لو لم يمنح البشر حرية الارادة التي بها يستطيعون الكفر والايمان لأعمى أعين الكفرة فلا يبصرون الطريق ولو تسابقوا اليه. وكذلك لو شاء لغير صورهم الحسنة إلى صور قبيحة وأبطل قواهم فلا يقدرون على الرجوع إلى الوراء ولا الذهاب إلى الأمام ولو كانوا يملكون القدرة والوجاهة .

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦)

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)

وكان ينبغي للبشر أن يتفكروا في نهايتهم حين تطول اعمارهم فينتكسون من القوة إلى الضعف ومن التماسك إلى الانحلال وكان هذا الأمر فيه الكفاية إلى الاستقامة والايمان بدار الخلود .

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)

وهنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يفهم اولئك الذين ظنوا في القرآن شيئاً من الشعر والخيال أن القرآن واقع علم الوجود وهو ذكرٌ وعظةٌ للمتأملين الدارسين له ، وفيه انذارٌ للذين يملكون حياة حرية الارادة ويقتلونها بالتقليد وحياة حرية الفكر ويقضون عليها بالتسليم الأعمى الخالي

من البينة والبرهان العلمي اليقيني وهؤلاء حق عليهم القول بالعذاب .

وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغي لَهُ إنْ هُــوَ إلاَّ ذِكْرٌ وَقُرآنٌ مُبينٌ (٦٩)

لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلى الكَافِرينَ (٧٠)

وهنا أراد الله عز وجل أن يكشف لهم عجائب ما أبدعت قدرته من المخلوقات كالمواشي من الأبقار والأغنام والإبل التي بين أيديهم يملكونها ويتصرفون فيها كل التصرف وهي مذللة لهم ينتفعون بها في ركوبهم وفي مآكلهم ومشربهم وسوى ذلك افلا يجدر بهم بعد ذلك أن يؤمنوا بــه ويشكروه وينصرفوا عن اتخاذ الآلهة من أفراد الكائنات التي يرجون منها النصر والخير ولا خير فيها ولا نصر ولا نفع ولا ضر بل تلك الآلهة التي اتخذوها من دون الله وعبدوها هم جنودها التي تنتفع بهم ويدفعون عنها الأضرار .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمّا عَمِلَتْ أَيْدينا أَنْعاماً فَهُمْ لَهـــا مَالِكُونَ (٧١)

وَذَلَّلناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلونَ (٧٢)

وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلَا يَشْكُرونَ (٧٣)

وَاتَّخَذوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرونَ (٧٤)

لا يَسْتَطيعونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرونَ (٧٥)

ولا ينبغي لرسول الله أن يحزن عليهم حين يسمع أقوالهم الكافرة بالله

جل وعز التي تشتمل علـى تكذيب رسالته لأن هـذا شأن الكافرين مع الرسل جميعاً وما دام الله يعلم ذلك ازلاً فلا ينبغي أن يستولي عليك الحزن .

فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)

وهنا كشف الله لنبيه وللمؤمنين به هو ان الانسان الكافر بوجود الله وقدرته وكيف خلق من نطفة حتى سواه انساناً فاذا هو يشعل الخصومة معلناً لها غير خجلٍ من تفاهتها وسوء أدبه .

أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧)

وأي تفاهة أصغر من قولهم من يحيي العظام بعد ان تبلى وتصير رميماً ناسين أو متناسين انهم خلقوا من تراب الأرض أول مرة ولا عظام ولا رميم وكذلك يخلقون ثاني مرة .

وَضَرَبَ لَنـــا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم (٧٨)

وهنا يرشد الله نبيه إلى البرهان العلمي اليقيني الذي يكشف تفاهة هذه الأقوال الهرائية وكيف انشأ الله كل مخلوق على علم دقيق مكون بمقتضاه . فالعلم الإلهَي الذي كُوّنَ به الانسان أول مرة هـــو نفسه الذي يُكوّن به للمرة الثانية .

قُلْ يُحْيِيها الَّذي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)

ثم يعرض الله على رسوله الكريم براهين علميـة يقينية مشاهدة تثبت حقيقة البعث اثباتاً لا ريب فيه ... هذا الشجر الأخضر الذي هو مصدر النار كيف يمتص الحرارة من الشمس ويدخرها فيه حتى إذا تحول فحماً حجرياً

مع تعاقب الأجيال أو بترولاً إذا أذابته العوامل الطبيعية في أعماق الأرض مع حيوانه فإنه يكون مصدراً للنـــار والغاز ، لذلك كان التعبير بالشجر الأخضر بدلاً من الشجر اليابس الذي هو مصدر الفحم والحطب المعلومين قديماً مقصوداً لإثبات البعث علمياً والا فقد يقول الجاهل الغبي مـا دخل الشجر الأخضر وناره هنا في ذكر البعث .

الَّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإذا أَنْتُمْ مِنْــــهُ تُوقِدونَ (٨٠)

عـــلى أن الرجل المفكر المنطلق إذا فكر في خلق السموات والأرض وتكوين العوالم المترامية في أبعاد الفضاء أدرك أن الذي أوجدها قادرٌ على أن يوجد مثالها فـــا بالك بخلق الانسان الضعيف ، لذلك لا يسع المفكر العالم إلا أن ينادي ويقول بلى إن الذي خلق كل هذه العوالم قـــادرٌ أن يخاق مثلها كلها ، لا خلق الانسان وحده .

أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰوات والأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١)

وقدرة الله لا تحيط بكنهها العقول لأنها عظيمةٌ عظيمة ويكفي لكي تدرك مدى عظمتها أن تتلو هذه الآية :

إِنَّما أَمْرُهُ إذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)

وهنا يجب أن يهتف المؤمنون من أعماق قلوبهم منزهين المولى سبحانه وتعالى عن كل عجزٍ وكل نقص وكل صفةٍ لا تليق بجلاله وهم يعلمون

كل العلم أنـــه يملك ملكوت كل شيءٍ وان مرجعهم اليــه وهو الغفور الرحيم .

فَسُبْحَانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكوتُ كُلِّ شَيْء وَإِلَيْهِ تُرْجَعون (٨٣)

صدق الله العظيم

انتهى تفسير المعاني ومجمل مدلول الآيات .

الموضوع الخامس

عرض معجزات سورة ياسين

توطئة

فهمنا مما تقدم أن القرآن المجيد كله آيات بينات ومعجزات متحديات كل معارف البشر ، ما دام في هذه الأرض بشر يكتشفون من معارف الكائنات ما يكتشفون .!!

واني هنا أعرض جانباً من المعجزات المدخرة في سورة ياسين .

المعجزات التي تفضّل الله عليّ بالتعرف اليها في غضون دراساتي .

وفي اعتقادي أن ثمـة معجزات أكبر وأعمق سيكشفها الله عز وجل للعلماء الأحرار الأبرار المتعمقين ...

ولن يحبس الله جل وعز فيض عامه عن ذوي النوايا الخيّرة الحازمة . ورأيت من المناسب أن أعرض هذه المعجزات عقب التفسير الأولي لمدلولات الآيات لأن هاتيك المدلولات الأولية بمثابة المنار الهادي إلى الشاطىء الأمين السفن التائهة .

وسيرى المطالعون أني على كل حال ألتزم الدلائل اليقينية لدى ذكر المعجزات .

إذ لا يجوز لأحد مهما بلغت به حماسة الإيمان أن يحمل الآيات الكريمة من الأهداف ما هو غريب عن دلالاتها اليقينية . ومعجزات القرآن الكريم في غنى عن ذلك ، لأن دلائل المعجزات مدّخرة في صميم ألفاظها ، وفيها كفاية الكفايات عن الزيادة والنقصان ، والحق أن كل زيادة ونقصان عن الدلائل الأصيلة المستنبطة من صميم ألفاظ الآيات هو افتئاتٌ فاحش على يقين العلم بدلائلها وان حسب ذلك سنداً لها إذ لا بد أن يكشف اطراد التقدم العلمي في يوم، بُطلانَهُ لأن مبناه من الظنون ، وما تبنى الظنون وشيك التداعي . وهذا ما لمسناه في بعض مما ذكره الرازي في تفسيره من معارف القدماء الظنية ، وفي بعض ما ذكره طنطاوي جوهري في تفسيره من معارف المحدثين الظنية .

والحق أن المعارف التي لم تبلغ اليقين العلمي لن تصلح مدلولاتها أن تكون شواهد تأويل لمدلولات الوحي اليقيني . ومتى دخلت فروض العلمي وظنونها وأوهام الأساطير وترهاتها في أية ناحية من نواحي التفسير فانها تدخل معها التأويلات الشاطحة والفلسفات المتناقضة والاسرائيليات الشاردة المتهافتة .

وحينئذ يتحول تفسير القرآن المعجز المتحدي إلى متاهات عمياء ، وادغالٍ ملتوية جوفاء تصفر في أنقابها وتسرح وتمرح مردة الجن والانس .

وفراراً من الوقوع في مثل هذه المهاوي السحيقة بذلت قصارى جُهدي في أن يكون عرض دلائل معجزات الآيات الكريمة قبساً متألقاً من صميم فحواها .

ورجائي إلى العلماء الراسخين الذين يتعقبون ما يؤلف حول معجزات

القرآن من قريب أو بعيد .!!! ان ينعموا أنظارهم في – مؤلفي هذا – بعمق ووعي ونزاهة واخلاص لله والعلم والحق .

ويقيني أنهم إذا التزموا ذلك أرضوا الله عزّ وجـــلّ وأنصفوا يقين العلم وانتصروا لنور الحق في نقدهم ...

وهل بعد الحق إلا الضلال .

معجزة
الإنسان الكامل في مدلول لفظة يس

يس (١)

المتعارف لدى السَّلف ، أن مدلولات لفظة « يس » ثلاثة :

١ — يس : إنسان .

٢ — يس : لفظ مدلوله رمزيّ خاص موجَّه الى رسول الله ﷺ.

٣ — يس : علم للسورة

وكون لفظة يس مشتملة على مدلول رمزيّ خاص برسول الله وهو المدلول الثاني . وكونها علماً للسورة وهو المدلول الثالث لا ينافيان المدلول الأول الذي هو انسان .

وهذه المدلولات الثلاثة المتعارفة هي من قبيل التوسعة اللغوية في المدلولات المسماة بالاشتراك اللفظي .

وهذه التوسعة اللغوية يدور عليها محور التطور التقدمي المطَّرد لا في لغة العرب فحسب . بل في كل اللغات . . واطلاق لفظة يس لمعنى إنسان على رسول الله ﷺ يكشف تحقيق معجزة افاض علماء الحضارة المعاصرون الحديث عنها . تلك المعجزة هي تحقق مجيء الانسان الكامل الذي ينشدونه ويتغنون به .

والانسان الكامل هو الذي يتحقق فيه الكمال الانساني بشطريه المادي والروحي وعلى رأس هؤلاء العلماء « آينشتين ». وقديماً نشد (ديوجين) الفيلسوف اليوناني الانسان الكامل حتّى بلغ بـــه الأمر فكان يطوف في شوارع أثينا بمصباح يدنيه من أوجه المارّة،فقال له أصحابه عمّ تبحث؟ فقال لهم أبحث عن إنسان .

إذاً فالبحث عن الانسان الكامل قديمٌ جداً وقد تحقق في رسول الله ﷺ وتحققه فيه هو إحدى معجزات القرآن التي ابتدأ بها هـــذه السورة يس وهذه أعماله وأمجاده وسيرته وشمائله وآثاره العظيمة الخالدة هي آية تحقق كمالـه الذي هو المثل الأعلى ...

ولو علم (آينشتين) ما عامه الدارسون المتعمقون في حقـــائق سيرة رسول الله ﷺ لعلم أنه هو الانسان الكامل الذي ينشده . وأنه هو أسوة الانسانية الحسنة في كل خصال الخير .

ويؤكد ذلك قول الله تعالى في سورة النساء إذ أطلق عليه لفظة الناس في قوله :

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ (٤ ـــ ٥٤)

وهذا الاطلاق متحقق في سيرته ﷺ مادة ومعنى . ومهما يكن فاتجاه العلماء الى بحث الانسان الكامـل واعتقادهم أنه لا بد أن يتحقق وجـوده هو آية اعجاز القرآن الذي اطلق الناس على رسول الله تـــارة والإنسان تارة أخرى .

إذاً فهذه معجزة الانسان الكامل وهذه خصائصها وممكناتها الكمالية قد تحققت في رسول الله ﷺ الذي يقول فيه (حسان بن ثابت) :

لـه همم لا منتهى لكبارهـــا   وهمته الصغرى أجلّ من الدهر

معجزة القسم بالقرآن الحكيم
على صدق الرسالة

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢)
إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)

« و » . الواو واو القسم كما يقسم أحدنا بقوله: والله إن سيدنا محمداً رسول الله . ولكن نحن لا يجوز أن نقسم إلا بالله وصفاته لأن القسم به يكشف حقيقة ما أقسمنا له لما في الحنث في القسم جل وعز من تجريم ومؤاخذة شديدة . أمـــا الخالق العظيم فإنه يقسم بما يشاء من الكائنات ليلفت أنظارنا إلى ما أودع في الكائن المقسم به من غرائب الخلق الدال على جلاله وإرادته وقدرته كما يقسم بنفسه وصفاته وأفعاله لمثل هـــذا المراد الكريم .

« القرآن » .

وهنا المقسم به هو كلامه والمراد من هذا القسم واضح إذ هو إلفات نظر الأجيال من العلماء والأدباء والمفكرين إلى ما أودع في القرآن المجيد من المعجزات الدالة على أنه كلامه المنزّل . المثبت رسالـــة سيدنا محمد

ثبوتاً علمياً قطعياً لا شبهة فيه ولا ريبَ ×

وهـذا القسم حث للمنكرين الأغبياء والمتحاملين الخبثـاء والجاحدين المصرين إلى أن يحترموا العلم الواقع بين أيديهم في القرآن المجيد، ويأخذوا في درسه بتجرد واخلاص وامانةٍ وصدق .

والخلاصة أن هـذا القسم بـابٌ واسعٌ من التحدي المعجِز بالقرآن المجيد . مـن أجل تأكيد صدق رسالة سيدنا محمد ، وأبواب التحدي المعجز بالقرآن المجيد شتى . وهذه بعض نصوص التحدي :

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَٱدْعوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا وَلَنْ تفعلوا فَاتَّقوا النَّارَ الَّتي وَقودُها النَّاسُ وَالحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرينَ (٢ ــ ٢٣ و ٢٤)

أَمْ يَقولونَ ٱفْتَراهُ قُلْ فَأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَٱدْعوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١١ ــ ١٣)

قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتوا بِمِثْلِ هٰذا ٱلْقُرْآنِ لا يَأْتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً (١٧ ــ ٨٨)

وقد زعم بعض المحاضرين أن هذا القسَم بالقرآن على اثبات نبوّة سيدنا محمد هو مخاطرة مخيفة . لأنه كان في أول الدعوة ولم يكن القرآنُ

الكريم قد تم نزوله ولا يدري أحدٌ أتنجح الرسالة ام لا . والواقع أن نجاح الرساله مؤكد من الله عز وجل يقينــاً من قبل نزول القسم ومن بعد نزوله .

ومهما يكن فقد يكون هذا القسم مخاطرة كما زعموا لو لم يكن المقسم بالقرآن المجيد هــو رب العالمين ، على أن هذا القسم هــو تحدٍ معجز لشوامخ العلماء والمفكرين والمثقفين لكي ينظروا في القرآن ، فإن استطاعوا ان يبطلوا اعجاز القسم فليفعلوا لأن الميـدان فسيح وباب التحدي واسعٌ وباق إلى يوم القيامة .

وكون رسول الله ﷺ كان يلقى التكذيب والأذى والكيد والمؤامرات من كفار قريش متواترٌ على ألسنةِ الأجيال ... ولم يقتصروا على قولهم لرسول الله ﷺ لست مرسلاً[1] بـل كانوا يتبعون جحود القول بجحود العمل لذلك كانت مفاجأتهم بقسم الخالق العظيم بنفس القرآن حدث عظيم وحجة قائمــة إلى يوم القيامة ، مــا دام هناك جاحدون للقرآن المجيد ولرسالة سيدنا محمد ﷺ ولأجل اظهار افتراء المكذبين سواءٌ أكانوا من القدمـاء أو المحدثين ولأجل اعلان انهم جميعــاً يأخذون بالظن والوهم والتقليد والأسطورة وانهم يفقدون الحجج العلمية القطعية جاء اثبات رسالة خاتم رسل الله بالتأكيد الصارم .

سورة ٣٦
اية ١ - ٢ - ٣

يس . وَالقُرآنِ الحَكيمِ . إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلينَ .

لأن هذا القسم هو بمثابــة قول الله عز وجل اؤكد أن محمداً هــو رسولٌ من جملــة المرسلين الذين سبق ارسالهم إلى الخلق وهذا التأكيد الصارم مستندٌ على الحجة القطعية المشاهدة المحسوسة إلى يوم القيامة الذي

---

١ « ويقول الذين كفروا لست مرسلا .. » ١٣ — ٤٣ .

هو القرآن المجيد المقسم به . إذ لا فائدة من تاكيدٍ خالٍ من الحجـة القطعية مثل أن يقول قـائلٌ اسطوريٌ أقسم بالله العظيم أنَّ بـاقلاً لحكيم بليغ كالإمام علي ، إذ مفهوم للجميع أن باقلاً أهوج غبي فمناط التأكيد في هذه العبارة سخرية من السخريات لأنـه خالٍ من البينة التي تكشف انه الواقع اليقيني .

وهكذا يظل هذا القسمُ معجزة غيبيـة متحدية كل ريب باطلٍ إلى يوم القيامة .

معجزة الرسالة

عَلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ (٤)
تَنْزيلَ الْعَزيزِ الرَّحيمِ (٥)

هـــذه الآية توضح أن القسم بالقرآن الحكيم الذي يُبنى عليه صدق رسالة سيدنا محمد أنه حق محض لا ريب فيه وأنه على طريق مُنزلٍ مـن الله عز وجل هو طريق العلم والحق والخير وطريق الهداية والمثـــل العليا والمعجزات الباهرات وان الذي أنزله هو الله القوي العزيز المسبغ رحمتـــه على عباده .

وما أفهمنا الله أن القرآن المجيد الذي يسير على هداه رسول الله ﷺ هو تنزيل من مصدر العزة والرحمة إلا لكي نأخذ في دراسته وانعام النظر في آياته لنعلم انه الحق الذي لا ريب فيه والعلم اليقيني المؤيد بالمعجزات الباهرات ولولا ذلك لما اقسم الله به مراراً :

لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلونَ (٦)

خالَ بعض السطحيين ان هذه الآية وأمثالها ، مثل :

« لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرى وَمَنْ حَوْلَها » (٦ - ٩٢)

« وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ » (٢٦ - ٢١٤)

« لَقَدْ جاءَكُمْ رَسولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » (٩ - ١٢٨)

ان رسالة سيدنا محمد خاصة بقومه العرب كأن صاحب الرسالة العامة في زعمهم لا ينبغي أن ينذر قومه ولا يُطلب منه ذلك ، فاذا طلب منه ذلك وانذرهم قصرت رسالته عليهم . وهذا القول أشبه بما يتندرون به عن جحا الذي كان يعظ العامة في المسجد فقال له يوماً أحد جيرانه خص اهلك ببعض الدروس كما تدرس العامة فانصرف جحا صامتاً ولم يحضر بعد ذلك إلى المسجد لتدريس العامة . ومرّت الأيام تباعاً فذهب ذلك الرجل اليه وقال اين أنت يا جحا والناس ينتظرونك كل يوم في المسجد لتعظهم؟فقال اني أعظ أهلي . فضحك الرجل وقال وهل وعظك لأهلك يمنعك من متابعة وعظك للناس؟فرد عليه جحا بقوله أتستطيع ان تحمل بطيختين في يدٍ واحدة قال الرجل نعم أحملها في زنبيل فاقتنع جحا وعاد إلى تدريس العامة .

ولا أدري هل هؤلاء السطحيون يقتنعون كما اقتنع جحا ويدركون أن انذار رسول الله ﷺ لقومه ودعوتهم الى الإيمان لا يمنع ذلك من انذار الناس كافة ودعوتهم إلى الايمان وأكثر هؤلاء القاصرين رسالة سيدنا محمد ﷺ على قومه العرب هم من الغربيين الذين لم يطلعوا على النصوص القطعية المعلنة انه مرسل إلى الانسانية كافة وانه خاتم الأنبياء ، ولو انهم اطلعوا عليها لما امكن ان يقولوا بذلك لأن قولهم حينئذ يكون افتئات على واقع العلم اليقيني وتقولٌ من أنفسهم ، انظر الى قوله تعالى :

تَبارَكَ ٱلَّذي نَزَّلَ ٱلفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكونَ لِلْعالَمِينَ نَذيراً .

(٢٥ ــ ١)

وقوله تعالى :

قُــلْ يَا أَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ٱلَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ، لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنوا بِاللهِ وَرَسولِهِ النَّبِيِّ ٱلأُمِيِّ ٱلَّذي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِماتِهِ وَٱتَّبِعوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدونَ (٧ ــ ١٥٨)

أضف إلى ذلك الرسائل التي وجهها رسول الله ﷺ إلى ملوك عصره طالباً منهم الإيمان برسالته فلو أن رسالته خاصة بقومه العرب لكان عمله هذا مخالفاً لما أنزل الله اليه من الوحي ومحال أن تكون منه مخالفة ما .

وكم هم الذين يذيعون الجهل باسم العلم ويلبسونه زوراً وبهتاناً أثواب العلماء وما هم من العلم في شيء . والحق أن هؤلاء القوم ليسوا من الأمناء على واقع العلم اليقيني وليسوا من سمو الخلق بمكان .

لعلهم كرهوا أن تكون رسالة سيدنا محمد ﷺ عامة ، واشتهوا أن تكون خاصة بقومـــه العرب فزعموا أن ذلك هو نصوص الوحي المنزل عليـــه ليظهروا جهلهم هذا بمظهر العلم فذكروا النصوص بصورة مشوهة مقلوبة قاتلهم الله وجنوا على يقين العلم شر جنايـة وهم ذوو اغراض اجراميـة في حق العلم . والغرضُ مرضٌ نفسي لا علاج له .

ولـــدى هؤلاء لا يختلف قولهم في قصر الرسالة عـــلى العرب سواءٌ جعلت (ما) في قوله تعالى :

لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آباؤُهُمْ   ٣٦ - ٦

(نافية أو جعلتها مصدرية أي انذار آبائهم) .

ومهما يكن فجملةُ الآيات الدالـــة على عموم رسالة سيدنا محمد هي إعجازٌ غيبي مخبرةٌ ضمناً أن سوف يأتي مـــن يزعمون أن رسالته ﷺ خاصةٌ بقومه العرب .

اصرار أكثرية البشر
على الايمان بالظنون والاوهام

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ٣٦ - ٧

أكثر البشر يؤمنون بمواريث الآباء وتقاليدهم المبنية على الظنون والأوهام والخرافات ويسجنون أنفسهم في سجونها المظلمة ويمقتون الانطلاق والتفكر في حقائق القضايا اليقينية التي تعرض عليهم .

زد على ذلك أنهم يمقتون الكبت بالمثل العليا التي تحرمهم من الشهوات الآثمة واللذات الشريرة القاتلة لذلك حق على أكثرهم وقوع العقاب .

وفي صميم وحي الله اليقيني نصوصٌ كثيرة تكشف كُنه هذا الواقع المرير .

والله يذكر لنا في وحيه أن قوم سيدنا ابراهيم الذين كانوا يعبدون المخلوقات ويتركون عبادة خالقها عز وجل يذكر أنهم كانوا يتعللون بمواريث آبائهم :

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)

قَالوا وَجَدْنَا آباءَنا لَها عَابِدِينَ (٢١ - ٥٣)

وَإذا قِيلَ لَهمْ اتَّبِعوا مَا أنْزَلَ اللهُ قَالوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنا أوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعوهُمْ إلى عَذابِ السَّعيرِ (٣١-٢١)

وَإذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إلى مَا أنْزَلَ اللهُ وَإلى الرَّسولِ قَالوا حَسْبُنا مَا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا . أوَلَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدونَ (٥ ــ ١٠٤)

وعلى كل حال فإعجاز الآيات ظاهر لأن أكثرية البشر يعيشون مقلدين وليس لهم من دليل يقيني على تقليدهم في كل عصر وقصر .

وَكَذٰلِكَ مَا أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِنْ نَذيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلى آثَارِهِمْ مُقْتَدونَ .

(٤٣ ــ ٢٣)

إذاً فتقع عليهم تبعة المسئولية وقد أدرك علماء الاسلام الأقدمون حقيقة تأثير التقاليد في أكثرية البشر لذلك اختلفوا في ايمان المقلد في الاسلام محاربة للتقليد ومقتاً له :

وَما أكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنينَ (١٢ ــ ١٠٣)

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالحَقِّ وَلٰكِنَّ أكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهونَ (٤٣ ــ ٧٨)

وَما يُؤْمِنُ أكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكونَ (١٢ ــ ١٠٦)

أَمِ اتَّخَذوا مِنْ دونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتوا بُرْهَانَكُمْ ، هٰـذا ذِكْرُ مَنْ مَعي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمونَ الحَقَّ فَهُـمْ مُعْرِضونَ (٢١ ــ ٢٤)

أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَهـــا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ، أَإِلٰهٌ مَعَ اللهْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمونَ (٢٧ ــ ٦١)

وَما خَلَقْنا السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبينَ . مَا خَلَقْناهُما إلاَّ بِالحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمونَ (٤٤ ــ ٣٧ و ٣٩)

وهذه الحقيقة التي أشار اليها القرآن الكريم هي ثابتة باقية الى يـــوم القيامة .

وما أجهل الذين يظنون في الامكان اجـــماع البشر على الايمان بالحق اليقيني الثابت فإذا كانت أكثريتهم لا يمكن أن تجتمع على ذلك فـما بالك بجميع البشر .

معجزة كشف واقع التقاليد واضرارها

إِنَّا جَعَلْنا في أَعْناقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلى الأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحونَ (٨) وَجَعَلْنـــا مِنْ بَيْنِ أَيْديهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرونَ (٩) ٣٦ (٨-٩)

ان هاتين الآيتين كشفتا السبب الذي يجعل اكثرية البشر ترفض واقع العلم اليقيني الذي يحمل لهم الايمان الصحيح وتؤثر عليه الظنون والأوهام ومواريث الآباء الباطلة وخرافات العصور الحجريـــة الجامدة والسبب هو هيمنة سلطان التقاليد عـــلى المجموعة النفسية هيمنة تطفىء شعلة الفكر الواعي المتحرك ، وتميت حاسة التمييز بين السيء والحسن والأحسن .

أجل إن هاتين الآيتين عرضتا علينا وضع المقلدين الذين يكفرون بواقع العلم اليقيني ودلائله القاطعة ويؤمنون بالظنون والأوهـــام ، عرضناهم في صورتين حسيّتين رائعتين لن تجد لهما مثيلاً في البيان الانساني .

١ ـ ففي الآيـــة الأولى تجد المقلدين قـــد لُفّت الأغلال بأعناقهم ورفعت حلقاتهـــا أيديهم الى اذقانهم بقوة حتى غدت رؤوسهم مقمحـــة

لا يستطيعون معها أن يحركوها لا إلى جهة اليمين ولا إلى جهـــة الشمال ولا إلى ما بين أيديهم ولا إلى ما خلفهم .

وما هذه الصورة الحسية الظاهرة الا ظلال للصورة الباطنة التي شدت مجموعاتهم النفسية شداً محكماً جعلهم جامدين على ما هم عليه من ظلمات الباطل والأساطير والظنون غير قادرين أن يلتفتوا إلى نور الحق اليقيني . من أي جهة ظهر وفي أي لون بدا .

٢ – وان هؤلاء المقلدين أنفسهم وهم موثقون بالأغلال قد اقيمت حولهم سدود التقاليد التي تحول مـــا بينهمْ وبين مشاهدة أضواء الحق ، وكيف يشاهدون اضواء الحق ومـــن فوق السدود ارسلت عليهم اغشية صفيقة من تقاليدهم تؤكد منعهم من رؤيـة اضواء الحق حتى لو نزعت أنفسهم إلى ذلك في يوم من الأيام .

وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنونَ (١٠)

٣٦ ١٠ - ١١

هذه الآية الكريمة تكشف حال المقلدين في أعماق أنفسهم وهي الجمود المتحجر الذي لا انفكاك منه فإنذارهم بالبراهين اليقينيـــة وعدم انذارهم سيّان لأنهم لن يؤمنوا بغير ما تحجرت عليه أنفسهم .

إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)

إنّا نجد هذه الآية الكريمة تبين بعد فقد رجاء ايمان المقلدين الجامدين ان الرجاء متوفر في صنفين من البشر ... قطعـــاً هم ليسوا من المقلدين الجامدين إذ لو كانوا منهم لما آمنوا أبداً انذروا أو لم ينذروا .

١ – الأحرار الذين يحيون حياة فطرة الايمان اذ هم بمقتضى حريتهم

يطرحون التقاليد الباطلة تحت أقدامهم وبمقتضى حياة فطرة الإيمان في أنفسهم يظلون يبحثون عن الايمان الصحيح المؤيد بالبراهين القطعية فأنى يجدونه يؤمنون بـه . وهذا الذي كان منهم ويكون . فـانهم يتبعون القرآن ويخافون الرحمن بالغيب وهم يعلمون انه رب العالمين وخالق الخلق أجمعين .

٢ — الذين تحيا مجموعاتهم النفسية حيـاة الوعي والعلم والنقد والتمييز بين حقائق الايمان ، وهذه هي الحياة التي يمتاز بهـا البشر عن الأموات الذين يحيون حياة الدواب وهذا منصوص عليـه في هذه السورة الكريمـة بالذات :

لِتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا

وقوله تعالى في سورة الأنفال أيضاً :

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ ٱلَّذينَ كَفَروا فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ (٨ ـ ٥٥)

وهذان الصنفان مـن البشر هم الذين يتقبلون الانذار ويستطيعون أن يحطموا اغلال التقاليد واتباعهـا ويتبعوا القرآن المعجز الحـافل بالدلائل اليقينيـة وهم المبشرون من الحق جـل وعز بالمغفرة والرضوان والأجر الجزيل الحسن .

معجزة إحياء الموتى

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي ٱلْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)   ٣٦ - ١٢

إن الله عزّ وجلّ في هذه الآية الكريمة يؤكد تأكيداً مبرماً انه هو وحده الذي يحيي الموتى لا الآلهة التي جَمُدَ على عبادتها المقلدون المتحجرون الذين تقدم ذكرهم سواء كانت من عوالم الأرواح أو من عوالم المادة لأن تلك الآلهة مخلوقة والمخلوق لا يستطيع ان يمنح الحياة لمخلوق مثله قد عُرِّيَ منها واصبح جماداً لذلك كان تقليدهم المتحجر هو جهل في جهلٍ وكفر في كفر .

لذلك إذا نظرنا الى الجاحدين إحياء الموتى نجد أكثرهم من عَبَدَةِ الآلهة المتخذة من اشياء الكائنات المخلوقة وهي حتماً أصغر من أن تحيي نملة أو ذبابة ولو انهم احاطوا علماً بسعة الكائنات وكثرتها سواء ما علمه البشر في هذا العصر الحديث بمراقبهم وعرباتهم الفضائية ومحطاتهم أو لم يعلموه بعد وهو الأكثر لأدركوا أن احياء الموتى مرة ثانية أهون من ابتداء خلقها . على اننا اذا وجدنا بعض المثقفين ينكرون احياء الموتى

فهم إما ملاحدة لم يعلموا بعد حقائق عوالم الطاقات وما تشتمل عليه من عجائب التكوين وأسرار الخلق في هذا الوجود ، وإما لم يتمكن الايمان العلمي اليقيني في أنفسهم ولم يتبينوا براهينه ودلائله القطعية. فهم ينكرون إحياء الموتى ليظهروا بمظهر العلماء والمفكرين على زعمهم أمام بسطاء البشر وعوامهم .

ولا ريب أن الذين ينتقلون من هذه الدار هم يتركون في دنياهم آثار أعمالهم المحصية عليهم الى جانب ما قدموه لآخرتهم . وهذه وتلك كلها مكتوبة ومحصية في كتاب بيّن لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ومن أجل ذلك جعل الله عز وجل إحياءه الموتى على يد بعض الرسل برهان وجوده وآية صدقهم. انظر حادثة خليل الرحمن سيدنا ابراهيم عليه السلام مع نمرود زاعم الألوهية لنفسه :

أَلَمْ تَرَ إلى الَّذي حَاجَّ إبْراهيمَ في رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللهُ المُلْكَ إذْ قالَ إبْراهيمُ رَبِّي ٱلذي يُحْيي ويُميتُ قالَ أنا أُحْيي وأُميتُ ، قالَ إبْراهيمُ فَإنَّ ٱللهَ يَأْتي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ ٱلمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلذي كَفَرَ وَٱللهُ لا يَهْدي ٱلقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ .

(٢ ــ ٢٥٨)

وجاء أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة :

وَإذْ قَالَ إبْراهيمُ رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحْيي ٱلمَوْتى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ،

قَالَ بَلَى وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢ ــ ٢٦٠)

وهذا ما جاء لصدق رسالة سيدنا عيسى عليه السلام هذا الموضوع :

وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٣ ــ ٤٩)

وعلى المطالع أن يتلو هذه الآية الكريمة قبل أن ينتقل الى سواها :

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦ ــ ٩٥)

ان الذي ينظر بعين اليقين العلمي الذي كان سبباً في نزول هذه الآيات يجد الاعجاز الغيبي بيناً ناطقاً فيها ، إذ انذرت هذه الآيات زعماء قريش بالهلاك مثل هلاك أصحاب القرية المضروب لهم به المثل،وكما ان أصحاب القرية استحقوا الهلاك بالصيحة بعد أن توالت عليهم الرسل وتوالى منهم الرفض والاصرار على الكفر وتهديدهم للرسل بالرجم والقتل إن لم يكفوا عن الدعوة حتى أهلكهم الله وأصبحوا أثراً بعد عين .

وهذا شأن زعماء قريش لأن الله سبحانه وتعالى انزل القرآن على خاتم

رسله سيدنـــا محمد ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً وقد كرر الدعوة لقريش مرة بعد اخرى وسور القرآن المجيد تتابع نزولها عليه في مكة المكرمــة قبل سورة يس حتى بلغ عدد السُوَر المنزلـــة تسعاً وثلاثين . وفي هذا القدر اصول العقائد وحقائقهـــا اليقينية وهو كاف لإيمـــانهم لو تدبروا وتفكروا في مـــا انزل ولكنهم رفضوا التدبر والتفكر في آيـــات الله ولم يزدادوا إلا اصراراً وكفراً وأذىً وتدبيراً للمؤامرات للقضاء عـلى رسول الله ﷺ واحباط الدعوة ، ومـــن أجـل ذلك استحقوا أن ينذرهم الله بالهلاك كأصحاب القرية الذين أهلكهم بالصيحة وكان هذا الانذار باهلاكهم هو من اعجاز القرآن الغيبي .

معجزة انتصار الرسل ومصير المكذبين

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ القَرْيَةِ إِذْ جاءَها المُرْسَلونَ (١٣)

إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالوا إِنّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلونَ (١٤)

قالوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَكْذِبونَ (١٥)

قالوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلونَ (١٦)

وَما عَلَيْنا إِلاَّ البَلاغُ المُبينُ (١٧)

قالوا إِنّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنّا عَذابٌ أَليمٌ (١٨)

قالوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفونَ (١٩)

وَجاءَ مِنْ أَقْصى الْمَدينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قَالَ يا قَوْمِ اتَّبِعوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)

اتَّبِعوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدونَ (٢١)

وَما لِي لا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرَني وَإِلَيهِ تُرْجَعونَ (٢٢)

أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذونِ (٢٣)

إِنِّي إِذاً لَفي ضَلالٍ مُبينٍ (٢٤)

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعونِ (٢٥)

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمونَ (٢٦)

بِما غَفَرَ لي رَبِّي وَجَعَلَني مِنَ الْمُكْرَمينَ (٢٧)

وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلينَ (٢٨)

إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خَامِدونَ (٢٩)

٣٦ ١٣ - ٢٩

والحمد لله فما هي إلا أشهر معدودات حتى جمع الله لرسوله الكريم جُلَّ زعماء قريش في غزوة بدر وهم في كثرة من العدد والعُدَد قد ركبهم الغرور ونفختهم الكبرياء ، ورسول الله في قلة من العَدَدَ والعُدَد فلم تُغنِ كثرتهم من الله شيئاً فأهلكوا جميعاً بيد المؤمنين الصادقين القلائل

وقذفوا في قليب[1] بدر ، وأخذ رسول الله ﷺ يخاطبهم واحداً واحداً فيقول : يا أهل القليب يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية ابن خلف ويا أبا جهل بن هشام وأخذ يعدد من قذف في القليب واحداً واحداً ثم قال أخيراً يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني وجدتُ ما وعدني ربي حقاً . فقال له أصحابه أتنادي قوماً جَيَّفُوا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنتم بأسمع لما اقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا .

لأن الذي يبصر ويسمع في الحقيقة هو الروح لا الجسد المكون من التراب وأصوات عالم الروح انما تُسمع من وراء المادة كما تسمع هي .

يا حسرة على العباد فانهم لا ينظرون إلى الآيات الماثلة بين أيديهم الدالة على صدق رسالة رسل الله اليهم ولو نظروا بعين البصيرة والعلم اليقيني لامتنعوا عن السخرية والاستهزاء وآمنوا ، الا يرون القرون الذين اهلكهم الله وانتقلت أرواحهم إلى العالم الثاني وقد انكشف لهم عالمُ الروح ولمسوا الحق الذي جحدوه وانهم ليتمنون الرجوع إلى الدنيا ويؤمنوا ولكن لا عودة لهم .

وهذا مصير كل الأمم ومرجعهم إلى الله عز وجل .

---

[1] قليب أي بئر وكانت لا ماء بها مهجورة

البشر وتكذيب الرسل

يا حَسْرَةً عَلى العِبادِ، مَا يَأْتِيهِم مِن رَسولٍ إلاّ كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ (٣٠)

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرُونِ أَنَّهُم إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعونَ (٣١)

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرونَ (٣٢) ٣٦ ٣٠ - ٣١ - ٣٢

ومن أجل ذلك أنزل الله هذه المعجزات في الآيات الآتية وكشف حقائقها لتكون واقية للأجيال من الهزء والسخرية برسل الله ووحيه ولتكون في الوقت نفسه الحجج القطعية اليقينية على صدق وحي الله وصدق رسله صلوات الله وسلامه عليهم . فلا يكذبهم البشر بعد ذلك .

والقرآن المجيد كما هو آية على صدق رسالة خاتم الرسل سيدنا محمد كذلك هو آية على صدق الرسل كافة .

معجزة تكوين الارض

وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبّــاً فَمِنْهُ يَأْكُلونَ (٣٣) ٣٦ ٣٣

يكشف الله لنا في هذه الآية معجزة تكوين الأرض حيث انها كانت خالية من الحياة (ميتة) وأن الحياة طرأت عليها بسر قدرة الله خالقها، وان البذور الحية كافة المشتملة عـــلى سر الحياة أوجدها الله من نفس الأرض بعد أن لم تكن ، ومن هذه البذور ، وجدت الحدائق والمروج والثمرات من نخيل وأعناب وسواها ، لأن الله عز وجل يذكر أنه فجّر الماء تفجيراً لتعطي الحياة إلى البذور كافة .

الماء الذي جعل الله منه كلّ شيء حي .

ومن ثمار هذه الحبوب بعد نضجها وقطافها يأكل منهـــا البشر كما يأكلون مما يضيفونه اليها بعلومهم وما صنعته أيديهم ، وفي كـــل ذلك معجزة آيـات القرآن التي عرفها العلم اليوم ووصل إلى أن الأرض كانت كتلة نارية ميتة ، وقد بردت قشرتها على مر الحقب بواسطة المـاء الذي غمرها . وإن كان العلم لا يزال يجهل كيف طرأت الحياة على الأرض

الميتة وكيف تطرأ وتتجدد كل يوم ، إذ في كل ذلك آية علمية معجزة تدل على أنّ القرآن الكريم وحي الله الحق ، وتدل بالتالي على صدق خاتم رسل الله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه الذى أُنزل عليه هذا القرآن حجة العلم اليقينية المثبتة صدق رسالته ورسالات الرسل جميعاً:

وَجَعَلْنا فِيها جَنّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فيها مِنَ العُيونِ (٣٤)

لِيأْكُلوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥)

٣٦ ٣٤ - ٣٥

والاعجاز الظاهرة في هذه الآيات هو التصريح بأن ليد الانسان العاملة في عالم النبات تحسينات ظاهرة صريحة في قوله تعالى : (وما عملته أيديهم). إذ لم نفهم من قبل أن ليد الانسان العاملة عملاً في عالم النبات من تطعيم وتنويع وتحسين وتلوين وتوليد وما إلى ذلك إلا في هذا العصر ، واما الفهم ان ذلك مقصور على الطهي وصنع المربيات فهو قصور في العلم والعقل ، وقصور في فهم ان القرآن وحي الله المعجز المكون لكل شيء والعالم لكل شيء والمهيمن على كل شيء .

وآيات القرآن كما تدل على انفتاق السموات والأرض تدل على أن تكوين الأرض تم بعد الانعتاق قبل تكوين السموات .

معجزة الأزواج في التكوين

سُبْحَـــانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمّا لا يَعْلَمونَ (٣٦) ٣٦ ٣٦

يفهمنا الله عز وجل أن الكائنات المادية التي يحويها الوجود هي ازواج أي مؤلفة من الموجب الذي يرمز اليه بالذكورة ومن السالب الذي يرمز اليه بالأنوثة في عالمي النبات والحيوان وفي ما لا نعلم من العوالم الأخرى، ومرت الأجيال عقب الأجيال ولم يكشف الاعجاز العلمي الـذي يشتمل عليه قولـه تعالى : (ومما لا يعلمون) حتى جاء هذا العصر الحديث وشرع العلماء يبحثون في تحليل العناصر المادية وذراتهـا حتى وصلوا إلى فلق عالم الذرة فاذا هي مشتملة على أزواج ، فوحي الله هو الأصل الذي يشتمل على الحقائق اليقينية واما العلم الانساني فكلما جدّ في السير وتقدم اهتدى إلى كشف معجزات القرآن المجيد ومـا تشتمل عليه من غرائب المعارف وحقائق العلوم في صميم التكوين. انظر في هذه الفقرة من المحاضرة التي ألقاها المهندس عـلي الحجار عضو معهد المخترعين في واشنطن سنة ١٩٤٦ تلمس الاعجاز الذي كان خفيـاً في الآيـة الكريمة طوال الأجيال الماضية لمس اليد .

الذرّة هي مركبة من جملة كهارب تدور بسرعة علـى محور يسمى نواة كدوران الكواكب حول الشمس وقد تمكن العلماء من معرفـة عدد الكهارب وسرعتها ، اما النواة فهي ثابتة لا تتحرك . والكهرب هو القوة التي لم يصل الانسان بعـد إلى ادراك كنهها لا بالعقل ولا بالحواس ولا تقسّم . والمادة نفسها تختفي لدى تفكك ذراتها إلى كهارب . والكهرب منه ما هو سلبي (ـ) ومنه ما هو ايجابي (+) .

« وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لعلكم تذكرون » ٥١ ـ ٤٩

إنك ترى الكهرب الايجابـي يفتش عن الكهرب السلبي بنشاط وقـوة فاذا التقيا يسكنان بعضهما إلى بعض وتشل حركتهما وتقفا . فما دام السلبي والايجابي متزاوجين (ـ +) لا يظهر تأثيرهما اما اذا وصلتهما بواسطة ما كالمولد الكهربائي المعروف مثلاً فانك تراهما يتخذان حركة قوية جداً للاجتماع ثانيـة وهذه الحركة هي أساس القوة التي تبنى عليهـا المصانع والمعامل الكهربائية .

معجزة الازواج في الكائنات

هناك آيات كثيرة في وحي الله تؤكد هذه الحقيقة المنصوص عليها هنا كقوله تعالى :

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣ ــ ٣)

وقوله تعالى :

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥١ ــ ٤٩)

وقوله تعالى :

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثى (٥٣ ــ ٤٥)

كيفية التزاوج بين الزوجين في الكائنات

أنواع التزاوج معروفة في عالم الحيوان من أرقاها الانسان الى أدناها الحشرات والأوبئة .

أما في عالم النبات فالوحي الآلهي ينص على أن التزاوج فيه سواه في عالم الحيوان .

تأمل قوله تعالى :

وَأَرْسَلْنا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ... (١٥ ــ ٢٢)

أي أن الرياح واسطة للتلقيح ، إذ تحمل ذرات لقاح الذكورة إلى الأعضاء المؤنثة في النباتات ، لأجل أن تتم عملية التزاوج ويصح الإثمار.

وذكر العلماء المكتشفون أن الرياح تلقح السحب أيضاً .

وبعض النباتات يكون لقاحها بواسطة الفراش والزنابير ، وقد جاء في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) صفحة ٤٨ بقلم (جون وليام كلوتس) عن لقاح الأزهار ما يلي : « ومن أمثلتها العلاقة الموجودة بين فراشة اليوكا ــ ونبات اليوكا وهو أحد النباتات الزنبقية . فزهرة اليوكا تتدلى إلى أسفل ويكون عضو التأنيث فيها أكثر انخفاضاً عن عضو التذكير أو السداة . أما الميسم وهو الجزء من الزهرة الذي يتلقى حبوب اللقاح ، فإنه يكون على شكل الكأس ، وهو موضوع بطريقة يستحيل معهــا أن تسقط فيه حبوب اللقاح . ولا بد أن تنتقل هذه الحبوب بواسطة فراشة اليوكا التي تبدأ عملها بعد مغيب الشمس بقليل ، فتجمع كمية من حبوب اللقاح من ُمتَك الأزهار التي تزورها وتحفظها في فمها الذي بني بطريقة خاصة لأداء هذا العمل . ثم تطير الفراشة الى نبات آخر من نفس النوع وتثقب مبيضها بجهاز خاص في مؤخر جسمها ينتهي بطرف مدبب يشبه الإبرة وينزل منــه البيض وتضع الفراشة بيضة أو أكثر ثم تزحف الى أسفل الزهرة حتى تصل الى القلم ، وهنالك تترك ما جمعته من حبوب

اللقاح على صورة كرة فوق ميسم الزهرة وينتج النبات عدداً كبيراً من الحبوب يستخدم بعضها طعاماً ليرقة الفراشة وينضج بعضها لكي يواصل دورة الحياة » .

وذكر أيضاً ان الزنابير الصغيرة تلقح مجموعة من الأزهار بمثل هذه الطريقة وأشد مما يجعل العقل يفكر والقلب يخشع بجلال الايمان فعد اليه في الكتاب المذكور .

آيات التزاوج وحديث التأبير

لقد حسب الذين نظروا في قوله تعالى :

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ٣٦ - ٣٦

والآيات الاخرى التي نزلت في هذا الموضوع أن حديث التأبير ضعيف، إذ من المحال أن يغيب مدلولهن عن ذهنه ﷺ وقد نزلت في مكة والحديث المذكور حصل في المدينة المنورة وهو صحيح إذ رواه الإمام مسلم في فضائل النبي ﷺ عن عائشة وعن ثابت عن انس ان النبي ﷺ مر بقوم يلقحون « النخل » فقال : لو لم تفعلوا لصلح ، قال : فخرج شيصاً فمر بهم فقال ما لنخلكم قالوا : قلت كذا وكذا قال : انتم اعلم بأمر دنياكم . وفي رواية رافع بن خديج قال ﷺ إنما أنا بشر إذا امرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما انا بشر .

اجل إن الحديث الشريف صحيح والآيات المنزلة في مكة في هذا الموضوع لم تغب عن ذهن رسول الله ﷺ وإنما قال ما قال لأهداف أساسية تشريعية مقصودة له ﷺ وهي :

١ – تأكيد انه بشر مثلهم خشية أن يؤدي بهم الغلو في حبه إلى تأليهه كما حصل لبعض رسل الله .

٢ – الأخذ بما يعلمونه يقيناً بالتجربة والاختبار من شئون الحياة لأن الأخذ بها هو من أصول الوحي إذ معلوم أن ما يصلون اليه يقيناً من حقائق التكوين الآلهي للعوالم هو أيضاً من علم الله وفي ذلك حث للدأب في اكتشاف أسرار علوم الله التكوينية ، والإفادة منها ، وهي علوم لا تتناهى ، وفي كل يوم يظهر منها الجديد الجديد ، وهذا سر قوله تعالى :

« ٱلَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » ٦٩-٤ ، ٥

ففي كل يوم يعلم الإنسان ما لم يعلمه في أمسه .

٣ – هناك حقائق دينية يقينية بعيدة عن مناط الأخذ والرد والإثبات والنقد والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل ، وهي غير مسائل علوم الحياة الدنيوية القابلة لكل ذلك لأن علوم التكوين وأمور الحياة وشئون الدنيا تُكشف حقائقها شيئاً فشيئاً وفق التقدم العلمي الإنساني ، لذلك نجد في هذا الحديث الشريف قوله عليه الصلاة والسلام : أنتم أعلم بأمر دنياكم .

٤ – وفي هذا الحديث الشريف حث لهم أن يهتموا بأمور دنياهم ويتثبتوا من حقائقها اليقينية .

هذه جملة من المقاصد الأساسية والأهداف السامية البينة في هذا الحديث الشريف على الرغم من علمه الأكيد بأمور التزاوج في عالم النبات من جملة الآيات المعجزة التي نزلت في مكة .

ولا ريب أن تالي الآية الكريمة هذه :

سُبْحانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمّا لا يَعْلَمونَ (٣٦)

يشعر أنه ملم بجانب من اعجازها المحقق الذي تقدم بيانه .

وهناك الرواية الثالثة التي جاء فيها قوله عليه الصلاة والسلام انما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا بـه فاني لن اكذب على الله عز وجل . وهذه الرواية ذكرها مسلم أيضاً في كتاب فضائل النبي ﷺ فرسول الله في هذه الرواية يعلمنا بطريق المشاهدة العلمية ان الظن لا يغني عن الواقع اليقيني شيئاً . ويعلمنـا أن نأخذ في امور دنيانا بالواقع اليقيني الثابت كما هو الحال في امور ديننا ، ولما كان أكثر البشر يأخذون بالظنون في امور دينهم ودنياهم كانت هذه الروايـة لأجل توجيههم إلى اليقين الثابت في كل ذلك .

وهذا هو توجيـه الله لرسوله الكريم لمحاربة الظنون التي هي مثـار الشرور والفتن والأحقاد بين البشر وهذا التوجيه هو وحي الله المنزل :

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ في ٱلأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦ ــ ١١٦)

وسبب الضلال عن سبيل الله الذي نُص عليه هو اتباع الظن والاكتفاء به دون البحث عن اليقين العلمي في كل ما يأخذ به الانسان أو يدع من عقائد وأعمال ، وهذا مؤكد أيضاً في قوله تعالى :

سَيَقولُ ٱلذينَ أَشْرَكوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقـوا

بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجوهُ لَنـا ، إنْ تَتَّبِعونَ إلاَّ اَلظَّنَّ ، وَإنْ أَنْتُمْ إلاَّ تَخْرُصونَ (٦ ــ ١٤٨)

والحقيقة ان رسول الله ﷺ أراد ان يوجه أمته التوجيه العلمي اليقيني الصحيح المنصوص عليه في آيــات القرآن الحكيم الذي هو الأخذ بيقين العـلم في أمور دينهم ودنياهم والاعراض عن الظن والأخذ به لأن الظن سوى العلم وهو لا يغني عن الحق شيئاً :

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلَّا ظَنًّا ، إنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ اَلْحَقِّ شَيْئاً إنَّ اللهَ عَليمٌ بِما يَفْعَلونَ (١٠ ــ ٣٦)

وقوله تعالى في تأكيد الاخذ بالعلم وطرح الظن :

وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إنْ يَتَّبِعونَ إلَّا اَلظَّنَّ وَإنَّ اَلظَّنَّ لا يُغْني مِنَ اَلْحَقِّ شَيْئاً (٥٣ ــ ٢٨)

وقوله تعالى :

أَلَا إنَّ لِلهِ مَنْ في السَّمٰواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ ، وَمـا يَتَّبِـعُ اَلذينَ يَدْعونَ مِنْ دونِ اَللهِ شُرَكاءَ ، إنْ يَتَّبِعونَ إلَّا اَلظَّنَّ وَإنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصونَ (١٠ ــ ٦٦)

وقوله تعالى في الأسماء الذي يطلقها البشر على بعض الكائنات ويعبدونها ظناً منهم انها آلهة حقيقية :

إنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وآباؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ بِها مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَما تَهْوى ٱلأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (٥٣ ـــ ٢٣)

فجزى الله عن الانسانية خاتم رسل الله ﷺ حيث قرر لهـا النهج القويم الذي به تصل إلى حقائق العلم اليقيني في دينها ودنياها بهذا الأسلوب العلمي المشاهد الذي رأيناه في تعدد روايات هذا الحديث الشريف، ولا ريب أن أمراً كهذا يقتضي التحدث عنه مراراً في مجالس مختلفة . ويقتضي أن يكون الحديث عنه في كل مجلس بما يناسبه . وهذا هو السبب الأكيد في تعدد الروايات الصحيحة . وهذا العمل أشبه بصنيع سيدنا ابراهيم عليـه السلام حيث حطم الأصنـام وجعل الفأس في عنق كبيرهم ليدركوا انهم مخطئون في عبادتهم لهذه الأصنام ، ولو كانت آلهة حقيقة لا ظناً لدفعت عن ذواتها التحطيم :

فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعونَ (٢١ ـــ ٥٨)

وهكذا نجد خاتم رسل الله صلوات الله وسلامه عليه في كل مرة يُنهي الحديث بأسلوب يحفل بروعة الحكمة ومجد الاصلاح وصحة التوجيه وتقويم العلم اليقيني ووضعه في منصته الخالدة .

وهكذا تلمس الانسانية في هذه الروايات المتعددة تحطيم الظن بمقرعة العلم اليقيني ، وتفهم انها غارقة في بحران الظنون في شئون دينها ودنياها، وانها ما دامت مقتنعة بظنها مطمئنة اليه ، فلن تصل إلى الحقيقـة اليقينية في شيء . وهذا مشاهد للعلماء الذين يتعقبون عقـائد البشر ومعارفهم التي يحسبونها عين يقين العلم فجزى الله عن الانسانية العليا الحرة المفكرة خاتم

رسله سيدنا محمد ﷺ في هذه التوجيهات العلمية اليقينية الكريمة المباركة التي تثمر الخير والسعادة والتفاهم للناس كافة .

واني اختم هذه الكلمة وانا خاشع في دلائلها العظيمة كل الخشوع :

وَقُلِ الحَمْدُ لِلهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُون (٢٧ ـــ ٩٣)

من معجزات التكوين

مرّ أن الخالق العظيم ما أقسم بالقرآن الحكيم مؤكداً رسالة خاتم رسله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، إلا وقد اودع فيـــه من الدلائل العلمية اليقينية المثبتة ذلك .

وعلم الله ازلي شامل ، لذلك تجد كل البراهين العلمية اليقينية متجلية صارخة في كل سور القرآن وآياته .

وفي الآيات الآتية من رقم ٣٧ إلى رقم ٤٠ من هذه السورة الكريمة جانب من اعجاز التكوين العلمي اليقيني .

الآيـــات :

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمون (٣٧)

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَها ، ذٰلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليم (٣٨)

وَالقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالعُرْجون القَديم (٣٩)

لا الشَّمْسُ يَنْبَغي لَها أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ

وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) **٣٦ رقم السورة** **٤٠ رقم الآية**

نفهم من هذه الآية الكريمة أن الله عز وجل جعل عالمنا المادي الأصل فيه الظلام . وجعل النور فيه بوساطة الكواكب المضيئة فقال جل وعز :

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ [1] وَحِفْظاً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ .

(٤١ ــ ١٢)

وقال أيضاً :

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ (٣٧ ــ ٦)

وبما ان الليل هو الظلام وبما أن النهار هو النور كشف لنا أن النور يغطي الظلام كما يغطي جلد الحيوان ما وراءه من اللحم ، فإذا سلخت الجلد ظهر اللحم الذي كـــان يغشيه الجلد . وهكذا الظلام يظل مخفياً بالنور فإذا سلخت النور أي أزلته عن الظلام ظهر الليل .

أجـل عرف الناس في عصرنا أن الأصل هو الظلام في كوننا . وان النور يغطي الظلام . فالشمس سراج وهاج تزيل جانباً من ظلام الوجود شأن كل كوكب مصباح مضيء في الوجود . وأن الليل الذي نشاهده في الكرة الأرضية هو الأصل لأن الأرض حين يتجه شطرهـــا الى الشمس يغطي نورها الظلام لاتصاله بذراتها المائجة في فضائها المحدود .

ويظل الشطر الثاني مظلماً على حاله . وهذا ظاهر في الآية الكريمة :

---

١ والمصابيح هي التي يزال بها الظلام .

وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإذا هُمْ مُظْلِمونَ (٣٧)

واليك بيان ذلك :

وقد وصل العلم الحديث إلى معرفة ذلك لأن أرضنا على انبساط سطحها الفسيح كروية الشكل لذلك نجد سطحها غير المقابل للشمس هو المظلم ، وباعتبار كرويتهـا على سعتها وكبر حجمها تشتمل أولاً عـلى المشرق والمغرب ، وثانياً على المشرقين والمغربين . وثالثاً على المشارق والمغارب. فكل جزء يسلخ منه نور الشمس يكون مغرباً ، وكل جزء يغطي نور الشمس ظلامه يكون مشرقاً . وهذا من أكبر آيات الاعجاز . ومن هنا يختلف الليل والنهـار في شتى البلاد طولاً وقصراً وقد قـال الله تعالى في الشرق والغرب :

رَبُّ ٱلمَشْرِقِ وَٱلمَغْرِبِ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ فاتَّخِذْهُ وَكيلاً (٧٣ - ٩)

وهذا ظاهرٌ في شرق الكرة الأرضية وغربها .

وقال سبحانه وتعالى في المشرقين والمغربين :

رَبُّ ٱلمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلمَغْرِبَيْنِ (٥٥ ــ ١٧)

وهــذا معروف في الشرق الأدنى والشرق الأقصى وفي الغرب الأدنى التي هي اوروبا ، والغرب الأقصى التي هي اميركا .

وقال سبحانه وتعالى في المشارق والمغارب .

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلمَشارِقِ وَٱلمَغارِبِ إنَّا لَقادِرونَ (٧٠ ــ ٤٠)

فانك تجد لكل مدينة ومدينة ولكل اقليم واقليم مشرقاً ومغرباً سببها كروية الأرض وهذا الاختلاف يلمسه الصائمون في رمضان حين يسمعون

اختلاف وقت الأفطار بين بلد وآخر ، واختلاف مطلع الشمس كذلك . وهذا يلمسه لمس الحراس الخمس الفلكيون في مراصدهم ، وعلماء التوقيت في تقاويمهم .

وهكذا تجد الليل والنهار يتداولان شطري الكرة الأرضية بنسب متفاوتة حسب الاتجاه للشمس . وقال الله تعالى :

تَبارَكَ ٱلذي جَعَلَ في السَّماءِ بُروجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنيراً (٦١)

وَهُوَ ٱلَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (٢٥ ــ ٦٢)

ومن أجل ذلك اعتبر الفقهاء لاداء العبادات الساعات المتقاربة في البلاد المعتدلة بالنسبة لليل والنهار لتطبيقها في البلاد التي يطول فيها النهار طولاً فاحشاً ويقصر الليل قصراً فاحشاً وهذا التوقيت المعتدل يقدر بالساعات في القطبين .

ومن جميع ما تقدم يلمس المطالعون في الآية الكريمة اعجازاً علمياً صريحاً لأن في تقديم ذكر الليل والنهار على ذكر الشمس والقمر دلالة بينة انهما ناشئان في كرتنا الأرضية عن مجراهما في افلاكهما .

التعريف باطلاق السماء والسموات

السماء في لغة العرب سما يسمو سمواً وسماءً الشيء أي ارتفع وعلا ، وسما به اعلاه ، واسمى يسمي سماءً الشيء أعلاه ، وقليل استعمال اسمى

بمعنى سَمٍّ ، وكل شيءٍ علاك فهو سماء ، والسماء تجمع على سموات وأسمية وسَمي ٌ وسِمِيّ .

ومن أجل ذلك اطلقوا على سقف البيت سماء .

قال الشاعر :

بيتٌ سمواتُـهُ الثريـا وأرضه الوشْيُ والحرير

ويطلق على كل نجم من النجوم سماء باعتبار ارتفاعه عن كرتنا الأرضية من أي جهة نظرت اليه ، ومجموع النجوم يطلق عليه سموات لُغَـةً وكذلك المطر يطلق عليه سماء لهطوله من السحاب الذي يعلو الأرض .

السموات السبع وعوالم الكواكب

هناك عوالم في ابعاد الفضاء،عوالم كبرى سبعة طباق أي بعضها فوق بعض ولكن ما بين كل عالم وعالم ابعاد سحيقة جداً . وسميت سموات لعلوها وبعدها عن المجرات المترامية في ابعاد الفضاء المشتملة على عوالم النجوم والكواكب وقد جاءت نصوص وحي الله تعين أن السموات فوق عوالم النجوم والكواكب .

وان السماء الدنيا أي القريبة من عوالم الكواكب هي الأولى وما وراءها ثانية إلى نهاية السبع ، وقد جاء تفصيل كل سماء منها في حديث المعراج الذي رواه البخاري ومسلم عن مالك بن صعصعة رضي الله تعالى عنه وقد رواه سبعة وعشرون من الصحابة ، لذلك كان في مرتبة المتواتر .

ومن هنا نعلم أن عوالم النجوم على هول أبعادها وتنائي مواقعها السماء الدنيا فوقهـا ، لأن رسول الله ﷺ شاهد عوالم الكواكب في ابعاد الفضاء كأنها القناديل في اضاءتها واشراقها ، وكَشف هذه الأبعاد لمواقع

النجوم لرسول الله ﷺ في ذلك العصر هو من معجزات القرآن الكبرى لأن علماء الانسانية كافــة في ذلك الزمان لم يكونوا عالمين بعظمة مواقع النجوم وهول ابعادها السحيقة التي عرفها علماء عصرنا من مراصد محطات الفضاء في المجرات المتغلغلة في أعماق الفضاء وابعاده السحيقة ، وهذا كله مصرح به في الآية المعجزة :

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ .

(٥٦ ـــ ٧٥ و ٧٦)

ومهما علمنا في هذا العصر عن مواقع النجوم وأبعاد المجرات فإن الذي نجهله أكثر . اذن فأبعاد السموات السبع أنأى وأسحق ببلايين البلايين من السنين الضوئية .

ألا ترى ان الله عز وجل يفهمنا ان هناك نجوماً لمّا تطرق أضواؤها الأرض دفعة واحدة لسحق أبعادها وهذا أمرٌ لم يكن معلوماً قديمــاً ولا يعلم به الفلكيون القدامى . والمحدثون لا يزالون في بداية الطريق وقد أقسم الله بذلك ليلفت النظر الى عظمة ذلك بقوله :

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ . وَمَــا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ .

(٨٦ ـــ ١ و ٢ و ٣)

والسماء أي البعد والقسم بالبعد من الخالق العظيم هو إلفات لنظر العلماء إلى ما فيه من جلال الخلق وابداعه ثم القسم بالنجم الـذي يصل ضوؤه إلى الأرض مخترقاً الفضاء أي يأتيها كما يأتي الطارق على حين غفلــة ثم

بيان ان هناك نجوماً تظهر لأجل الأرض في أثناء جريانها في أفلاكها كما تظهر الظبـــاء حول كنسها ثم تختفي في أفلاكها في الفضاء الذي لم يحط العلماء بكل ابعادها . وكم في تشبيه الكواكب المتغلغلة في أفلاكها بعد ظهورها بالظباء التي تختفي في كنسها من اعجاز صريح في قوله تعالى :

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (٨١ ـ ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨)

من هذه الآيات المعجزة تدرك عظمة ابعاد السموات إذا انت ادركت عظمة ابعاد الكواكب عن ارضنا . وقد بدأ العلماء في هذا العصر يقتربون من معرفة إعجاز آيات القرآن المجيد يوماً فيوماً لأن تقدم العلم هو تقدم لمعرفة الاعجاز في كتاب الله .

وقد فهمنا مما تقدم ان عوالم النجوم هي زينة للسماء الدنيا ومصابيح لها . وقد اختلط على كثير من الكاتبين البيان الفلكي العظيم الذي جاء به القرآن العظيم فلم يميزوا بين السموات السبع وعوالم النجوم . والنصوص كثيرة في السموات السبع ، تأمل الآيات الآتية :

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (٤١ ــ ١٢) .

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ

فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوات وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ (٢ - ٢٩)
أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَواتٍ طِباقاً . وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (٧١ - ١٥ و ١٦)

وهذا الاختلاط والجهل هو الذي تسمعه من السطحيين ، اخترق رواد الفضاء السموات وصعدوا إلى القمر فلم يجدوا الخالق العظيم . تباً لهم ما أجهلهم وان مثلهم كمثل الفراشة الحمقاء تطير وتطير وهي في مكانها حول المصباح المتقد حتى إذا تخيلت انهـا احاطت به علماً ألقت بنفسها فيـه واحترقت ، وما احرقها إلا جهلها . ولو علموا أن شمسنا وكواكبها التي تجري حولها لا تزيد عن نقطة في مجلد ضخم بالنسبة لمجرتنا التي تشتمل على بلايين امثال مجموعتنا الشمسية .

ولو علم هؤلاء الجاهلون أن لفظة سماء مصدر وان مدلولها العلو فاستعمالها في العلو هو الأصل : يقولون فلان في سماء الأمجاد أي في علو الأمجاد .

وجاء في همزية الأبوصيري :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يـا سماءً ما طاولتها سماء

أي يا علواً مـا ارتفع عليه علو ، لأن علوه ﷺ في كمالـه ، في عبادته لربه ، في تبليغ دعوة الايمـان لا يساميه علو . واستعمال السماء بمعنى العلو يعم الماديات وسواها ويجوز استعماله في حق الله عزّ وجلّ . تقول : الله في السماء ، أي في العلو المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله لأن علو الله ليس كمثله علو وقد منع فريق من العلماء ان يقول أحد : الله في السماء سواء أراد السماء الأولى والثانيـة إلى السابعة أو في الجميع إذا قصد أن تكون ال للجنس .

لأن ذلك يقتضي الحصر في الجهات الست ككل كائن من الكائنات .

وقد أفهمنا سبحانه وتعالى انه هـو الذي يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء .

قال الله تعالى :

أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيط . (٤١ ـ ٥٤)

وقوله تعالى :

وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيط (٨٥ ـ ٢٠)

وقوله تعالى :

وَلِلهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (٤ ـ ١٢٦)

ورسول الله ﷺ عرج في السموات العلى واحدة واحدة فلم يقل انه شاهد الله في أحدها ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل كل من في السموات والأرض ان هو إلا عبد لله عز وجل :

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً (١٩ ـ ٩٣)

وقوله تعالى :

وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ

وَالسَّمٰوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ .
(٣٩ - ٦٧)

والحق أن كلّ من في السموات والأرض من الكائنات العاقلة وسواها محاطة بالجهات الست وخاضعة لسننها وتعلم يقيناً أن الله في علو كبير ذلك ذاتاً وصفات وأفعالاً وهي جميعاً تسبّح وتقدّس بحمده جل وعز .
أنظر الآيات الآتية :

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقولونَ إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العَرْشِ سَبيلاً (٤٢)
سُبْحانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً (٤٣)
تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لا تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ إنَّهُ كَانَ حَليماً غَفُوراً (١٧ - ٤٤)

وتجد من حماقة الإنسان وضعف تفكيره وسذاجته في أخذه بتقاليد الاشراك إذا ذكر الله في علو صفاته التي تليق بجلاله يُعرض ويكفر ، وإذا ذكرت الآلهة المتخذة من أفراد الكائنات وصفاتها الحقيرة المحدودة يقبل ويؤمن . انظر قوله تعالى :

وَإذا ذُكِرَ اللهُ وَحدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِالآخِرَةِ ،
وَإذا ذُكِرَ الَّذينَ مِنْ دونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرونَ (٣٩ - ٤٥)

معجزة جلال الله وكماله
في ذاته وصفاته وأفعاله

والحق ان كل من في السموات والأرض وما بينهما من العوالم هي لله وحده وهو العلي العظيم :

لَهُ مَا في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ ، وَهُــوَ العَلِيُّ العَظِيمُ . (٤٢ ـ ٤)

واعتاد البشر الذين يعبدون الأرواح أن يصفوا الله جل وعز بصفـات الجن وسواهم ، والله في علو عن كل ذلك :

وَجَعَلوا لِلهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (٦ ـ ١٠٠)

وعلى كل حال فذات الله وصفاتـه وأفعالـه هي المثل الأعلى . وكل ما عبد من أفراد الكائنات ، دون المثل الأعلى من كل الوجوه ، وكيف تماثله أفراد الكائنات ، وهو الخالق لها بعد ان لم تكن .

وَهُوَ الَّذي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلى في السَّمَوات وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ (٣٠ ـ ٢٧)

ولا ريب ان معرفة العلماء لعلو ذات الله وصفاته وأفعاله وما يليق بجلاله وما يستحيل عليه تكون على مقدار علمهم بحقائق العوالم المترامية في ابعاد الفضاء السحيقة . وعلى مقدار علمهم بحقائق وحي الله اليقيني المنزل . وما مرت حضارة على البشرية قد اتسعت فيها معارف العلماء بسعة العوالم ودقائق صنعها وترامي أبعادها وغرائب عجائبها مثلما اتسعت في هذا العصر القمري هذا الاتساع الكبير الذي جعل أهل النحل يعلمون أن آلهتهم التي اتخذوها من أفراد الكائنات هي أصغر من أن توجد هذه العوالم الفساح الهائلة العظيمة وتهيمن عليها وتصرفها ، وكفروا بها وألحدوا ، ولو أنهم علموا حقيقة ذات الله وصفاته وأفعاله كما هي في وحيه اليقيني المنزل على خاتم رسله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه لقدسوا الله جل وعز كل التقديس وسبحوه بكرة وأصيلاً كما تقدسه وتسبحه كل الأكوان :

يُسَبِّحُ لِلهِ مَا في السَّمَوات وَمَا في الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزيزِ الحَكيم (٦٢ ـ ١)

هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ ، لَهُ الأَسْماءُ الحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ مَا في السَّمَواتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ (٥٩ ـ ٢٤)

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ

شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (١٧ ـ ٤٤)

معنى اطلاق الله في السماء أو في السموات

والذي نفيده بعد دراسة هذه النصوص المحكمة والتعمق في مدلولاتها اليقينية ان سماء الله لا تماثلها سماء أي علو الله لا يماثله علو ، لذلك من قال الله في السماء قاصداً هذا المعنى الأصيل في مدلول الكلمة لا شيء فيه ولكن إذا قصد عالم من العوالم المترامية في الفضاء التي يطلق عليها سماء لغةً فان ذلك لا يجوز .

والعلماء الذين ذكروا أن الله في السماء يقصدون العلو الذي يليق بجلاله ، فلو كنت في عالم النعيم ، أو في سدرة المنتهى ، أو في احدى السموات السبع ، أو في أحد الكواكب التي دون السماء الدنيا ، فانك تقول أيضاً : الله في السماء ، أي في العلو الذي يليق بجلاله ، واما قصد ان الله محصورٌ في اجرام السماء ، أو في سواها ، مما هو دونها كالجاذبية فهي عقيدة خارجة عن وحي الله اليقيني ، لأن فوق السموات السبع عالم النعيم وسدرة المنتهى ، وما إلى ذلك مما هو في غيوب علم الله جلّ وعزّ .

ومهما يكن فألوهية الله وعلوّه وسلطانه ظاهرة كل الظهور في كل عالم من العوالم . اتل ان شئت قول الله عزّ وجلّ تعِ هذا المدلول العظيم المعجز في قوله تعالى :

وَهُوَ الَّذي في السَّماءِ إِلٰهٌ وفي الأَرْضِ إِلٰهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ (٤٣ ـ ٨٤)

أي هو الآله الحق الخالق المتجلي في كل عالم من العوالم ولا إلـه سواه .

وبهذه المناسبة نذكر الحديث الشريف الذي يدل أن مدلول السماء هو العلو المطلق وقد رواه الإمام مسلم عن معاوية بن الحكم السلَمي من حديث طويل يقول فيه : وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أُحد والجوانية فاطلعت ذات يوم فاذا الديب قد ذهب بشاة من غنمها وانا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليّ فقلت يا رسول الله أفلا اعتقها قال : إئتني بها فأتيته بها فقال لها أين الله قالت في السماء قال من انا قالت انت رسول الله قال اعتقها فانها مؤمنة ، فهذه الجارية عربية تفهم من السماء العلو ولو كان هذا الفهم خاطئاً لصحح رسول الله ﷺ قولها وأفهمها الحقيقة .

معجزة تكوين العوالم السماوية

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)

المجرة الأرضية

ومجموعتنا الشمسية هي احدى مجموعات أخرى أمثالها تعد بالبلايين ، والجميع أفراد لمجرة الأرض ، واطلقت اسم مجرة الأرض على المجرة التي تحوي مجموعتنا الشمسية لأن أرضنا التي نسكنها من جملة كائناتها .

الحقيقة التكوينية

هي أن الكائنات المترامية في ابعاد الفضاء سواء ما صغر منها أو كبر ... الجميع في جريان متتابع وسبح مستديم بكيفيات منسقة وابعاد مقدرة سحيقة سحيقة .

أنواع جريان الكائنات في الفضاء

عيّن وحي الله اليقيني أنواع جريان الكائنات في الفضاء في نصوص كثيرة :

وَٱلنَّازِعَاتِ غَرْقاً (١)

وٱلنَّاشِطاتِ نَشْطاً (٢)

وَٱلسَّابِحاتِ سَبْحاً (٣)

فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (٤)

فَالْمُدَبِّراتِ أمْراً (٧٩ ـ ٥)

وَهُوَ ٱلذي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحونَ (٢١ ـ ٣٣)

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إذا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ (٨١ ـ ١٨)

وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أدْراكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ. (٨٦ ـ ٣)

هذه الآيات وصفت وظائف الكواكب السماوية :

فالنازعات : هي الكواكب الجارية التي تنزع مغرقة في أعماق الفضاء.

والناشطات نشطاً : هي الكواكب التي تجري من برج إلى برج .

والسابحات سبحاً : هي الكواكب التي تسبح في أفلاكها فلا اصطدام ولا تخوف من اصطدام .

والسابقات سبقاً : هي الكواكب التي يسبق بعضها بعضاً في مجاريها في الفضاء إذا كانت متعاكسة فلا يكون بينها تصادم أبداً .

فالمدبرات أمراً : هي الكواكب ذات التأثير في تدبير بعض امور أرضنا حسب تقدير الله جلّ وعزّ وتسمى بالأنواء نظراً لصلتها بسقوط الأمطار . وهذا تأويل مَن جعل هذه الأقسام بأصناف الملائكة . والمقصود (بالخنس الجوار الكنس) هي النجوم التي تظهر ثم تختفي في أفلاكها كما تظهر الظباء ثم تختفي في كنسها أي بيوتها .

والمقصود من السماء كما تقدم العلو . (والطارق) هو النجم الذي يطرق ضوؤه الأرض ليلاً .

آية تكوين الشمس

كوكب كروي غازي تبلغ حرارة سطحه ستة آلاف درجة مئوية ، وقطره مئة وتسعة أضعاف الأرض وتصل أشعة الشمس الى الأرض في ثماني دقائق وثماني عشرة ثانية ، وتبعد الشمس عن ارضنا مئة وتسعة وأربعون ونصف المليون من الكيلومترات .

والشمس تجري ككل جرم سماوي . وجريانها على حالين : (١) حول نفسها ، (٢) وفي جملة عوالم مجراتها وهي لا تعدو مستقرها المعين لها في الفضاء شأن كل اجرامه ومجراته . و (اللام) في قوله تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها) للاختصاص أي للمكان المخصص بها في هذا الفضاء

كما تقول (البيعة للنصارى والمسجد للمسلمين) وقيل (المستقر) إنهاء تكوينهـــا في هذا العالم وتبددهـــا . إذ لكل جرم مـن أجرام الفضاء المادي نهاية ينتهي اليها . ولا ريب أن الذي قدر وضع الشمس في مستقر في هذا الفضاء مختص بها لا تتجاوزه مقدار ثانية أو ما هو دونها هو الله الخالق العظيم .

ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم

أي القوي الذي تعجز العقول العالمة المدركة عن الاحاطة بكنهه .

والعليم الذي يشمل علمه كل ما كان ويكون من أمر الأكوان مـــن قبل تكوينها ومن بعده ، والذي لا يتجاوز عـــلم الخلائق العاقلة بالنسبة لعلمه جـل جلاله مقدار ما تمسكه الإبرة إذا غمست في لجج المحيطات العارمـــة .

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذلك تقدير العزيز العليم ٣٦ ـ ٣٨

والخلاصة ان الجريان في السير السريع ولكل كائن سرعته ولا يقـال للجواد إذا سار هادئاً جرى ، وانما يقال لـــه جرى إذا أسرع . ومنه جرى الماء .

والعلماء اليوم لمسوا أن الشمس تجري حول نفسها وتجري هي وتوابعها في مجموعة مجرتها لأن كل العوالم في الفضاء هي في حركة دائمة وجريان مستمر ، وهذا الجريان في الفضاء يحدث اتساعاً وتمدداً للكائنات .

ومهما يكن فالسبح عام وشامل وفي ذلك جاء النص :

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون ٣٦ ـ ٤٠

أي أن الجميع يسبحون في هذا الفضاء في أفلاك خاصة ، حتى النجوم

ذوات الأبراج التي سماها (اسحق نيوتن) شموساً . لذلك كانت شمسنا أقرب النجوم إلى الأرض .

إذن فالسبح عام وشامل وانما الخلاف يكون في كيفيـة السبح لكل جرم بالذات حسب مـا هو كـائن ومعين في وحي الله . وانت تسمي جميع الذين تراهم في البحر سابحين وإن كانت حال سباحة كل واحد منهم تختلف عـن الآخر في طفو وغوص وتقلب وقذف وذهـاب واياب ودوران وما أشبه ذلك مما نشاهده على شواطىء البحار .

وهذا شأن عوالم الفضاء بالنسبة لسكان الأرض فهنالك العوالم الطافيـة القريبة الظاهرة لسكان الأرض ، وهناك الغائصة الخفية في أعماق الفضاء السحيقة غير المحددة ، والكل جارٍ وسابح في مواطنه المخصصة لـه في هذا الفضاء الواسع ، والبحر نفسه تسير به الكرة الأرضية دون تغيير في وضع السابحين ، وهذا شأن عوالم الفضاء جميعاً في سبحها الجماعي المقدر المتغلغل في ابعاده :

وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعونَ (٥١ ـ ٤٧)

وهذا الاعجاز جانب مما تشتمل عليه الآية الكريمة التي ذكرنـا بعض تأويلها ودلائلها التي تدل عليه :

وَالشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذٰلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليم

واعجازهـا يحمل التطور العلمي الصاعد ، وكلما تقدم العـلم وسما ، اقترب من بلوغ شواطئه وتغلغل في اعماقه واطلع على عجائبه .

فسبحان الله ما أعظم وأجل اعجاز القرآن المجيد ومـا أعظم وأجل ملكوت الله الذي يكشفه لنا التقدم العلمي يوماً فيوماً وكم فيهما من كنوز وكنوز .

والآن أدركنا أن سبح الشمس في الفضاء كسبح كل الأجرام السماوية له مستقر تنتهي اليه .

وهذا المستقر النهائي موعده قيام الساعة . وهـــو حتم لكل كائن . والشمس لدى كل شروق هي تظهر لنا خضوعها وسجودها لإرادة خالقها العظيم انها تعود الينا في اليوم التالي على حالها التي فارقتنا عليه .

والكائنات السابحة في الفضاء إن كان سبحها في مستقرات مخصصة لها بالنسبة للكائنات المتنقلة سميت نجوماً ذات بروج لأنهـا ترى في مستقرات جريانهـــا كالبروج . وان كانت تجري في دائرات سميت كواكب سيارة ذوات افلاك . والدائرة قد تصغر حتى لا تتجاوز مساحتها الشهر كفلكان الذي يبدو كأنه النحلة تطير حول قرص الشمس . وقد تكبر حتى تطوي في مسيرتها مليارات السنين الضوئية .

وما دامت كل اجرام الفضاء في جريان مستمر وحركة دائمة ، سواء ما بدا انه يجري حول نفسه في برجه أو يجري في دائرة ، ومـا دامت جميعها تسبح في هذا الفضاء بتقدير إلهي مركز في صميم تكوينهـا مقدرة بصنع مكونها الخالق العظيم المهيمن عليها والمتصرف فيها والمحرك لها وفق علمه وإرادته وقدرته ، فلن يكون بينها تصادم ولو قدر لمحة خاطفة . وهذا مؤكد في قوله تعالى : (وكل في فلك يسبحون) .

معجزة منازل القمر

وَالقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجونِ القَديمِ (٣٩)
٣٦ - ٣٩

القمر ودورته حول الأرض

هو كوكب يدور حول الأرض ويستمد نوره من الشمس ويعكسه عليها :

هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ . مَا خَلَقَ اللهُ ذٰلكَ إِلَّا بِالحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعْلَمونَ (١٠ ـ ٥)

ويسمى قمراً بعد ثلاث ليال من المِحاق إلى آخر الشهر . أما قبل ذلك فيسمى هلالاً .

ويتم الشهر القمري بتمام دورة القمر حول الأرض . وللقمر وجهان

أحدهما مرئي دائماً وهو الجانب القريب . والآخر غير مرئي وهو الجانب البعيد .

ويتألف الجانب القريب المرئي من القمر من صخور بركانية داكنة اللون ثقيلة الوزن . أما الجانب البعيد الذي لا نراه فيتكون من صخور باهرة اللون ، وأرضه مكونة من فوهات بركانية منحدرة الجوانب وعرة . وهذه الفوهات تختلف حجماً إذ يصل قطر بعضها إلى حوالى الف كيلومتر . ونجد الجانب البعيد يرتفع عن الجانب القريب بحوالي أربعة كيلومترات . وفي رأيي ان ذلك ناتج عن قوة الجذب بين الأرض والقمر[1] .

وكذلك للقمر منازل مقدرة يمر بها أثناء دورته حول الأرض .

منازل القمر

المنازل مفردها منزل ومنزلة ومدلولها مكان النزول والمسكن ...

والمنازل يراد بها هنا النجوم الثوابت التي يمر تجاهها القمر أثناء دورته الشهرية وعددها ثمان وعشرون منزلة ، وكل منزلة لها نجم خاص يواجهه القمر في دورته وان كان البعد بينهما شاسعاً جداً . وأطلقت لفظة منازل على أماكن مواجهة القمر للنجوم التي يمر بها ، لاشتمالها على مدلول المنازل . لأن المنزل لا يتركه صاحبه إلا وهو مصمم على العودة اليه .

وهذا لأمر محقق في القمر فإنه لا يترك منزلاً من منازله إلا والعودة اليه مؤكدة إلى قيام الساعة ...

اذن فاطلاق المنزل يقصد به المكان والحال الخاصة التي يظهر عليها

---

١ راجع مجلة قافلة الزيت – شعبان ١٣٩٤ هـ ، أيلول ١٩٧٤ م بقلم الدكتور فاروق الباز .

القمر لدى مروره حول الأرض في كل شهر . وان كـــان فرق مظهر القمر من منزلة إلى اخرى يظل خفياً .

وقد يراد بمنازل القمر مظاهر أحجامه وأشكاله واضوائه لدى رؤيتنا له من الأرض وهو يسبح حول الأرض في فلكه .

وعدد منازل القمر بالنظر إلى مجراه تجاه النجوم الثوابت ثمانية وعشرون منزلاً وفق احصاء علماء الفلك الأقدمين ...

وعددها بالنظر الى اختلاف مشهده لأهل الأرض ثمانية كما ذكرهـــا علماء الجغرافيا الفلكية .

وقد اسموها أوجه القمر لمشاهدتهم لها من الأرض وجهاً لوجه .

الأول : منازل القمر وفق مجراه تجاه النجوم

ذكرها ابن قتيبة ثمانية وعشرين منزلاً ولم يذكر منزل المِحاق لاختفائه فيه عن الأنظار .

وهذه المنازل هي النجوم الثوابت التي ينسب العرب اليهـــا الأنواء . وأسماؤها عندهم هي :

(١) السرَطان (٢) البُطَيْن (٣) الثُريا (٤) الدَّبُران (٥) الهقْعَة (٦) الهنعة (٧) الذراع المبسوطة (٨) النَثْرة (٩) الطرف (١٠) جبهـــة الأسد (١١) الزَّبْرة (١٢) الصرفـــة (١٣) العوى (١٤) السِّماك الأعزل (١٥) الغفر (١٦) الزُّباني (١٧) الاكليل (١٨) قلب العقرب (١٩) الشولة (٢٠) النعائم (٢١) البلدة (٢٢) سعد بلع (٢٣) سعد الذابح (٢٤) سعد السعود (٢٥) سعد الأخبية (٢٦) فرغ الدلو المقدم (٢٧) فرغ الدلو المؤخر (٢٨) الرِشاء أو بطن الحوت .

وهذه بعض أبراج السماء التي عرفها قدامى الفلكيين :

تَبارَكَ ٱلذي جَعَلَ في السَّماءِ بُروجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنيراً (٢٥ ـ ٦١)

الثاني : منازل القمر من حيث مشهده لأهل الأرض

هذه المنازل مفصلة حسب أشكاله وأحجامه المشاهدة والذي هدى العلماء اليها هو قول الله عز وجل :

حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيم

وهذه اشارة الى المنزلة الهلالية التي يختم بها الشهر القمري . وفيها يبدو شاحباً مصفراً مقوساً كأنه عنقود النخلة الذي أُخذ منه تمره وطرح مهجوراً حتى جفّ على مرور الأيام وازداد تقوساً واصفراراً .

تأمل لفظة (عاد) في قوله تعالى : (حتى عاد كالعرجون القديم) . تجدها تفيد العودة إلى هذه المنازل مرّة بعد أخرى تباعاً .

واكتفى الوحي بذكر المنزل الهلالي الذي يختم بها الشهر دون سواه من المنازل لأن رؤية المنازل تنتهي اليه إذ بعده يختفي القمر في منزل المِحاق. وعلى اثره يبتدىء سيره في الظهور شيئاً فشيئاً .

وفي هذا الاختفاء والظهور تتعلق بهما مصالح العباد الدينية والدنيوية ؛ والسبب أن منزلة المِحاق واسطة بين المظهرين وعلامة على نهاية الشهر.

اسمع ما يقوله العلامة الشهيد السيد قطب رحمه الله : « والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرآني العجيب (حتى عاد كالعرجون

القديم) . وبخاصة ظل ذلك اللفظ القديم ، فالقمر في لياليه الأولى هلال وفي لياليه الأخيرة هلال ولكنه في الأولى يبدو وكأن فيه نضارةً وفتوةً وفي الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ويكسوه شحوب وذبول : ذبول العرجون القديم ، فليست مصادفة أن يعبر القرآن الكريم عنه هـذا التعبير الموحي العجيب » راجع تفسير في ظلال القرآن السيد قطب رحمه الله سورة يس .

وهكذا نجد كثيراً من أسرار الوجود منطوية في آيات القرآن المجيد .

واني اضرع إلى الله عز وجـل أن يهيىء لاستنباط معجزات القرآن الهائلة الخفية في آياته علماء راسخين يجمعون بين الثقافتين : الثقافة الإسلامية والثقافة الحديثة ويتعمقون في الاحاطـة بمعارفها الواسعة ثم يباشرون في اخراج تفاسير حديثة محررة على غرار المفسرين القدامى الموثوق بهم الذين تبتلوا لفهم آيات القرآن وسهروا وجهدوا الأعوام الطوال المترادفـة حتى اتوا لأجيالهم ولمن يليهم بالأعمال الباهرة فكانوا بحق أعلام الخلود ومنائر الهداية والأدلاء الفصحاء إلى فهم كلام الله المعجز المتحدي .

وسيكون هذا شأن مفسرين محدثين بالنسبة لجيلهم والأجيال القادمة .

وكم في القرآن المجيد مـن معجزات مكنوزة مدخرة للأجيـال تبهر عقول العلماء الأحرار من شرقيين وغربيين .

ولا ريب ان تفاسير تجمع بين الثقافتين تجعل عتـاة العلماء المتمردين يأسفون أشد الأسف انهم لم يدرسوا وحي الله بـالأمس وتجعلهم يقبلون على درسه بحرية وصدق ونزاهة واخلاص ما دام رائدهم تحرير المعرفـة من كل زيف واختلاق ، ولمَ لا يأسفون أشد الأسف والقرآن المجيـد نور الله سطع في هذه الكرة الأرضية وهو يحمل لأهلها كل دلائل العلم اليقيني وكل براهين منطقـه السديد ليسموا بالانسانية إلى مُثلها العليـا

ويخلصها من أغلال التقاليد ووحولها وينقذها من ظلمات الجهل المتكاثفة .

وعلماء الأمم الأعلام يدركون ان المعرفة اختلطت بها النزعات المنحطة والعصبيات الممقوتة والترهات الباطلة كما يدركون أنه تغشاها الغرور الخداع المستكبر باسم الاعتزاز بالعصبيات الوهميــة كالشخصية حيناً وباسم دنس القومية حيناً آخر ، كالتعالي بالذات المنحطة في اكثر الأحيان وكثير من ذلك مقحم في العلم الظني .

ومهما يكن فآيات القرآن المجيد وتحديات معجزاته وانتصاراته لا تنتهي عند حــد ما دام في الأرض علم منزه عن الأساطير والفروض والظنون وعلماء راسخون أعلام يؤمنون بالعلم ويكفرون بالأسطورة ولا يأخــذون بعقيدة ولا يدعونها إلا بوعي وصدق وعلم وحق .

والآن يحسن أن نذكر منازل القمر الثمانية المبنية على مشاهدته لأهل الأرض :

١ ــ المنزل الهلالي .
٢ ــ المنزل التربيعي الأول .
٣ ــ المنزل الحدبي الأول .
٤ ــ المنزل البدري .
٥ ــ المنزل الحدبي الثاني .
٦ ــ المنزل التربيعي الثاني .
٧ ــ المنزل الهلالي الثاني .
٨ ــ منزل المحاق .

والقمر عتبة السماء الأولى ، ودراسته اليوم شغل العلماء الشاغل وهي لا تزال في حماسة تطلعاتها واستهلال رياداتها .

ويسعدني قبل أن اختم حديثي عن تأويل الآية المعجزة :

« وَالقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتّى عادَ كَالعُرْجونِ الْقَديم »

أن ألفت ذاكرة المطالعين الدارسين الى الضجـــة الكبرى التي دارت حول تأويل اولى آيات سورة القمر :

ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ (٥٤ ـ ١)

لصلتها بتأويل الآية .. الضجة التي أثارها شيخ العروبة المرحوم أحمد زكي وقد اتسع الأخذ والرد حولها بين الكاتبين في الصحف وكان ثمرته جملة من التآويل :

الأول :

أن القمر انشق في مكة آية لصدق رسول الله ﷺ ، وهذا حق وقد وقع فعلاً وشاهده أهل زمانه لحظة انشقاقه .

والمؤمنون آمنوا بما شاهدوا وعلموا انه معجزة لصدق رسول الله ﷺ . لأنه رواه جمع من الصحابة حتى بلغ مرتبة التواتر .

والمشركون جحدوا ذلك وزعموا أنه ﷺ سحر أعين الناس ، ومـا كان رسول الله ﷺ من الساحرين .

الثاني :

أن انشقاق القمر كان ظاهرة كـــونية حدثت وشوهدت بالعين المجردة كما يشاهد الشهاب إبّان انقضاضه وقد نقلت خبر ذلك جريـــدة الإنسان العربية ، التي كانت تطبع في الآستانة ، عن الصحف الأجنبية،

وحاصله أنه عثر في ممالك الصين ، على بناء قديم ، مكتوب عليه أنه حدث حادث سماوي عظيم هو ، انشقاق القمر نصفين ، وحرر التاريخ فوافق سنة انشقاقه لرسول الله ﷺ والله أعلم ، وإن أردت التوسعة في البحث فراجع سيرة محمد رسول الله ﷺ لمحمد رضا ص ٤٧٨ .

وهذا القول مؤيد للقول الأول ، ولا عبرة لقول الملاحدة ، إنه ظاهرة كونية ، لأن رسول الله ﷺ يرفض أن يتخذ سنن الظواهر الكونية آيات دالات على صدق رسالته ، وانما هي آيات دالات على صدق وجود الله ، وكمال قدرته ، ولو كان يقبل ذلك ، وحاشا أن يقبل ذلك ، لما ردّ قول القائلين : إن الشمس كسفت لموت ولده ابراهيم ، بقوله :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم »[١] .

الثالث :

انشق بمعنى ينشق وجاء التعبير بالماضي عن المستقبل تأكيداً لحتمية الانشقاق الآتي وذلك يوم القيامة ، على أن الأجرام السماوية ستنشق في ذلك اليوم ، وتفكك ذراتها .

الرابع :

وهو أحدث الأقوال أي ينشق الطريق اليه وهذا القول يؤيده ما جاء في سورة الانشقاق :

---

١ رواه الشيخان

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (٨٤ـ ١٩)

(والقمر إذا اتسق) الواو للقسم والله لا يقسم في وحيه إلا لأمرٍ عظيم من الإعجاز . وأيُّ إعجاز أعظم من التنويه بانشقاق الطريق الى القمر في عصر صاحب الرسالة . ودليل هذا المراد يصدق عليه مجموع معاني الآية . ولمَ لا ، والاتساق هو انتظام الأمر واستوائه ، وقد انتظم الطريق الى القمر واستوى ويؤكده معنى قوله تعالى : (لتركبن طبقاً عن طبق) أي لتعلن حالاً عن حالٍ دونها ، وهذا حاصل في الصعود إلى القمر ، ففي كل يوم تستجد حالٌ للصعود الى القمر عن حالة سابقة دونها يتجاوزها العلم ويتخطاها ، والعلم أبداً في تقدم مطرد لا يقف عند حد .

ومجموع هذه الدلائل بينة في انشقاق الطريق إلى القمر اضف إلى ذلك قول الله تعالى : (إذا السماءُ انشقت) الا ترى فيه الاشارة إلى ذلك، لأن السماء هي العلو ، وانشقاق في العلو في عصرنا كان بدايته إلى القمر ، لأن (إذا) بمعنى الوقت والزمان الدال على المستقبل ، وهذا الانشقاق في العلو من علامات قرب الساعة ، كما أن الأرض مدت في العمران وألقت ما في بطنها من الكنوز والمعادن والزيوت وسوى ذلك .

ومهما يكن فإن الذين يشتقون الطريق إلى العلو هم في كل يوم يعلون حالاً في التقدم العلمي والاطراد الحضاري عن حال سابقة أدنى لأن التقدم العلمي والاطراد الحضاري لا يقفان عند حد .

وهذا هو يقين الواقع المشاهد ، الذي نجده في نصوص وحي الله ، وما أكثرها في القرآن المجيد . وها هم العلماء اليوم أخذوا يعدون المكوك

الفضائي ، الذي سيكون لـه أثر كبير في اختراق الفضاء إلى الكواكب وكشفها وهو يشبه الطائرة ، وكلفته ادنى من كلفة الصواريخ .

هذه جملة الأقوال التي يحتملها تأويل الآيـة المعجزة ، ولا ريب أن تحامل القائلين بها ضد بعضهم بعضاً هو من الخطأ بمكان لأمرين أساسيين :

الأول :

إن الاختلاف في هـذه الأقوال لا يتصل بالعقيدة التي تفضي بهم إلى الكفر ، وانما هو اجتهاد في فهم التأويل ، فمن أصاب فلـه أجران ، ومن أخطأ فله أجر مـا دام في حدود الشريعة واستقامتها ، وما دام في علم الاجتهاد وإيمانه وصدقه .

الثاني :

إن هذه الأقوال لا تضارب بينها ولا تنافر من حيث الاتجاه والغايـة المثلى :

لأن انشقاق القمر الذي تم بكل تأكيد في عهد صاحب الرسالة ﷺ وعينته الآية المعجزة .

١ ـ لا يمنع من مدلول انشقاقه يوم القيامة .

٢ ـ كما لا يمنع من انشقاق الطريق اليه ما دام قد حصل بالفعل .

٣ ـ وهو في الوقت نفسه ظاهرة كونية ، ولم ينف أحد أنه ظاهرة كونية يقصد من ورائها سوء النية لإبطال المعجزة .

وهذه المقاصد الثلاثة التي تشملها الآية إعجازاً وتحديـاً بدون تحمل ومغالاة .

ومحال ان يُلبس أحد الآيـة معاني خارجة عن مدلولات ألفاظها لأن القرآن المجيد مشتمل على أسرار علم الله الشامل ، لمـا كان ويكون إلى

قيام الساعة بل وإلى ما يكون بعد قيام الساعة .

والذين يجحدون ذلك هم الملحدون الذين لا يؤمنون بوجود الله الخالق العظيم ولا بوحيه المعجز ولا برسله ولا باليوم الآخر .

عبادة القمر

والقمر قد عبد من دون الله ككل شيء غريب في هـذا الوجود ، ومثله الشمس وسائر النجوم . وجاء نص وحي الله بالنهي عن عبادته ، لأنه مخلوق مثلهم ، ومن الانحطاط في العلم والفكر أن يعبد مخلوق مخلوقاً مثله لا يملك لـه ضراً ولا نفعاً ولا حياة ولا نشوراً ، هذا انحطـاط ما دونه انحطاط في العلم والفكر والعقيدة والنظر .

وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ . لا تَسْجُدوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدوا لِلهِ الذي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدونَ .

(٤١ ــ ٣٧)

معجزة تنظيم مسيرة اجرام السماء

لا الشَّمْسُ يَنْبَغي لَها أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحونَ (٤٠) ٣٦ ـ ٤٠

نفهم من بحث أنواع جريان الكائنات في الفضاء ان الشمس لها مستقرها الخاص بها ومجراها الذي لا تتجاوزه قدر سمسمة .

وان القمر له فلكه الخاص به حول الأرض الذي لا يتعداه قيد شعرة . وهذا شأن الكائنات المترامية الفضاء كافة إبان سبحها الدائم .

وهنا يفكر المتأمل في عظمة هذه الأجرام السماوية السابحة في الفضاء سواء أكانت من ذوات المستقرات الخاصة المسماة بالبروج أو من ذوات المدارات التي تجري فيها أو سوى ذلك مما احاط به العلم أو لم يحط به حتى عصرنا .

أجل يتفكر المتأمل في كل ذلك أعمق التفكير .

وإذا كان خفيف الايمان ربما يخشى التصادم حين يعلم ان بعض الكواكب تجري معاكسة لسواها كالنجم المذنب بالنسبة لمجرى الأرض

فانه يمر مخترقاً فلكها وقد يكون قريباً من الأرض جداً حين مروره فيخشى العلماء ان يؤدي ذلك إلى التصادم والتدمير واختلالاً في موازين سبح الكواكب ومسيرة الكائنات ، وقد حدث هذا الخوف فعلاً في عصرنا حتى اعتقدوا أن الأرض ستدمّر .

ولكن وحي الله يزيح من الفكر اثر ذلك الخوف لأنه يفهمنا ان التصادم محال ان يكون ، والذين يتخوفون أن يصدم كرتنا الأرضية مذنب من المذنبات التي تمر قربها أو قرب سواها من مجموعة. الكواكب الشمسية هم بين أمرين :

١ ـ إما انهم لم يكونوا عالمين بما انزل الله على خاتم رسله سيدنا محمد ﷺ من وحي معجز حق يعلن أنه لن يكون ثمة تصادم :

لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحونَ (٤٠)

٢ ـ وإما انهم لم يكونوا من المؤمنين بالوحي وبما أعلنه .

ان الكرة الأرضية وسواها تجري في أفلاكها الخاصة ، وبما ان الكرة الأرضية ليلها ونهارها يتقلبان بين يدي الشمس والقمر ، فالشطر الذي فيه النهار هو الأسبق ويسمى الشرق وينتقل منه النهار إلى الغرب ويخلف النهار الليل في الشرق بنسب مقدرة دقيقة حسب كروية الأرض وهذا سرُّ قوله تعالى :

وَهُوَ الذي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (٢٥ ــ ٦٢)

اجل يخلف الليل النهار بنسب متداخلة تقتضيها كروية الأرض وهذا صريح في قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلون خَبيرٌ (٣١ ــ ٢٩)

وذلك حسب دورة الأرض حول نفسها وامتداد نور الشمس وهذا كله أصبح في عصرنا مدروساً بوعي ودقة ويدرس في كل مدارس الدنيا .

وحين يرصد علماء الفلك أجرام السماوات يرونها تسبح في الفضاء غير مرتكزة على عمد ، وانما هي مرتكزة على عمد من الطاقة غير مرئية بقدرة الله عز وجل التي تمسك كل شيءٍ وفي ذلك جاء نص وحي الله المعجز :

اللهُ ٱلذي رَفَعَ السَّمٰوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ ٱسْتَوى عَلى ٱلعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْري لِأَجَلٍ مُسَمّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنونَ (١٣ ــ ٢)

وهل هذه العمد التي تمسك عوالم السماوات في مراكزها من الفضاء ولا ترى سوى قدرة الله المهيمنة على كل شيءٍ والمسيرة كل شيء .

قال الله تعالى :

إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزولا . وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَليماً غَفوراً (٣٥ ـ ٤١)

وقال تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا في الأَرْضِ والفُلْكَ تَجْرِي في الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلى الأَرْضِ إلاَّ بِإذْنِـــهِ إنَّ اللهَ بِالنّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ (٢٢ ــ ٦٥)

وقال تعالى :

أَوَلَمْ يَنْظُروا في مَلَكوتِ السَّمٰواتِ وَٱلأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكونَ قَـــدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنونَ (٧ - ١٨٥)

معجزة المواصلات العامة

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ في الفُلْكِ المَشْحونِ (٤١) ٣٦ ـ ٤١

وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبونَ (٤٢) ٣٦ ـ ٤٢

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذونَ (٤٣) ٣٦ ـ ٤٣

إلاَّ رَحْمَةً مِنّا وَمَتاعاً إلى حينٍ (٤٤) ٣٦ ـ ٤٤

للمواصلات السريعة المنسقة الناهضة بكل حاجات البشرية أثر فعال كبير في سبيل التقدم الحضاري .

ووحي الله نوّه بشتى وسائل المواصلات المتعارفة إبّان نزوله في نصوص كثيرة :

اللهُ ٱلذي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ (٤٥ ـ ١٢)

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطونِها وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلونَ (٢١) ٢٣ - ٢١

وَعَلَيْها وَعَلى الفُلْكِ تُحْمَلونَ (٢٣ - ٢٢)

كما نوّه بوسائل للمواصلات ستحدث تقتضيها تطورات الظروف الحضارية ستكون حتماً . وهي سوى الوسائل القديمة كالأنعام والخيل والبغال والحمير ، وسائل تناسب العصر الذي يخلقها الله فيه .

وقد حدثت في عصرنا فعلاً . وانك تجدها ماثلة في القاطرات والسيارات وفي سفن البر والجو :

وَالأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلونَ (٥)

وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحونَ وَحِينَ تَسْرَحونَ (٦)

وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكونوا بالِغيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤوفٌ رَحِيمٌ (٧)

وَالْخَيْلَ وَالبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبوها ، وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمونَ (١٦ - ٨)

وقد رأينا ما حدث من شتى وسائل النقل الحديثة حتى أصبحنا نرى السفن البخارية كأنها الجبال وصدق قول الله عز وجل :

وَلَهُ الجَوارِ المُنْشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ (٥٥ - ٢٤)

وكل ذلك لم يكن موجوداً في فجر الإسلام .

وعلى كل حال فالسفن المنشآت في البحر سواءٌ أكن يسرن بالرياح أم بالبخار أم بالطاقة الذرية فانهن يسرن بنعمة الله وقدرته المبدعة كل كائن وعمله .

رَبُّكُمُ ٱلذي يُزجي لَكُمُ ٱلفُلْكَ في ٱلبَحْرِ لِتَبْتَغوا مِنْ فضْلِهِ إنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحيماً (١٧ ـ ٦٦)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْري في البَحْرِ بِنِعْمَةِ ٱللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١ ـ ٣١)

أليس الطاقة الجاذبية التي تمسك كائنات السماء أن تقع على الأرض هي من صنع قدرة الله كالبخار وسواه :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا في الأَرْضِ والفُلْكَ تَجْري في البَحْرِ بِأَمْرِهِ ويُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلى الأَرْضِ إلَّا بِإذْنِهِ إنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحيمٌ (٢٢ ـ ٦٥)

وانك تجد معجزة المواصلات الحديثة ماثلة في آية النحل :

وَالْخَيْلَ وَالبِغالَ وَالحَميرَ لِتَرْكَبوها وَزينَةً . وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمونَ (١٦ ـ ٨)

وكذلك تجدها ماثلة في آيتي سورة يس :

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) ٣٦ - ٤١
وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) ٣٦ - ٤٢

وإعجاز هاتين الآيتين يبدو لدى انعام النظر في تآويلها الثلاثة مع ملاحظة ان الفلك تستعمل للسفينة الواحدة وللسفن وللمذكر وللمؤنث . والمشحون الموقور المملوء .

التأويل الأول

ان الفلك هي سفينة نوح عليه السلام ، ولما كانت سفينة نوح لم تحمل ذريتهم بل حملت آباءهم ، قالوا المقصود من ذريتهم آباءهم من قبيل المجاز المرسل : لأن الآباء كانوا ذرية لقوم آخرين ، ولا ريب ان سفينة نوح عليه السلام معجزة عظيمة وتشتمل على عظات وآيات ذات قدر عظيم .

ولما كانت المثلية غير معينة في قوله تعالى :

« وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » .

ذكروا مرة انها الابل لأن الابل تحمل الناس وامتعتهم ، من مكان إلى آخر كالسفن حتى اطلقوا عليها سفن الصحراء .

التأويل الثاني

وذكروا أخرى أن المقصود من قوله تعالى :

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ

هي السفن التي صنعت بعد سفينة نوح عليه السلام وكن على غرارها، وهذان التأويلان مرويان عن ابن عباس رضي الله عنهما .

التأويل الثالث

وفي عصرنا ظهرت أيضاً معجزة غيبية في تأويل الآية إلى جانب التأويلين السابقين لأن المثلية تعينت بظهور سفن الفضاء من شاحنات وسواهـا . وهذه السفن الحديثة هي طائرات النقل التي تنقل البشر والبضائع إلى أقصى القارات كالسفن البحرية تماماً .

وظهور اعجاز المثلية يجعل مدلول الذرية جاء في محله ، والذي يؤكد هذا المعنى العظيم هو استعمال الفعل الماضي الدال على التحقق محل المضارع (أي) ونخلق لهم من مثله ما يركبون . والعادة لدى البلغاء إذا قصدوا تأكيد وقوع أمرٍ سيحدث حتماً استعملوا له الماضي لأن الماضي يدل على الحصول اليقيني ، بدلاً من المضارع الدال على المستقبل المجهول . ومن أجل ذلك لما كان مجيء يوم القيامة حق ولا بد منه قال الله تعالى في مجيئه :

أَتىٰ أَمْرُ ٱللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالىٰ عَمَّا يُشْرِكونَ.

(١٦ - ١)

بمعنى يأتي حتماً ، وهذا المعنى مشهور في كلمات الأدباء بل وحتى لدى العامة . وذكروا أن رجلاً كان له جارٌ كثير الأسفار وكان يوصيـه في كل سفرةٍ أن يشتري لأبنه زموراً وكان الجار كلما عاد من سفره ينتحل عذراً لعدمِ احضار الزمور ، وأخيراً دفع له مسبقاً ثمن الزمور ، فقـال الجار له : الآن زمّر ابنك ، بمعنى انه سيزمـِّر بكل تأكيد . وما أكثر ما نسمع عن السفن الفضائية ، والأساطيل الجويـة ، وهي تماثل السفن

البحرية والأساطيل البحرية في غاياتها . والخلاصة آن المفسرين السابقين جزاهم الله خيراً ، لم يتركوا آية دون تفسيرها مع علمهم أن كثيراً من الآيات الكريمة مكنوز تفسيرها ومذخور للمستقبل الممتد .

لذلك تجدهم حين وجدوا لفظة الفلك تدل على السفينة المفردة كما تدل على جمع السفن قالوا المقصود سفينة نوح ولما اعترضتهم معنى الذرية، والذرية تدل على الأجيال الحالية والقادمة ، ولا تدل على الأجيال الماضية قالوا المراد من الذرية الآباء ، وحين تصرفوا بألفاظ الآية هذا التصرف التأويلي ليحصروا ان المقصود بالفلك سفينة نوح عليه السلام اعترضتهم لفظة « مثله » المطلقة فتارة ذكروا أن المثلية محققة في الجمال واخرى ذكروا انها ماثلة في السفن التي صنعت بعد سفينة نوح عليه السلام كما سبق ، ومع كل ذلك تظل آيات الله في وحيه المنزل زاخرة بالمعجزات المتحديات على مدى الأجيال دون انقطاع .

ومسألة المواصلات وإن كانت قاصرة في عصر صاحب الرسالة على السفن والخيل والبغال والجمال والحمير ، فإن الله افهمهم في وحيه اليقيني انه سيخلق من وسائل المواصلات ما لم يدخل في علمهم وهذا صريح في قوله تعالى : (ويخلق ما لا تعلمون) ... وافهمنا أن السبل الطويلة والفجاج المتباعدة التي ينفذ منها البشر إلى المدن والقارات سيدركها القصد أي قصد الطريق ويتحقق بأحد أمرين ..

١ – يتحقق باستقامة الطريق،والاستقامة اقتصاد في طوله ، والاستقامة في الجو محققة مئة في المئة ، بالنسبة للطائرات في هذا الزمن وفي البحر تحققت ثمانين في المئة إلى تسعين .

٢ – والقصد يتحقق بحدوث مركبات جديدة لم تكن من قبل

كسفن الجو المماثلة لسفن البحر البخارية التي تحمل الأثقال من مكان إلى مكان .

وكل ذلك لم يكن معلومـاً من قبل ولكن الله ألهم العلماء لِصُنْعِها وقد يُلهم صُنع وسائلَ للنقل اجدى واسرع وأقصد للطرق وهـذا كلـه داخل في قوله تعالى :

وَعَلى اللهِ قَصْدُ السَّبيل (١٦ ـ ٩)

معجزة المواصلات في جزيرة العرب

انك تجـد المظهر العملي الآمن المقدر بالفراسخ والأميال لمعجزة المواصلات في جزيرة العرب منوّهاً به في القرآن المجيد لتنهض الأجيال المؤمنة لاعادة معجزة المواصلات في أسمى غاياتها وأعظم منافعها مع تجنب الأخطاء والكفر الذي هدم معجزة المواصلات قديماً .

يا لله ما أجلّها من معجزة تثير الأجيال إلى بناءٍ حضاري رائع في المواصلات كما نوّه بها القرآن الكريم . ألا ترى جزيرة العرب قد أعطت ما حولها من المواطن الشعوب الراقية ..

أعطتهم الكلدان والأشوريين والكنعانيين والفينيقيين وبنـاة الأمجاد في مصر والمغرب العربي ... وأخيراً أعطتهم مناذرة العراق وغساسنة الشام .

وأخيراً وأخيراً أعطتهم وحي الله المنزل على خاتم رسله سيدنا محمـد ﷺ وأعطتهم المسلمين الذين أضاءوا الدنيا بحضارة السماء وسموّها الانساني ومعارفها التقدمية الصاعدة ، المسلمين الذين رفعوا منائر العلم والمعرفـة والتعارف الإنساني وحقـائق الايمان في كل المواطن التي لا تزال تهتف بسم الله الواحد الخالق العظيم ، الله أكبر الله أكبر خمس مرات في اليوم والليلة .

أجـل كانت الحضارة في جزيرة العرب ، وكان الخِصبُ والري والمواصلات الآمنة المقدرة بالفراسخ والأميـال في أسمى سمواتها التي نوّه بها وحي الله حتّى استطاعوا أن يقيموا السدود على أفواه الأوديـة وأن يشيدوا أكبرها سدّ مأرب العظيم .

وما جفّت جزيرة العرب ولا توعرت مسالكها ولا استوحشت أوديتها الخصبة وأمحلت الا بعد انحرافهم عن العمل الدائب والنشاط الواعي والتآلف المثمر وصدق الإيمـان الذي كان لآبـائهم الذين شيدوا السدود واجروا الأنهار وغرسوا الحدائق والمروج الخضراء واخصبوها كل الإخصاب حتّى حدود البلاد التي باركها الله وهي بلاد الشام .

والآن أتل معي الآيات الكريمة متأملاً متفكراً متعظاً واعيـاً مستفيداً مشمراً عن ساعديك للعمل في اعادة تقدير السير واعادة السدود واخصاب الأرض :

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ، جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ ، كُلوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفورٌ.
(٣٤ ـ ١٥)

ولا تنسَ أن تتلو قول الله تعالى :

وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرى التي بَارَكْنا فِيهـا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيها السَّيْرَ ، سِيروا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنينَ (٣٤ ـ ١٨)

ولكن الأجيـال الذين خلفوا الأجيال البناءة المشيدة العاملة الحاكمة الواعية لم تكن من العلم واليقظة والاخلاص بالمكانة التي كـانت لآبائهم

فأعرضوا عن أعمالهم الكريمة ومناهج اصلاحهم والسهر للاخلاص والعمل والنشاط وتركوا نضرة الايمان والصدق فكانت نتيجتهم كما قال الله تعالى:

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (٣٤-١٦)

ودولة سبأ لم تكن معروفة قبل الجيل الثامن مــــن قبل الميلاد ، وقد انتهت سنة ١١٥ قبل الميلاد . وذكر المسعودي انها عاشت ٤٨٤ سنة . ومن أراد التوسعة ومعرفة حدودها وما كان لها من آثار فليعد إلى رواية بلقيس صفحه ٢١ .

المناسبة بين سبحي الكواكب والفلك

المناسبة بين سبحهما نوّه بها جمهرة من المفسرين . لأن سبح الكواكب في الفضاء يشبه سبح السفن في الدأماء . واذا اضفت إلى ذلك ما اكتشف في عصرنا من سبح سفن الفضاء التي تشبه سبح الكواكب تماماً ، فانك تلمس وجه الشبه القريب في قوله تعالى :

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٣٦-٤٢)

لأن المثلية واضحة تماماً بين سبح السفن الفضائية وبين سبح الكواكب في اجلى مشاهداتها وأصدق مشابهاتها .

ونحن إذا عقلنا ذلك واستوعبناه فلن نخطىء أهداف الآيات المنزلة في وحي الله ويقين العلم المثبت بمراقبة السموات المتناثرة في الفضاء .

مظهر قدرة الله جل وعز

لما كانت الأرض والكائنات العلوية ــ السموات ــ سواء أكانت من كائنات الطاقة أو من كائنات المادة . في يد الله الخالق العظيم الذي كونها وابدع تكوينها ، وعين لها سننها ونواميسها وقدرها تقديراً ، هي أقل من الريشة في يد أحدنا يصرفها كيف يشاء . بل إن أحدنا قد يعجز عن قياد الريشة وتصريفها وامتلاك أزمّتها إذا هي أفلتت من يده في مهب الرياح ..

ولكن الأرض وكل العوالم من حولها لا تعجز القدرة الإلهيّة ، بدءاً ونهاية وحفظاً ورعاية مقدار جزء الثوينية من الزمن إذا أمكن تقسيم الثانية إلى ملايين الثوينيات .

وإذا عقلت كل ذلك واستوعبته تمثلت ظلال المراد من قوله تعالى :

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ (٣٦ - ٤٣)

تمثلته بحواسك الخمس . وعلمت أن قدرة الله تظل تعمل أعمالها الحاسمة في الكائنات باتساق ونظام إلى حين الموعد المحتوم لكل كائن . وفق المشيئة الإلهيّة التي بها يتم ما يتم ويزول ما يزول دون ما ندّ أو معقب .

وذكر الله هنا السفينة دون سواها من الكائنات لمناسبة الحديث عنها، ولأن المسافرين في البحار يشاهدون ذلك بأعينهم في كل أجيال الانسانية .

ألا نشاهد في عصرنا السفن البخارية الكبرى التي تماثل الجبال ، كيف تصبح في هياج المحيطات كالريشة في الأعاصير . تبتلعها الأمواج

في ثوان كما قال حافظ في مدينة (مسّين) حيث زالت بكل عمراتها في ثوان :

خُسفت ثم اغرقت ثم بادت   قضي الأمر كله في ثوان

ولا صريخ لها ولا مغيث ، وليس لها من منقذ ينجيها من الغرق إلا إذا تداركتها رحمة الله .

ومهما يكن فنجاتها بعد بذل كل الامكانيات الانسانية المغامرة المنقذة الماثلة في قوله تعالى :

وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ (٢ - ١٩٥)

لا يفلتها من أجلها الموقوت لكل كائن :

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (١٣ - ٣٨)

يا لله ما أعمق مدلولات كلمات الله وما أوسع معجزاتها وأسطع تحدياتها . حسبُ انها معجزات الله وتحدياته في العوالم كلها .

سبب الإعراض عن الإيمان

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقوا مَا بَيْنَ أَيْديكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمونَ (٤٥)
وَما تَأْتيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إلاَّ كَانوا عَنْها مُعْرِضِينَ .
(٣٦ ــ ٤٦)

حرية الارادة فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وجعلهم بها أحراراً في عقائدهم واعمالهم ، وكل تصرفاتهم الظاهرة والباطنة . أُنظر هذه النصوص المنزلة في هذا الشأن :

لا إِكْراهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصامَ لَها وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ (٢ ــ ٢٥٦)

فالإكراه لا يكون من الله أبداً ، ولا يجوز أن يكون من الخلق ضد بعضهم بعضاً . هذا هو الحق :

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...
(١٨ ــ ٢٩)

والذين أقاموا من المخلوقات أنداداً لله الخالق العظيم ، وألّهوها وعبدوها . إنما فعلوا ذلك بمحض اختيارهم . أما وحي الله فقد زجرهم عن ذلك :

.... فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢ ــ ٢٢)

وقال تعالى أيضاً :

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٥ ــ ١٠٣)

وبحكم أن الله خلق البشر أحراراً في أعمالهم الارادية . فإذا اختاروا الكفر فلا يجبرهم على الايمان ، وإذا اختاروا الافساد فلا يجبرهم على الاصلاح ، مع قدرته على الجبر . أي هو قادر أن يجعلهم مجبورين على الخير المحض كعالم الملائكة . ولكن حينئذ تبطل الأعمال الإرادية، ويتغير نظام عالمنا ، بل خلقهم أحراراً ، فلو أجبرهم لاحتجوا وقالوا أين هي حرية الارادة التي فطرنا الله عليها ونملكها ؟؟! ونحن لا نملك التصرف بها في فعل ما نريد .

مدلولات نصوص وحي الله

وليست مدلولات نصوص وحي الله هوًى في أنفس المنحرفين،لاثبات مذاهبهم الباطلة ، فتجدهم يبطلون واقع مدلول هذا النص ، ويعينون له سواه . ويأخذون بهذا القول ، ويعطلون غيره ، ويلتزمون بهذا الاطلاق ، ولا يلتزمون بذلك القيد . ويعممون الخاص ، ويخصصون

العام ويعبثون في مفاهيم وحي الله مـــا شاءت لهم اهواؤهم المنحرفـة ، ونزعات أبالستهم ومشتهياتهم كأنهم حيال روايـــة تمثيلية ، يبقون هـذا المشهد ، ويحذفون ذاك ، ويرضون عن هـــذا الممثل ، ويسخطون على ذاك ، ويعجبهم صدر الرواية ولا يعجبهم ختامها ...

وجهل المساكين الحمقى ، ان الأمانة العلمية ، هي الصدق والجد في كشف حقـــائق العلم في كل شيء ، دون أي اعتبار آخر .. هي الزام تضحية وصعود معرفة ، وتهذيب حضارة ، ووثيقـــة تأريخ ، ومسئولية ضمير ، وحق أجيال ، وسمو خلق .

وكم من لعنة تنصب عـــلى الذين يطمسون حقائق الأشياء الواقعية ، وكم مـن سخط ينزل عليهم ، ألا نشاهدهم حتى في مدلولات نصوص الوحي الإلهي يحرفونها عامدين ، ويصرفونها إلى مدلولات متشابهة ما أنزل الله بها من سلطان ، تناقض المدلولات الاصيلة التي من أجلهـــا أنزل الله وحيه المعجز . أنظر هذا النص واسمع ما حرفوا في مدلوله :

وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١ ــ ٣٤)

حرفوا مدلوله ، وزعموا أن هـذا النص يبطل مدلول النصوص التي تؤكد خلق الحرية المختارة في الانسان ، وأنه نسخها نسخاً .

أجل حرفوا مدلوله برعونة فهم ، واضطراب تفكير وجهل بموازين العلم الصحيح ، وحرب لوحـــدة روح المدلولات الأساسية المقصودة في مجموع نصوص وحي الله التي هي المرجع والقيد لكل مدلول نص بالذات .

ويا ليتهم علموا أن نبي الله نوحـــاً من أولي العزم من رسل الله ، وأنه يعلم أن الله خلق الإنسان مختاراً ، ويعلم أن هذا الاختيار هو إرادة الله في تكوين عالمنا الانساني .

وما داموا هم اختاروه وفضلوه على الايمان ، فالله لا يجبرهم على الايمان ، لأن الجبر ابطال للاختيار .

ونسبة الغواية إلى الله ، مع أنهم هم الذين اختاروها ، لبيان أن الله هو الذي خلقهم مختارين ، وأنه هو الفعّال الحقيقي ، لكل ما يصدر عن الكائنات . سواء عن طريق الجبر أو عن طريق الاختيار ، والدليل أن الاختيار حق ، وأن الله يُنفِّذ ما يختاره البشر ، حتّى ولو كان ذات الكفر بوجوده جل وعز ...

ومن هذا القبيل قوله تعالى :

مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغيانِهِمْ يَعْمَهونَ .
(٧ ــ ١٨٦)

فما دام الله هو الذي فرض الحرية الانسانية على أبناء آدم ، وما دام من يضل إنما يضل بمحض اختياره هــو ، وليس سوى الله جل وعز يستطيع أن يغــير نظام تكوين الانسان ويجعله مجبوراً في أعماله . ومعلوم أن الله أولاً لا يجبر أحــداً على الكفر والعصيان ، إذن فالذي يضل ، فإنما يضل باختياره ، وما دام الله يتركه على ما اختار ، بما يملك حرية الارادة .. فكان حقاً ، من يضلل الله فلا هادي له . أي فليس مــن إلـه ثم يستطيع أن يغير نظام الخلق الانساني ويجبره على الهدى ..

والخلاصة أن الله منح البشرية حرية الإرادة . وواضح أن حريــة الإرادة تقتضي الاختلاف ، ولو خلقهم مجبورين كالملائكــة لاجتمعوا على الهدى ، ولما كان بينهم من خلاف .

وفي ذلك يقول الله عز وجل :

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقاً

في الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً في السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَـــةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلى الهُدى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الجاهِلِينَ (٦ ــ ٣٥)

والآن فهمنا أن البشر ، يعيشون في عالم الحريــة والاختيار ، لا في عالم الجبر والإكراه . هذا هو يقين العلم والوحي معاً .

نعم أفهمنا وحي الله ، أن الناس مع اختيارهم في تغيير ما هم عليه من سوء الحال ، إذا غيروا في أنفسهم بواعث سوء الحال ، والله سبحانه وتعالى وضع نظاماً يؤدي إلى حسن الحال ، إذا تقيد به البشر ، وإذا لم يتقيدوا فالهلاك نهايتهم . ولا يستطيع أحـــد أن يغيرْ ذلك ، لأنـــه هو سبحانه وتعالى اعلم بما خلق وهو اللطيف الخبير :

لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّروا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دونِهِ مِنْ وَالٍ (١٣ ـ ١١)

اللذات وبواعثها

... قدرة الانسان على طلب اللذات أو الكف عنها ، دالة على أصالة حريته الإرادية المختارة . هذا مشاهد . وإني هنا أبسط بواعث اللذات وكبتها وارسالها .

وواضح أن اللذة هي ما تهواه النفس وتسر به . والألم مـــا يُحدث حسرةً وتُساء منه النفس .

وبواعث اللذات واللهفـة إلى طلبهـــا ، مركّزة في صميم المجموعـات النفسية البشرية .

١ ــ سواء أكانت أشواقهم اليها ملتهبة ، واندفاعهم لنيلها عارماً .

٢ ــ وسواء أكان ذلك من طريق وحي الله ، أو من طريق وحي الشيطان .

والشياطين كذلك يوحون إلى أوليائهم ، كل حسب طهره أو خبثه . وحسب هداه أو ضلاله ، وحسب استقامته أو انحرافه :

... وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (٦ ــ ١٢١)

اللذات ألوان

١ ــ اللذات الدنيا : وهي الماثلة في كل الحيوانات حتى الحشرات ، ومبعثها غرائز الكائن الحي كغريزة الميل الجنسي .

٢ ــ اللذات الوسطى : كاللذات الأدبية والفنون الجميلة ، وهي من خصائص الانسان وتهذيبه ، ومبعثها العواطف . كالعاطفة الانسانية والقومية ومحبة الأدب .

٣ ــ اللذات العليا : كاللذات العلمية والروحية والكشوفات ، ومبعثها العقل المفكر والنزوع إلى المعرفة ، وهي من خصائص الانسان .

وبواعث اللذات لها ميدانان :

١ ــ ميدان عوالم المجموعة النفسية : من غرائز وعواطف وعقل ووجدان وضمير ..

٢ ــ وميدان العوالم الخارجية ، وهذا الميدان واسع جداً ، وعوالمه كثيرة وشتى .

ومن أجل ذلك تجد الصراع والتنازع والاتهامات والأطماع والتقاتل والتفاخر والتحاسد ، والافك والنهب والسلب متأصلاً بين البشر ، ولا سبيل لحجز شروره ، أو التخفيف من وطأته إلا بالكبت .

ولما كانت جمهرة البشر العارمة ، هم من طلاب لذات الغرائز الدنيا، كان الإعراض عن حواجز الاصلاحات التقدمية العليا دأبهم ...

والإعراض نوعان :

١ – إعراض سافرٌ متحدٍ ، وهو إعراض الكافرين بشرعة الاصلاح المنزّل ، وناهيك بهِ من اصلاح تقدمي جديد أبداً .

٢ – وإعراض مقَنَّع خفي ، ومع التظاهر بالتزام استقامة الايمان ، وثرثرة النهوض باصلاحاته ، وهو إعراض المنافقين !!.

• والإعراض والتقليد توْأمان متلازمان ، كل منهما يدعم الآخر...

• فيعرض المعرضُ لأنه مقلد ، وهو يقلد المعرضين عن الايمان .

• ولا انفكاك عن إعراض المعرضين عن يقين العلم ، ولا عن تقليد المقلدين لأساطير الوثنية وأباطيل الجهل ... إلا :

١ – بحماس الحرية الملتهبة .

٢ – ووقد الفكر المتعمق .

٣ – والأخذ بالعلم ، وطرح الظنون والأوهام .

وغرائز أكثرية البشر بدائية غابية ، لم تهذبها الحضاراتُ الراقية ، والمعارف الصاعدة ، وإن حملوا أعلى إجازاتها .

فإنك تجدهم ، بعد اختبارك لأعمالهم ، وأسباب انقاذها ظاهراً أو باطناً ، يفقدون أركان الانسانية التقدمية المهذبة الخمسة :

١ – نزعة الحرية المؤمنة المغامرة .

٢ – وثورة الفكر الارادي الكشاف .

٣ – وطلب يقين العلم في كل مواريث الإنسانية ، والدعوة إليه ..
٤ – والأعمال الجادة الماجدة لطول عمر خلود الذكر ، والإفادة منه .
٥ – وجهاد الإيمان الصادق العملي المضحي الطامح .

وهل فقد البشر الغابيين التزام الإرادة العملية النافذة بهذه الأركان ، إلا لانحطاطهم عن بلوغ الانسانية عقائد وأعمالاً .

وسبب قصورهم عن بلوغ ذلك ، هو حجاب اللذات الدنيا الخاسرة وظلماته التي تطمس الأبصار والبصائر ، عن كشف أضواء الإيمان والمعرفة ، وتبين حقائقها في الأشياء ، وتسد منافذ اللهفة من أجل تحصيلها وبذل الجهود ، والسهر المضني .

ولولا حجب ظلمة اللذات المادية لأضواء الإيمان والمعرفة ، لما انصب الالحاد على مسيرة أشطار المثقفين ، بكل انحرافاته ، وهيمن عليهم غروره وسخرهم تسخيراً ، ومسخ من أنفسهم روح الانسانية مسخاً ، وأشعل في صميمها الوحشية الحيوانية إشعالاً :

أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦ ــ ١٢٢)

أجل قد تمادى الملحدون ، حتى شطروا المعرفة الإنسانية شطرين :
١ – فجعلوا معرفة المادة بكل أنواعها هي يقين العلم .
٢ – وجعلوا معرفة الروح بكل ألوانها ، هي وهم الجهل ..

وما درى الملحدون ، أن المادة بكل أنواعها ، لا تزيد عن معارف

طاقات الأرواح المدركة وغير المدركة ، عن رشة شاطيء من بحر لجي لا نهاية لسواحله .

ومع ذلك نرى أشطار المثقفين ، الذين لم يطلعوا على كشوفات عوالم الطاقة الروحية الحديثة ، وشبان العامة المتأثرين بهم ، لم يكترثوا لدعاة الهدى ، من شوامخ العلماء ، ولم يستجيبوا لهم ، إذا أخذوا يلفتون أنظارهم إلى ما بين أيديهم من عجائب الأكوان !! والى الخفي المحجب من معجزات وحي الله في آياته ،والخفي من معجزاته هو أعظم . يفعلون ذلك بهم لكي ينالوا نصيباً من الرحمة الإلهية .

وعدم استجابتهم منصوص عليه في قوله تعالى :

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ٱتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمونَ.
وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانوا عَنْها مُعْرِضِينَ.
(٣٦ ــ ٤٥ و ٤٦)

مُعجزة حُريّة الإرادة

لا ريب أن معجزة حريـة الارادة ، التي أعلنها الله في وحيـه . أفهمتنا أن الانسان مسئول عن تبعات أعماله الارادية . كما أفهمتنا أن الجبر لا وجودَ له في أعمالِ الإنسانِ الاراديـة . وأنّ الاحتجاجَ به لتبريرِ الانحرافاتِ فرارٌ منْ تَبعاتِها ،وهو من حماقاتِ رعونةِ الالحاد .

تأمل في قوله تعالى :

وَإذا قِيلَ لَهُمْ أنفِقوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذينَ كَفَروا لِلَّذينَ آمنوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إنْ أَنتمْ إلاَّ في ضَلَالٍ مُبينٍ (٣٦ ــ ٤٧)

وقوله تعالى :

وَقالوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصونَ (٤٣ ــ ٢٠)

وإذا أنعمنا أنظارنا ، في عين يقين العلم . وجدنا أن أعمال حرية الارادة ، امتحان كبير لإنسانية الإنسان . وفتنة وبلاء ما بعدهما فتنة وبلاء .

وهذه الحرية الارادية في أعمال الانسان ، هي التي كانت ترتعد منها فرائص الرسل والأنبياء والحكماء . لأن بواعث لهفات الغرائز الشاعلة ، محكمة في صميم التكوين الانساني ، ومع تأكد العصمة لرسل الله ، فان رسول الله ﷺ ، كان من دعائه : (اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أدنى من ذلك) . والعمل الجبري لا تدخله مخالفة . فمحال أن تقول لشخص إحبس دمك عن الجريان في عروقك أو لا تحبسه . أو تقول للشمس قفي عن الطلوع والغرب ، أو لا تقفي ، لأن ذلك ليس في الامكان ، ومن هنا كان مأتى عقيدة الجبر . لأن الجبريين نظروا نظرةً سطحية ، في تكوين الكائنات ، وفي قيامها بأعمالها ووظائفها . فوجدوا الجبر يسيطر عليها ، بل وجدوا الجبرَ يسيطرُ على أرضنا ، وعلى عالمي الانسان والحيوان ... فوجدوا أن الانسان في دورته الدموية، وتوقف حياته إلى التنفس ، وإلى الطعام والشراب ، وما إلى ذلك ، مما لا دخل للارادة الانسانية فيه ، نظروا هذه النظرة السطحية،وتصوروا أن كل أعمال الانسان كذلك ، لا إرادة له فيها . فحكموا عليها بالجبر ، وأنكروا أن تكون للانسان ثمة أعمال ارادية مختارة ، سواء أكانت أعمال إيمان واصلاح ، أو أعمال كفر وإفساد .

إذن فالذي حدا بهم إلى عقيدة الجبر ، هي النظرةُ السطحيةُ في أصل تكوين الانسان والحيوان ، وفي خصائص أنواعها ، وتنويع أمثالها واشكالها وهيئاتها وأصواتها ، واقتصار حياتها على الطعام والشراب والهواء وكل ذلك لا دخل لحرية الارادة فيه .

وهذا حقٌ ومشاهد ... ولكن فاتهم أن الله فطر عـالم الانسان على الاختيار في أعمالـه الارادية ، القابلة للأخذ والترك . والله حين يجبر في الأعمال ، يجبر عـلى الخير والايمان والحق . ومحال أن يجبر عـلى الشر والكفر والباطل . هؤلاء الملائكة الكرام،حين جبرهم، جبرهم على الطاعة والايمان والحق ..!! وأما ابليس فليس من الملائكة ، وان عاش مكرماً بينهم . ولو كان من الملائكة مـا وسعه الا أن يطيع أمر الله . ولكن هو من الجن . والجن مختارون كالإنس .

وفي ذلك يقول الله عز وجل :

فَسَجَدوا إلَّا إبْليسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّـهِ .

(١٨ ــ ٥٠)

ومهما يكن فالملاك لا يستطيع أن يكفر أو يكذب ، أَو ينافق ، أو ينحرف عن جادة الاستقامة ، التي أمر الله بسلوكها . بيد أن الانسان يستطيع كل ذلك إذا رغب . لأن إرادة الله فطرته على حريـة الإرادة المختارة . أما أعلن وحي الله ، أن الله لا يرضى لعباده الكفر . فلو لم يكن الله خلقهم أحراراً في تصرفاتهم وقادرين على الكفر لما أعلن عدم رضاه عنهم . كما هم قادرين على الإيمان . ولا يُسأل عن قدرتهم على المخالفات من كفر وسواه ، لأن خلقهم على مقتضيات حريـة الإرادة تمكنهم من ذلك .

وكيف يرضى الله عن الكفر ، والكفر جحود للإيمان به جل وعز، وفرارٌ من طاعته في التزام الهدى والخير . والكافر الذي يقول لا أستطيع الإيمان فهو كاذب ، لأنه يكون كالذي يقول لا أستطيع التنفس ، ولا أستطيع التكلم ، ولا أستطيع القيام والقعود ، مع توفر القدرة على ذلك .

ولو لم يكن الإنسان مختاراً لما قال سبحانه وتعالى :

إنْ تَكفُروا فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنكُمْ ، وَلَا يَرْضَى لِعِبادِهِ الكُفْرَ ، وَإنْ تَشكُروا يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ، ثُمَّ الى رَبِّكم مَرْجِعُكمْ فيُنَبِّئُكُمْ بما كنتمْ تَعْملونَ ، إنَّهُ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ. (٣٩-٧)

فعدم رضاه لكفرهم دليل أنهم يملكون الإيمان كما يملكون الكفر .

ومن هنا ندرك ، أن حرية الإنسان المختارة ، مشاهدة عياناً ، ولا يجحدها إلا غبي ساذج .

ولولا أن الإنسان ، يملك الحرية الارادية المحيرة ، لما استطاع أن يلقي تبعة سيئاته ، وخبائث كفره ، على مشيئة الله تعالى . زاعماً أن الله ربط الأعمال الانسانية بالجبر .

فالسارق حين يسرق إنما يسرق مجبوراً .
والفاسق حين يفسق إنما يفسق مجبوراً .
والقاتل حين يقتل إنما يقتل مجبوراً .

فالجبر في زعمه ، هو حقيقة أعمال الإنسان ، مع أن هـذا الجبر ، هو حركةٌ إراديةٌ مختارة ، ولكن سن أجـل التخلص من مسئوليات المخالفات زعم انه جبر .

ومن هذا القبيل ، نسبة كفرهم وعبادتهم للأرواح ، من الملائكـة والجن وسواهم ، إلى مشيئة الله . فلو لم يشأ الله عبادتهم لهـا لمنعهم . فعدم منعهم مع قدرته على ذلك هو جبر . ويكفي أن يتلو المؤمن الصادق قول الله عز وجل :

وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغيثوا يُغاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً (١٨ ـ ٢٩)

معجزة الشجر الأخضر والنار

لإثبات حقائق البعث

١ — توطئة

تقدمت بحوث عدة ، حول حقائق عوالم الآخرة فيها الكفاية . وإن مجموع الآيات ، التي جاءت في القرآن المجيد ، تقتضي مؤلفاً ضخماً ، لما فيها من حقائق المعارف .

ويكفي أن يعلم المطالع ، أن في سورة ياسين وحدها ، جاءت هذه الآيات ، حول موضوعات الآخرة .

٣٦ — ١٢ و ٢٦ و ٣٥ و ٤٨ و ٤٩ و ٥١ و ٥٢ و ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨ و ٦٣ و ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ ...

إلى جانب هذه الآيات التي تشتمل على معجزة الشجر الأخضر والنار ، لإثبات حقائق البعث ، واليك الآيات :

وَضَرَبَ لَنَـــا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم (٧٨)

قُلْ يُحْيِيها الَّذي أنْشَأَهَا أوَّلَ مَرّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإذا أَنْتُمْ مِنْـــهُ تُوقِدونَ (٣٦ ــ ٨٠)

يا لله !!!.. كم يجـــد المتعمقون في دراسة نصوص القرآن المجيد ، من أجل اكتشاف معجزاتها المتحديـة المشتملة عـــلى غرائب المعارف الصاعدة .

وكم تجدهم مأخوذين بسحر البيان ، ومفتونين برنة الألفاظ، ومنتشين بطرافـــة التراكيب ، وجدّة الأساليب ، التي هي المثل الأعـلى ، لكل ابتكارٍ صحيح فصيح الى يوم القيامة .

والأدب العربـي سماء من الجلال ، بمشارق شموسه ، ومطالع أقماره، وربيع مثله المزدهرة ، في ربـي الخلد .

وما استمسك بمناهجه أديبٌ ، والتزم أصوله وقواعده الفذة ، إلا كان منارة علمٍ هاديةً لشبان العرب الشُّداة إلى أعلى ما تملكه العبقريـــة من خلود الذكر .

وما انحرف عن مناهجه العبقرية منحرفٌ ، إلا كان واهن الطموح، سقط الأماني ، أميَّ الكلمات يهوي انتاجه الى سلة المهملات قبل هويـه الى هوة النسيان .

٢ ــ الشمس

لعل الذي لا بصيرة له ، ولا دراسة بواقع الوحي اليقيني ، والعـــلم اليقيني ، يعجب لإقحام الحديث عن الشمس ، في معجزة الشجر الأخضر

والنار ، لإثبات حقائق البعث .. ولو علم أنّ الحياة الحيوانية والنباتية والإنسانية بصورة خاصة ، متوقفة — في كرتنا الأرضية — على وجود الشمس . وذلك بما تسكبه الأرض من حرارتها المتتابعة دون انقطاع .

وحديث حضارتنا القمرية عن الشمس ، وصلة أرضنا بها ، وسواها من الكواكب التابعة لها ، ضافٍ في كشوفات رواد الفضاء ، وسواهم من علماء الفلك . وهو في زيادة يوماً فيوماً .

وكلما توغلت عربات الفضاء بين الكواكب ، وكلما استطاعت محطات الفضاء أن تجمع المعلومات وترسلها ، تجلّت المعارف المتوارية خلف ضباب الأبعاد ، وأخذت الإذاعات تتغنى بها ، وطفقت التلافز[1] تعرض على جماهير الشعوب ما يصل اليها من عجائب عوالم الفضاء ، والمجلات العلمية تبسط ما تبسط . هذا ما يدلي به العلم اليقيني في عصرنا ، وهو قليلٌ من كثير .

ولكن صلة الشمس بأرضنا في وحي الله اليقيني ، قليلاً ما يحاضر العلماء عنه ... رغم ما تشتمل عليها من الإعجاز المتحدي .

تأمل النصوص الآتية ، وتدبر مدلولاتها ، تلمس ما تحمله من معجزات معارف الوجود ، عن الشمس والقمر وسواهما ..

١ — عمل الشمس والقمر وسواهما من الكواكب ، يجري بحساب دقيق جداً :

فَالِقُ الإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ، ذٰلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ (٦ـ٩٦)

١ خير كلمة اشبه بموازين لغتنا العربية اطلقها أدباء السعودية على التلفزيون .

بل كل شيء في الوجود خلقه الله بقدر :

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٥٤ ـ ٤٩)

٢ ـ الشمس تضيء الأرض بنفسها ، لأنها سراج وهَّاج ، وبواسطة القمر لأنه نورٌ من السراج .

وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً (٧٨ ـ ١٣)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠ ـ ٥)

٣ ـ العوالم السابحة في الفضاء ، مرفوعة بعُمدٍ لا ترى :

اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... (١٣ ـ ٢)

خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٣١ ـ ١٠)

٤ ـ سبح الكواكب والشمس والقمر ، في أبعاد الفضاء ، أمرٌ دائمٌ دائبٌ حتى نهاية العوالم :

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٢١ ـ ٣٣)

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ (١٤ ـ ٣٣)

كانت ذرات العوالم السماوية والأرض كتلة واحدة ، فانفتقت وجرت في أفلاك عينت لها دون تصادم أو تشابك أو اضطراب :

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ... (٢١ ـ ٣٠)

فالذي يفهم ما تشتمل عليه هذه النصوص من المدلولات الهائلة ، يلمس أن الشمس مسخرةٌ لأرضنا ولإنسانها وحيوانها ونباتها . ويلمس أنها السراج الوهاج ، الذي يمنح أرضنا حرارة الحياة ، وأنها وسائر العوالم السابحة في هذا الفضاء ، ممسكة بعمد خفي طاقي لا نراها .

٣ ـ الشجر الأخضر والنار

وقد يكون من القصور العلمي ، وعدم الاطلاع على حقائق العلوم ، ومعجزات الآيات القرآنية ودلائلها ، أن يزعم دارسٌ بعداً بين الشجر الأخضر والنار .

والحق أن الأوائل من العلماء والمحدثين ، وجدوا اعجازاً كبيراً متحدياً في الآية . أشار الأوائل أن هناك شجراً أخضر يشتعل ويوقد به النار ، هو ـ المرخ والعفار ـ ولا ريب أن خروج النار من الشجر الأخضر ، آية من آيات الله . اسمع ما قاله الله عز وجل :

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٣٦ ـ ٨٠)

وهكذا نجد آيات القرآن المجيد ، تكشف لكل عصر ، حقائق من

الاعجاز ، التي تؤكدها دلائل الألفاظ ، من ذات المعاني التي تحملها ، دون أن تضاف اليها معاني غريبة عنها ، ليست من مدلولاتها . لأن هذه الاضافة الغريبة التي ليست من مدلول الألفاظ ، تكون جناية على واقع العلم اليقيني ، وغير مقبولة لدى الباحثين المنقبين عن الحقائق اليقينية في الأشياء .

وأما المحدثون فاني قد أذعتُ كلمةً مستفيضةً . في اعجاز هذه الآيات منْ زمنٍ، في مجلة الحج – التضامن الإسلامي اليوم – .

والخلاصة أنْ حرارةَ الشمس ، تمتصهــا الأشجار الخضراء امتصاص الرضيع ثدي أمــه ، وبذلك الامتصاص تشيع الحرارة في كل خلاياهــا وتخزنها ، وتظل هذه الطاقة الحرارية قابلــة للاشتعال والايقاد ، سواء تحول الشجر الأخضر إلى حطب أو إلى فحم عادي أو إلى فحم حجري إذا تطاولت عليه الأزمان وهو في مخازنه في الجبال أو تحول سائلاً قطرانياً مخزوناً في اعماق الأرض منذ ملايين الحقب ، من غابات ساخت في أعماق الأرض ، هي وحيوانها بعوامل طبيعية مُرادة لحفظ الحرارة النارية التي اكتسبتها من الشمس لأجيالنا ، ومن أنكر وجود الحيوانات في الغابات والحدائق التي خسفت ، فهو غير عالم بحقائق الأشياء ، لأن آثار المواد الحيوانية ظاهرة في النفط الخام ، كما أن آثار الحرارة النارية ، المكتسبة من الشمس ، في خلايا الأشجار الخضراء ، التي ذابت وتحولت إلى نفط خام ، ظاهرة فيه أيضاً .

وجهٌ آخر من الاعجاز

وهناك وجهٌ آخر مــن الإعجاز ، أشبهُ شيءٍ بالإعجاز الذي أشار اليه قدامى المفسرين .

وهو أن الأكسجين الذي هو عنصر حراريٌ وقادٌ ، إذا فقد وجوده من الهواء ، فإن الحياة تُفقد على الأثر في الانسان والحيوان ومن النار . و « الاكسجين » جزءٌ من أجزاء الهواء . وكذلك الشمعة المشتعلة تنطفىء إذا حجب عنها .

وأحسبك تقول : وما علاقة الشجر الأخضر بالاكسجين الذي يمنح النار الاشتعال ...

ولأجل أن تحيط علماً باعجاز الآية ، فاعلم أن العلاقة أصيلةٌ وهائلةٌ ، واعجازها في قمة الروعة والتحدي الصارخ .. إذ ثبت أن الكربون الذي يخمد النار ، ويطفىء الحياة ، لا يحوله إلى أكسجين إلا الشجر الأخضر ، ولكن بمعونة ضوء الشمس نهاراً ، لأن الأشجار كافة تتنفس ليلاً كما يتنفس الانسان ، وتحول الأكسجين إلى كربون أيضاً .

ولكن عملها في النهار كبيرٌ جداً .

اذن فلولا وجود الشجر الأخضر ، لفقد الأكسجين من الهواء ، ولو فقد الأكسجين من الهواء لما اشتعلت نارٌ ، بل لما عاش حيوان .

والآن تستطيع أن تلمس بحواسك الخمس ، الإعجاز الكبير الهائل في قوله تعالى :

الَّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخضَرِ نَاراً فَإذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدونَ (٣٦ـ ٨٠)

وإنك تأسف لأقزام المثقفين الذين يهجمون على أطواد الوحي الإلهَي الشامخة في اعجاز القرآن ، بأعواد الخلال ، وهم يحسبون أنهم يستطيعون أن يعيثوا فيها فساداً ، إذ قالوا : لا صلة للشجر الأخضر باشتعال النار إلا من طريق الحطب والفحم . لذلك لو كانت الآية الكريمة هكذا :

« الذي جعل من الشجر اليابس ناراً !!! لكان أقرب إلى القصد ، وأحكم ... » .

لله أنت أيتها الأرض ، كم تحملين من غباوة الأغبياء ؟!! وخُبث الخبثاء ؟!! وفساد المفسدين ؟!! ورعونة الحمقى ؟!! والذين هم دواب العيش ولذاته ، يحملون في بطونهم عقولهم الخربة ، وقلوبهم القاسية ، ونواياهم السيئة ، والضحك على عباد الله ، وما هبّ ودبّ من الخبائث المنحطة ، وخيانة أمتهم التي يستظلون بظلها ، وينعمون بخيراتها ..

لك الله أيتها الأرض كم أنت رضية وصابرة ؟!! فإن أثقال ما تحملين منهم تنوء به السموات العلى ، وأقسم :

١ — لولا صعود العلماء بالعلم ، وتضحياتهم الغالية ، من أجل كشف حقائق الأشياء .

٢ — ولولا سُهْدُ الأدباء من أجل تجديد الآداب ، وابتكار فنونه الطريفة الممتعة ، وتآزرهم على إبداع الكلمة ، وصحة أسلوبها ، وزخمها بالسحر والجاذبية والفتنة والبهجة ...

ولولا أنّ مودة هؤلاء وأولئك ، توثقها نهضة إنسان السلام ويدعمها صدقُه ، وتذليل دروبها وجدة المسيرة ، لضقت بالعيش ذرعاً ، بين هؤلاء الجهلاء الأغبياء ، والحمقى المخبولين والمقلدين المسرفين ، الذين ليس في إمكانهم أن يفهموا يقين الواقع العلمي في الأشياء ، ولو سحابة من نهار .

أنظر كيف تصوروا أن الطاقة الحرارية: النار لا تنطلق من الشجر الأخضر بل من الشجر اليابس حين يتحول حطباً أو فحماً . وجهلوا الإعجاز الكبير المودع في لفظة الشجر الأخضر . وفي كلّ ذلك مصيبة فكر وعقل ووجدان وضمير . وهو أعظم المصائب ...

اثبات حقيقة البعث ماثلة في صميم إعجاز الآيات

لعل أوهن ما تسمعه من أشطار هؤلاء المثقفين هـو قولهم : إعادة حياة الموتى بذات عناصر الأرض التي كونوا منهـا ، أول مرة ، لن يتحقق .!! ونسوا أن الذي خلقهم أول مرة من عناصر الأرض ، ولم يكونوا شيئاً مذكوراً ، هو الذي يعيد خلقهم للمرة الثانيـة للبعث حسب مقتضيات العالم الثاني ، الذي ينتقلون اليه :

وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحيي العِظامَ وَهِيَ رَميم (٧٨) قُلْ يُحْيِيها الَّذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليمٌ (٧٩) الَّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإذا أَنْتُمْ مِنْـهُ تُوقِدونَ (٣٦ ـ ٨٠)

والذي يتبينه الدارس المتعمق في هذه الآيـات ، برهانين صارخين :

الأول : إثبات حقيقة البعث .

والثاني : برهان وجود القدرة الإلهَية ، وهي حقيقة مشاهدة في صميم تكوين الكائنات ، وهذا البرهان من البديهيات التي يحتج بـه كل مجادل من المؤمنين بوجود مكون الأكوان ، وهو حجة الكون الأولى والأخيرة ، ومنطقه الأزلي الصارخ .

وما يرفضه إلا الملحدون الدهريون ، الذين ينسبون تكوين كل كائن ، مهما كان فيه من غرائب التكوين ، ومعجزاتـه ، كخلق الانسان . بل ينسبون كل الأكوان إلى الصدفة والدهر .

وهؤلاء الملحدون الدهريون ، موجودون في كل عصر من العصور ، ونص وحي الله على وجودهم ، حتى في العصر الجاهلي .

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٤٥ ـ ٢٤)

كما نص أنهم سيظلون إلى نهاية العالم ، ولا يشاهد أهوال نهاية العالم من أصناف البشر إلا هم . وهذا صريح في الحديث الصحيح الصريح ، الذي رواه مسلم : « لا تقوم الساعة ، وفي الأرض من يقول .. الله الله . » فالله اكرم أن يُري أهوال يوم القيامة التي تجعل الولدان شيباً ، المؤمنين به جل وعز ..

... وهؤلاء الملحدون الدهريون صنفان — وإن تنوعت أسماؤهم ، واختلفت بواعث إلحادهم ، وتناقضت بحوثهم حوله في :

— الإثبات والنفي ...

— والقوة والضعف ...

— والاحتجاج بالفروض العلمية التي لم تتجاوز الظنون ..

١ — صنف من العامة وأشطار المثقفين ، وهم إمّعاتٌ ، ينقادون لكلٍّ ناعقٍ ، ويصدعون بكلٍّ ما يسمعونه ، ولا يميزون بين العلم والظن ، والوهم والإفك ، والدس والتأويل والتهويش ، وهؤلاء لا علم لهم بحقائق الأشياء ، فالحقيقة عندهم ما يلقنونها تلقيناً كما تُلقَّن الأموات ، ويشبتون عليها دون نقدٍ ودرسٍ وبحثٍ وتحقيق وتدقيق .

ومن أجل ذلك تجد جمهرتهم في الأوساط الأمية ، والمثقفة نصف تثقيف .

وما كان أشبههم بالجاهلية وما كان أوثقهم بها . لأن الجاهلية كان فيها الملاحدة الدهريون .

وعلى الاجمال فهذا الصنف من الملاحدة الدهريين ، لا يهمهم تعيين الواقع العلمي اليقيني في الأشياء ولا يطلبونه ، ويكرهون من يكشفه لهم. هم جمادٌ في جماد . أو كما يقولُ النحاةُ في أيّ :

« أيٌّ هكذا خُلقتْ » !!.

حتّى لو قلت هم صخورٌ صلدة غير قابلة للحركة والتجدد الصاعد، فإنك لا تعدو الواقع ..

حسبهم إنحطاطاً أنّ كل أمرهم المعتمد ، منصرف إلى ما تنصرف إليه الحيوانات المرسلة : طعامٌ وشرابٌ وتناسلٌ ، ثم موتٌ وفناء ، ولا مسئولية للجرائم والفواحش التي تُرتكب ، هي في زعمهم انتهازٌ وذكاءٌ وعبقرية !!! والصفوة أنهم لا يرون وجود شيء بعد الموت إلا التّراب !! تتجدد به الحياة وتنتهي إليه ، وفيه ختّم النهاية الأبدية .

هذا كل إيمانهم في نهاية الحياة ... وهم عنزيون ، لو اجتمع إليهم كلُّ علماء الأرض ، وأقاموا لهم كل البراهين العامية اليقينية التي يملكونها . فإنهم لا يؤمنون .. « عنزة ولو طارت » والسلام عليكم .

٢ – وصِنفٌ من العلماء الذين يتعمقون دراسة علوم المادة ، ويرونها الأولى والأساس . وكلُّ العوالم ناجمةٌ عنها ، فلولا المادة لما كانت ثمة طاقةٌ ما ..

ومعلومٌ أنّ المادة غير عاقلة ، وأنها لا تتصرف في شيء من أعمال الوجود بعلمٍ وقدرةٍ وإرادةٍ . بل هم الذين يتصرفون في هذا المنعطف الضئيل من الفضاء بالمقدار الذي تسمح به حضارتهم .

والحق أن المادة لا تهيمن عليهم ، بل هم الذين يُهيمنون عليها بعلومهم وبحوثهم ومختبراتهم ومراصدهم ومحطاتهم الفضائية وصواريخهم وعرباتهم المنطلقة بين كواكب مجموعتنا الشمسية ..

وهــذا الصنف من العلماء كالأميين من الملاحدة الدهريين ، وأشطار المثقفين ، لا يؤمنون بوجود رب العالمين ، الذي بيده وحــده الخلقُ والأمر والتصرف المطلق والهيمنة على كل الكائنات دون شريكٍ أو نـدٍ أو وزير أو معين .

ولا ريب أن الذي لا يؤمن بالله الخالق العظيم ، فإنه لا يؤمن بوجود العالم الثاني ، ونهاية الأرواح البشرية اليه ، بل يعتقدون أن نهاية هـذه العوالم المادية القائمة ، ليست نهاية تبديل وتغيير ، ثم يليها خلقٌ جديد لأرضنا وسماواتها يكون منها الإنتقال الى عالمي النعيم أو العذاب ، بــل هي نهاية عدمٍ سرمديٍ محض ..

ولا عوالم أخرى ، ولا انتقال اليها ، إن هي إلا أساطير وخرافـات وأحلامٌ مصوّرة ، صورها مخططةٌ في الأعصاب ، ورثناها عن القدماء .. من مخاوفهم بالنهاية المظلمة المهولة . والحقيقة الماثلة في الوجود التي تهيمن عليه وتديره هي الصدفة العمياء الصماء ، ولا شيء وراءها ، فمنها البداية وإليها النهاية !!!

من أجل ذلك لا يرجى من هذا الصنف من الملاحدة الدهريين إيمان في يوم من الأيام ؟!! أنّى يؤمنون ، وهم يرون حقائق عوالم الآخرة ونصوصها الموحاة ، التي تثبت أن الأرواح البشرية باقيةٌ بعــد فناء الأجساد ، وقائمة الآن في عالم الأرواح ، وأنّ ثمــة عوالم نعيم وشقاء سوف تنتقل اليها ، هي أماني وأحلام مخزونةٌ صورها ، ومركزةٌ أفلامها في أعصاب الأجيال منذ ملايين القرون . فلا تزول تأثيراتها وإيحاءاتهــا وأشباحها المنظورة في الخارج ، إلا بمرور حقبٍ من الجحود توازيهــا. وإذا قلت لهم قد يكون هذا صحيحاً ، لو لم تكن معجزات رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ خارجة عن نطاق الأحــلام ، وصور الأماني المحرومة المخزونة في أعماق المجموعة النفسية .

أجل إن معجزات الرسل خارجةٌ عن نطاق هذا الجنون والهوس :

وَما صَاحِبُكُمْ بِمَجْنونٍ (٨١ ــ ٢٢)

بل هي حقائق مشاهدة محسوسة بالحواس الخمس ، وصورُ الأحلام النفسية ، مهما قويت واستحكمت وتفاقمت ، فهي لا تزيد عـن الصور المكهربة المتحركة في السينما ، تشاهدها الجماهير كأنها حقائق ماثلةٌ أمامهم، وما هي إلا تمثيل في تمثيل ..!!

أجل إن معجزات رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، هي حقائق ثابتةٌ يقيناً بكلٍّ ما تحمله لفظة حقائق من كبير المعاني ..

أنظر مـا كان من سحرة فرعون ــ الذين هم أعلم العلماء بتخيلات السحر وارهابه وتأثيره ــ حين ألقى سيدنا موسى عليه السلام عصاه وأجرى الله بها مـا أجرى من العجائب ، أما أدركوا أنهم أمام حقائق ثابتـة يقينية ، لا صلة لها بالخيال . وانهم أمـام فعل الحق الذي يدعوهم إلى الايمـان ، فآمنوا واعلنوا ايمانهم غير مكترثين بما يكون . ومـا نسبها فرعون وملؤه إلى السحر !!. بعد اعلان السحرة ، أنها ليست من السحر، إلا بغياً وعتواً .

ومن المعجزات إحياء الموتى لسيدنا عيسى المسيح ، وشفاء المرضى ، واحضار الطعام ، والإخبار بالمغيبات . وكلها حقائق شاهدها خلق كثير، ومنهم من آمن ، ومـا آمن الا قليل ، والجمهرة المقلدة العمياء الصماء نسبتها إلى السحر ، وهـذا دأب الملاحدة وجلامد الكفرة في كل عصرٍ ومِصر .

وهـا هوذا القرآن المجيد المعجز المتحدي ، ينادي بحقائق الايمـان الأصيلة .. ويقدمها إلى البشرية كافة ، بالبراهين العلمية اليقينية المشاهدة لهم ، على مدى الحضارات والتطورات العلمية الصاعدة .

يقدمها باعتداء وتحد وتصميم وقوة ويقين ومشاهدة عيان . ويطلب إلى الدارسين العلماء ، أن يكونوا أحراراً مفكرين ، وأن يكونوا باحثين متعمقين قادرين ، وأن يكونوا انسانيين أمناء حقاً ، يعملون لشيء واحد، هو كشف واقع العلم اليقيني في كل شيء ، دون مواربة أو مجاملـة أو مخاتلة ، أو انقياد لأغلال تقليد ، أو إفك أو سطوة عنصرية أو مخادعة شخصية متوارثة، أو هيمنة اغراء بمال أو جاه أو سلطان، والمخفي أهول .

ومع هذا الطلب الصريح من منطق آيات وحي الله الأزلي القرآن المجيد، تجد من يجحدونها تقليداً وتألبـاً لصالح العيش أو بحقد العنصريـة ، أو بايحاء الباطل ، ويقاومونها بكل أساليب الأبالسة العتاة ، والفجرة الطغاة ، والظلمة القساة .

وأنت إذا رأيتهم يجحدون ، أن سيدنا موسى كان لـه عصاً حقاً ، أجرى الله له بها العجائب عياناً ، وأنها هي التي جعلت السحرة يبادرون إلى الايمان ، ويخرون سجداً ، فما كان منهم ذلك الجحود إلا لأنهم لم يتيقنوا تيقن السحرة ، وتصوروا أنهم أعلم بالسحر من السحرة .

ولو كانوا مع المشاهدين لمعجزة العصا ، ولديهم كالسحرة ، المعرفة الصادقة التي تميز ما هو من تخيلات السحر ، وما هو من حقائق المعجزات التي لا يمكن أن تصدر إلا عـن قدرة الله مبدع الأكوان ... لآمنوا ، وأصروا على الايمان دون مبالاة بمـا يفعل بهم من بطش وفتك وصلب وتقطيع الأيدي والأرجل .

أي لكانوا كالسحرة ، لم يقيموا وزناً لأي اعتبار آخر ، سوى الايمان بما ظهر لهم انه يقين العلم ..

ولكن الملاحدة الماديين مع كل التأكدات القطعيـة الصارخة أن ذلك حصل فعلاً ينسبونه، بل وينسبون كل حقائق المعجزات التي أيد الله بهـا رسله الكرام في عالمنا هذا :

١ — إلى تخيلات السحر .

٢ — أو إلى الايحاء النفسي .

٣ — أو إلى أشباح الوهم .

٤ — أو إلى هياج الأعصاب ، وعُنف هوسها ، الذي يجعلك تشاهد ما تسمعُ به كأنه قائم بين يديك .

من أجل ذلك يصرون على جحود كـــل معجزات الرسل ، وجحود كل ما يصدر عن عوالم الروح، حتى ولو نطقت علومهم المادية الصلدة، أنه عين يقين العلم ، وأنه عين حقائق الوجود .

وسبب صلابة عنادهم ، هو حب التظاهر بسعة العلم ، وعمق الفكر ، والنزوع إلى التجدد الفاسد ، وما إلى ذلك مما تسمعه من ألفاظهم الظلمانية الظالمة الجوفاء ، التي لا تحقق شيئاً مـــن أمجاد العلم والأدب الخالدين ، ولا تدل إلا على خفة العقل ، ورعونة الغوغائية وتفاقمها ، والهوي في مهاوي الغواية التي تلتهم الحياة شر التهام ..

نعم هناك علماء راسخون مكتشفون مشهورون في كل مواطن الحضارة حتى في روسيا بالذات ، لمسوا في معارف الوجود التي يكتشفونها حقائق وجود الله الخالق العظيم ، وحقائق عوالم الطاقات الروحية .

أولئك العلماء الأعلام ، هم القادرون عـــلى التمييز العلمي الواقعي ، بين النصوص الملصقة بوحي الله ، والنصوص التي هي من وحي الله حقاً وصدقاً .

أجل هم القادرون على معرفتها وتشخيصها وتمييزها ، بما لديهم من ملكات علمية عبقرية ، تستطيع أن تتعمق دراسة وحي الله تعالى، وتكشف إعجازه المتحدي ، وتفوقه وانتصاره لدى كل معركة . فإذا تلوا قول الله عز وجل :

الَّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً ...

وأنعموا أنظارهم في المراد الذي تحمله المدلولات اللغوية ، لمسوا البرهان العلمي اليقيني الناطق باثبات إحياء الموتى وحشرهم للعالم الثاني ، وتبينوا أن وظائف الشجر الأخضر التي جعلها الله سبباً لإيقاد النار من جهات عديدة ، هي عين المراد المعجز المتحدي في نص الآية ، دون انحراف عن مدلولها اللغوي ، بسبب كشوفات العلم الحديث اليقيني .. بل تجد المدلول اللغوي هو هو ، رغم كل التطورات الحضارية ، التي عقبت نزول خاتم الوحي الإلهَي القرآن المجيد .

وكم سخرت مرة من سطحي المعرفة ، واهن التفكير ، تخيل أنه يتأبط سؤالاً ذا وزنٍ ، ينبه به في مجلس علم كنت فيه ، وكان . قال :

ــ ما دخل الشجر الأخضر،وناره حين يتحول إلى حطب أو فحم؟!! في مسألة إحياء الموتى ، بعد أن يصبحوا رمماً باليةً ، وتراباً في تراب . هل هذا هو البرهان العلمي القطعي على إحيائهم ؟!!

ج : قلت في الجواب :

١ ــ يقتضي أن تعلم مدلولات الفاظ اللغة العربية ، على وجهها الأدبي الفصيح العالي ، وأن تعلم أن الله ادخر جوانب من الاعجاز في نصوص وحيه القدسي للمستقبل ، لوقت الحاجة ، كما ادخر النفط ..

٢ ــ ويقتضي أن تفهم موضوعات العلوم الحديثة ومقاصدها، والتمييز بين حقائقها اليقينية ، وفروضها الظنية .

وبذلك يتحقق الدارسون أن الله هو المتكلم ، وأن العالم الثاني حق ، وانتقال البشر اليه حق ... واعجاز الوحي الإلهَي ظاهر لا في هذا النص

وحده ، بل في كل نصوصه . ذلك لأن مـا كشف من معجزات قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً ... ﴾

هو قليل من كثير .

وهذا القليل مفتقر إلى مجامع علمية ، ومختبرات للدرس والتمحيص ، لأن أمثال هذا العصامي في الغباء كثيرون ...

استنجاد بأهل الشهامة المؤمنين

أين أنتم ؟ يا أهل الإيمان في الأرض . ألا يخلق بكم ايجاد المجامع العلمية ومختبرات التحقيق من أجل كشف معجزات خـاتم الوحي الإلهي القرآن المجيد ؟!! ألا تعلمون أن كنوز رضوان الله ، وتخليص العـالم الإنساني من ظلمه وظلماته وأحقاده وعنصرياته وفتنه وحروبه ؟!! لن يتم إلا على أيديكم إذا فعلتم ذلك .

والبشرية اليوم يتفاقم الإلحاد في أوطانها وسيهوي بها في مهاوي الملحمة الكبرى ، وإنها لموشكة أن تحلّ ، إذا لم تعتصم بعصم الايمان بما أوحى الله على رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ، وإذا لم تعتصم بالعلم بالفهم بالذكاء بصدق الاخلاص لدعم الحـق ، وهدم الباطل ، وأن تتخلى عن العنفوان والأثرة والبطش والفتك والقوة . لأن الله جل وعـز يقول :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْـلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ

إِخواناً وَكُنتُمْ عَلى شَفَا حُفرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِنْها كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهتدونَ (٣ ــ ١٠٣)

ويقول :

... واعْتَصِموا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ المَوْلى وَنِعْــمَ النَّصيرُ.
(٢٢ ــ ٧٨)

هذا مجمل معجزة الشجر الأخضر والنار المسببة عنه ، بسطتها عــلى الأوجه كافة ، ليعلم الدارس أنه أمام كلام رب العالمين ، وخالق الخلق أجمعين ، الواحد الأبدي السرمدي الذي له الخلق والأمر والملك والملكوت، الحي الدائم الذي لا يموت سبحانه جل جلاله .

معجزة خصائص صفات الله جل وعز

أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمْوات وَالأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ (٨١)

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)

فَسُبْحَانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعونَ (٣٦-٨٣)

إذا أنت أنعمت نظرك العلمي الباحث ، في هذه الآيــات الثلاث ، التي ختم الله بها سورة ياسين ، إنعام الدارس المتطلع المثابر ، وتعمقت فيما كتبه العلماء القدامى والمحدثون عن اعجازها ، تنكشف لك خصائص صفات الله العليــا ، التي تليق بجلاله وحده ، كما تنكشف لك الصفات الدنيا ، التي هي من خصائص مخلوقاته التي لا تليق بجلاله وكماله .

١ — تأمل الآية الأولى ، ألا تجدهـا تكشف لك مدى قدرة الله ، التي أبدعت الأكوان ، وخصائص صفاتها وأوضاعها ، بكل ما تحمل كلمة الابداع من كبير المعاني ، إذا أضيفت إلى رب العالمين جل جلاله ..

٢ ـ وتفكر في الآية الثانية أعمق التفكير ، وانظر إلى عوالم الكواكب والسموات وما فيهن من جمال ، وما يغشاهن من جلال التكوين !!. فانك تلمح أسرار الخلق والأمر ، المختصين برب العالمين ، متجلين في الأكوان كافة ، كما تفقه الأسرار الكبرى التي يشتمل عليه قوله تعالى :

إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلى العَرْشِ يُغْشي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثاً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ والنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ (٧ ـ ٥٤)

هذه هي قدرة التكوين ، وما تمّ بها ويتمُّ من أكوانٍ على مدى الآزال والآباد ، يستحيل أن يتصف بها سوى رب العالمين ، ومعرفتها اليقينية هي قصد علم العلماء ، وإيمان المؤمنين .

أجل يستحيل أن يتصف فرد من أفراد الكائنات مهما عظم وكبر . هذا منطق الوحي اليقيني ، ومنطق العلم اليقيني . بل منطق الوجود بأسره .

ردده ردده وأنت عالم ومفكر ومؤمن ومنطلق ، تسعد السعادة الأبدية.

ومهما يكن فلا يصح عقلاً ولا علماً ، ولا ديناً ، أن الكائن الذي مصدره الخلق والأمر من رب العالمين ، أن تشابه صفاته صفات رب العالمين.
وما لفظة كن التي تمثل الخلق والأمر الإلهين ، إلا تقريب لعقولنا ومعارفنا ، وإلا إذا أراد الله شيئاً كان ..

٣ ـ والآية الثالثة مسك ختام سورة ياسين .

واعتقد لو أن مجمعاً علمياً ضخماً ، طلب إلى علمائه أن يحصوا

ما تشتمل عليه هذه الآية الكريمة ، من خصائص صفات الذات الإلهَية، من الوجهة العلمية الحديثة ، لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

لا تخل أني أغالي ، فالمغالاة في العقائد خروجٌ عن دلائل آيـات الله ، وهل من ذنب أعظم من ذلك .

أنظر لفظة « سبحان » التي هي مصدر التسبيح ، الدال على شمول تنزيـه الله وتقديسه ، ثم انظر لفظة « بيده » الدالـة على نفوذ القدرة الإلهَية المهيمنة المتصرفة كل التصرف ، وتأمل لفظة « ملكوت » الدالة على الملك الحقيقي المهيمن على ظاهر الكائن وباطنه : لأن « التاء » تدل على بلوغ نهاية امتلاك الشيء من أصغر ذرة مادية ، وأدنى بارقة طاقية، إلى أضخم الأجرام السماوية ، وأكبر طاقاتها العاقلة وسواها .

وناهيك بالعموم الشامل الماثل في لفظتي « كل شيء » الذي لا يفلت منه كائن ما ، مهما صغر أو كبر .

والخلاصة أن هذه الآيـة الكريمة ، تكشف مدى سلطان الله الخالق العظيم ، فيما كوَّن ويكوّن ، من أشياء الكائنات بقسميها المادي والطاقي ، ومدى تنزيهه وتقديسه تعالى ذاتاً وصفات وأفعالاً : أي أن تكون لذات سوى ذاته شركةٌ أو مثليةٌ له من قريب أو بعيد ...

والآن تستطيع مـن مجمل معاني الآيـات الثلاث ، أن تتذوق جلال الاعجـاز ، في خصائص صفات الله الخـالق العظيم ، لأن كل مؤمنٍ بوجود الخالق العظيم يود من كل قلبه ، وكل عقلـه ، وكل علمه ، أن تنكشف له خصائص صفات الله الخالق العظيم جل وعز .

هذا هو الواقع المطلوب لكل عالم مفكر بحاث ، يجاهد لتحرير المعرفة في كل شيء ، وهو يقوم على أركان ثلاثة :

الركن الأول : الاعتماد على النصوص اليقينية

هب أنك تريد أن تقدم ، لأمجاد العلم اليقيني المعترف بـه لدى علماء البشر كافـة حقائق صفات خاتم رسل الله محمد ﷺ ، تقدمها مصفاة من دسائس الدساسين ، وخرافات المخرفين ، دون زيـادة أو نقصان .

ألا تجد من الواجب العلمي قبل تقديمها ، أن تستعرض القرون المتطاولة التي بينك وبين القرن الذي كان فيه رسول الله ﷺ ، وان تصفي ما دسه فيها وزوره فيها غلاة المبغضين من قدح خبيث في صورة مدح . أو غلاة المحبين من مدح موضوع ما أنزل الله به من سلطان . أما القدح السافر فإنه تخلف وحشي يمقته كل مهذب . وتصفية الواقع القطعي :

١ – لن تكون إلا باعتماد النصوص المتواترة اليقينية ، التي رواها جماعة عن جماعة يستحيل تواطؤهم على اختراع الكذب .

٢ – ولن تكون إلا بطرح النصوص المظنونة والمعلولة والموضوعة :

- لأن اعتمادك على النصوص العلميـة اليقينية يجعل معرفتك بخصائص صفات رسول الله ﷺ علمية يقينية .
- واعتمادك على النصوص الظنية الضعيفة ، يجعل معرفتك بهـا ظنية ضعيفة .
- واعتمادك على النصوص الموضوعة المفتراة ، يجعل معرفتك بهـا موضوعة مفتراة .
- وهذا عين ما يقال في معرفتك ، بخصائص صفات الحق جل وعلا . فإنها تكون علمية يقينية ما دمت تعتمد على النصوص العلمية اليقينية .
- وتكون ظنية ضعيفة ، ما دمت تعتمد على النصوص الظنية الضعيفة.
- وتكون موضوعة مفتراة ، ما دمت تعتمد على النصوص الموضوعة المفتراة .

جهاد تصفية المعرفة اليقينية

لا جهاد في الدنيا أعظم ولا أكرم ولا أنفع ولا أسمى ولا أحب الى الله والناس من الجهاد في سبيل تصفية المعرفة الإنسانية من شوائب الظنون والأوهام والأساطير والدس والزيادة والنقصان ، حسب هذا الجهاد مكانة وفخاراً ، أنه يؤدي إلى تصفية المعرفة اليقينية ، بخصائص صفات الله رب العالمين وخالق الخلق أجمعين ..

* بل قل إنه يؤدي إلى تصفية المعرفة اليقينية في كل شيء ..
* وإذا تمكنت الإنسانية ، أن تصعد الى المعرفة اليقينية في كل شيء، فهناك السلام الحقيقي ، وهناك المحبة الصادقة ، وهناك الإنصاف والتسامح ، بل هناك الايمان اليقيني الذي يؤمن به العلم اليقيني بأسطع براهينه ، وأصدق دلائله ..

وهذا الجهاد هو الذي تبلغ به الإنسانية رشدها العلمي ، وتتهذب به مجموعتها النفسية ، وتتمكن أن تصعد به إلى مثلها العليا ، التي أوحاها الله لكمالها وإسعادها ، ويكفي كما ذكرت آنفاً أنه يؤدي إلى معرفة خصائص صفات رب العالمين ، وخالق الخلق أجمعين ، إذا صُفِّيَ وصدق وكرم وحسن .

هذا الجهاد الخاص بمعرفة خصائص صفات الله جل وعز ، مجّدهُ الوحي الإلهي :

وَالَّذينَ جَاهَدوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمعَ الْمُحْسِنِينَ .

(٢٩ ــ ٦٩)

وَجَاهِدوا في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ (٢٢ ـ ٧٨)

وإذا كان الانسان يفخر ، من أجل الجهاد ، في سبيل امتلاك حريته الظاهرية ، مهما يكن الثمن فكم بالأحرى يكون افتخاره بجهاده في سبيل الهداية إلى معرفة خصائص صفات مكون الأكوان ، وموجد هذا الوجود. لا ريب ان الجهاد في سبيل معرفة خصائص صفاته جل وعز ، هو جهاد علم وفكر ودرس ونقد وفهم ووعي وإيمان وحق وصدق ..

هو لذة وسرور وإخلاص ورضا .. والسهد والجهد والنصب في سبيله سعادة وهناءة سرمديتان .

وما جهاد أعلام علماء البشر ومفكريهم ، في سبيل علم ظاهر الكائنات، إلا للوصول الى معرفة حقائق صفات موجدها اليقينية والمهيمن عليها والمتصرف فيها .

ها نحن أولاء نشاهدهم ، في التلافز والاذاعات وفي المجلات العلمية والمؤلفات ، يجاهدون ويضحون ويبذلون الأموال ، من أجل كشوفات معارف الفضاء ودرسها وتمحيصها والافادة منها .

وهم وإن كانوا صعدوا إلى عتبة الوجود الأولى – مجموعتنا الشمسية – من سطح القمر ، فإنهم من أجل اجتيازها ، يفتقرون إلى جهاد طويل، وتضحيات جلى ، وصبر وجلد ، وكشف للعلوم التي لا تزال مختفية في مجاهل الوجود . لأن وراء مجموعتنا الشمسية الأولى مجموعات ، ووراء مجرتنا الأولى مجرات، لما يحص العلم أعدادهن، وهن في علم الله الخالق العظيم .

معجزة خصائص صفات الله الخالق العظيم

أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ بِقـادِرٍ على أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَليمُ (٨١)
إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)

المعراج وخصائص صفات الله

كنتُ في بدء دراستي للعلم ، أحب أن أسمع سيرة الاسراء والمعراج، من أفواه العلماء الأجلاء في المساجد ، حين يتلونهـا على الجماهير ، في شهر رجب من كل عام . حتى كُلفت بالقائـه على الجمهور في جامع بيروت الكبير .

وكان بعضهم يقرأ المعراج الذي جمع أحاديثه العلامة الشيخ أحمد بن محمد العدوي المعروف بالدردير ...

وبعضهم يقرأ المعراج الذي ألفه المحدث الكبير السيد محمد بن جعفر الكتاني . وبعضهم يقتصر على الجانب الذي رواه الإمامان البخاري ومسلم .

مع شرح وجيز لمدلولات الألفاظ وعرض للأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة ، التي وردت في ذلك .

وما سمعتُ أحداً يقرأ المعراج الموضوع على لسان ابن عباس ، على كثرة وجوده في أيدي العامة ، وتنبيه العلماء أنه من وضع الدساسين .

وكنت أهنأ وألتذ وأدهش ، حين أسمع رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يصف في معراجه سعة العوالم الهائلة المترامية في أبعاد الفضاء ، وفي مجاهلها السحيقة ، ويمثلها بالقناديل المعلقة ، ولا شيء يمسكها سوى قدرة الله جل وعز .

وهأنذا اليوم أزداد هناءة ولذة ودهشة ، حين أذكر كيف اجتاز رسول الله ﷺ عوالم الكواكب ، التي جعلها الله زينة للسماء الدنيا ، في صحبة روح القدس سيدنا جبريل عليه السلام ، وكيف أفضيا إلى السماء الدنيا ودخلاها ، وما زالا ينتقلان من سماء إلى سماء حتى أفضيا إلى السماء السابعة ، مع أسئلة وأجوبة روحية قدسية متألقة بأضواء كشافة لحقائق عوالم المادة والطاقة ، وما يزال علماء عصرنا القمري الأعلام يجدون بما يخترعون من معدات لكشف خفاياها المحجوبة ، لأنهم لمسوا بحواسهم الخمس أن ما عرفوا منها لا يزيد عن رقم الواحد بالنسبة لما يمكن للانسان أن يدركه من نهاية الأعداد .

فهم يرفضون أن يستبقوا الكشوفات فيجحدوا حقائق ما يجهلون ، وينسبون جحودهم إلى يقين العلم ، وما هو من يقين العلم في شيء ، بل هو إفتراء عليه .

ومهما يكن فنفذ رسول الله ﷺ في صحبة روح القدس سيدنا جبريل من السماء السابعة إلى ما وراءها من العوالم : كسدرة المنتهى ، والبيت المعمور ، وعالمي النعيم والعذاب ، وما فوق فوق ، مما جاء ذكرهُ في نصوص الوحي اليقينية .

ولعل قزم المعرفة فدم التفكير متلجلج الرأي متاجراً بالدين : يسارع فينقذني قبل التعرف إلى بواعث الموضوعات ، يقول :

س : وما دخل خصائص صفات الله في المعراج .

ج : ولو فهم هذا السائل الناقد خصائص صفات الله الخالق العظيم المتجلية في وقائع رحلة رسول الله ﷺ السماوية ، وصعوده إلى أبعد الكائنات ومشاهدته لها . وأنه ما قال عن كائن منها : سواء أكان من كائنات المادة ، كالشمس والقمر والنجوم ، أو كان من كائنات الطاقة، كروح من الأرواح التي شاهدها ، أو ملك من الملائكة الذين اجتمع بهم وتحدث معهم أنّه الله الخالق العظيم .

أجل لم يقل ذلك قط ، وكيف يقول ذلك ؟!! وقد شاهد بعينيه: الجهات الست تحيط بكل كائن وتهيمن عليه ، ولا يفلت من سلطانها وحدودها المعينة له ونواحيها ، مهما كبرت واتسعت . أو صغرت وضاقت، أي وفق ما عينت إرادة الله له من حدود .

أجل شاهد رسول الله ﷺ في معراجه الشريف حدود الكائنات التي أذن الله له برؤيتها ، أي شاهد من آيات ربه الكبرى ما شاهد .

أما صعد به مـلاكُ الوحي الى الأُفق الأعلى ، ورآه على حقيقته الروحية التي خلقه الله عليها للمرة الثانية . وشاهد ما شاهد ، ممّا غشّى سدرة المنتهى من العجائب ، وأوحى اليه ما أوحى . ومـا قصّهُ علينا رسول الله ﷺ من الآيات التي رآها ، والتي لم يقصها . هـو حقٌّ وصدق ، ورؤيةُ عيانٍ بالجسد والروح ، ولم تكن بالروح فقط ، كما روي عن عائشة رضوانُ الله عليها وآيات سورة النجم ناطقة بذلك :

وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَـهُ شَدِيدُ الْقُوى . ذو مِرَّةٍ فَاسْتَوى . وَهُوَ بِالأُفُقِ الأعْلى . ثُمَّ

دَنَا فَتَدلَّى . فَكانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحى . مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمارُونَهُ عَلى مَا يَرى. **ولقَد رآه نزلةً أُخرى عِندَ سِدرةِ المنتهىَ ، عندها جنَّةُ المأْوَى إذْ يَغْشى السِّدْرَةَ مايْغشى. مازَاغَ البَصَرُ ومَاطَغى. لقد رأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (٣-١٨)**. سورة النجم

* اذن فدخل المعراج في كشف خصائص صفات الله كبيرٌ جداً .

* ها أنت ذا تسمع الكثير عن مكتشفات علماء الحضارة الكونية : من روادٍ للفضاء ، ومن مخترعين وفلكيين وسواهم .

تسمعُ منهم عن عوالم المجرات ، وعن مجموعاتها الشمسية وعن الأقمار والسدم . وعن أحجامها وأبعادها واعدادها ، تسمع ما يذهل العقول ، ويحير الألباب ، ويخيل اليك أنها أحاديث من ترهات الجان ، أو خرافات ألف ليلة وليلة .!! لا عن حقائق ثابتة رآها العلماء بمراقبهم وأرصادهم وموازينهم وآلاتهم في شتى أبعاد الفضاء . وبالحري بعد الصعود إلى سطح القمر ، وإرسال العربات حول الكواكب ، واقامة المحطات الفضائية في شتى الآفاق .

وكل ذلك يريك الصلة الوثيقة بين العوالم التي تحدث عنها وعن أبعادها وضخامتها رسول الله ﷺ في معراجه ، وبين ما اكتشفه العلماء ويكتشفونه مما يضاعف وثاقة الصلة ، ويمنح المؤمنين طمأنينة الإيمان الصحيح .

ومن هذه الوثاقة في إحكام الصلة بين المعراج وكشوفات العلم الحديث، وما يكتشف منها قريباً أو بعيداً ، تفهم عظمة الله رب العالمين ، الذي كونها تكويناً ، وعيّن لها مواطنها في الفضاء ، وفرض عليها سننها ، وأفلاكها وأبراجها .

أجل يكفي أن تفهم من تصريحات رسول الله ﷺ ، عن سعة

العوالم التي عرج اليها ، وعن ضخامتها وعظمتها وأبعادها ، الصفات التي تليق بجلال خالقها ، والمهيمن عليها والمتصرف فيها ، والصفات التي لا تليق .. تفهم بطلان مذاهب الحلول العامة والخاصة . وبطلان زعمهم أن الله الخالق العظيم متسربٌ في مخلوقاته تسرب الجاذبية ...

وتفهم من رؤياه التي أنعم الله عليه بها ، تكريماً لعبوديته الضارعة ، معنى الإحاطة الإلهيّة بالناس وبأعمالهم ، وبالأرواح والملائكة الذين اجتمع اليهم ، وتحدث معهم . تفهمها من الوحي المعلن ، أن الجميع في قبضة قدرته وسلطانه ، وأنه يتصرف بهم كما يشاء ، وانهم جميعاً لا يزيدون عن الريشة ، في قبضة أشد الأبطال قوة وبأساً ومنعةً :

وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ ، وَما جَعَلْنا الرؤْيَا التي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ المَلْعونَةَ في القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبيراً (١٧ - ٦٠)

واحاطة الله بالكائنات المادية والطاقية عامة شاملة :

أَلَا إِنَّهُمْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحيط . (٤١ - ٥٤)

وَاللهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحيط (٨٥ - ٢٠)

وَللهِ مَا في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحيطاً . (٤ - ١٢٦)

والخلاصة أن كل كائنات الوجود ، هي خاضعة لإحاطة خالقها العظيم ، وانه لا يحيط شيء من الأشياء به جل وعز ، مهما كبر أو صغر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

العلم والوحي اليقينيان
يقدمان خصائص صفات الله جل وعز اليقينية

إنا نعيش في عصرٍ قمريٍ ، يتعمق علماؤه المفكرون الأعلام ، الدرس الطويل الحر ، والبحث العلمي الأمين ، والنظر العميق الفاحص ، لكل مواريث الانسانية . من أجـــل أن يتبينوا اليقين الثابت منها ، فيأخذوا به ويقبلوا عليه ويعلنوا عنه ... والظني الموهوم ، فيعرضوا عنه ويدعوا إلى تركه ، ولكن مع التزام الدعوة إلى الحرية المطلقة في الأخذ والترك :

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر (١٨ ـ ٢٩)

وعلماء الحضارة الحديثة ، لم يلموا عن كثب ، بحقيقة القمر الظاهرية الإلمامة الأولى التي عرضوها على التلافز ، وأدهشت العالم أجمع ، وأثارت في الأوساط كافة الأخذ والرد ، إلا بعد جهادٍ طويلٍ صارخ ، وتضحيات جلى ، إثر تضحياتٍ جلى تفوق الحصر .

وإذا كان كل ذلك الجهـــاد الشاق الهائل ، وكل تلك التضحيـــات الكبرى المتتابعة ، وكل هاتيك الحشود من رواسخ علماء الحضارة ، وكل بحوثهم واطلاقـات صواريخهم وعرباتهم ومحطاتهم الفضائيـــة ، من أجل التمكن من معرفة خصائص المجموعة الشمسية الأولى عن كثب . فما بالك

بما يقتضية الصعود ، إلى ما وراءها من المجموعات الشمسية، وما وراءها يعد بمليارات المليارات ، ولن يستوعبوها إلا بفروض العلم المادي وظنونه ونظرياته .

وإذا كان هذا شأن الإلمام ، بالمعارف الظاهرية للأكوان عن كثب ، فما بالك بالمعارف المتوارية خلف مظاهرها المادية ، وخلف وظائفها وأعمالها ، وخلف مراكزها ومجاريها في مجاهل أبعاد الفضاء السحيقة .

وإذا كانت كل هذه المجهودات يقتضيها كشف خصائص صفات الأكوان الخفية . فما بالك ألف ألف مرة بكشف خصائص صفات مبدعها ومكونها المهيمن عليها والمتصرف فيها ، بداية ونهاية وبقاءً ، وفق علمه وارادته وقدرته ..

إذن فكم تكون الجرأة فاحشةً ، والحرية عمياء ، والدراسة عرجاء ، ومكبلةً بأغلال التقاليد ، وأوهام فروض النظريات ، وظنون التأويلات، ودس النصوص الموضوعة ، حين تسمع فريقاً من المحاضرين يتحدثون عن خصائص صفات الله جل جلاله ، كما يتحدثون عن الجاذبية ، أو الأثير أو القمر أو المريخ أو الزهرة ، أو عن أي مذنب من المذنبات ، أو عن أي كائن من عالم الحيوان أو النبات .

لا لا — يا سادتي — !!

هذا حرام ، هذا خروجٌ عن حقائق العلم اليقيني ، وعن حقائق الوحي اليقيني .

لذلك تجدني التزم كل الالتزام في حديثي ، وفي كتابتي عن خصائص صفات خالقنا جل وعز : أصلين أساسين ولا انفصال بينهما :

الأول : حقائق الوحي اليقيني .

الثاني : حقائق العلم اليقيني . وهما لا ينفصلان ، ولا يتعارضان .

وكيف ينفصلان ، أو يتعارضان ، ومعارف العلماء اليقينية قبسٌ من معارف الوجود ، وكذلك معارف وحي الله ، بارقةٌ من أنوار علم الله الأزلي الشامل : أي مأتاهما واحد ، وهو الله الخالق العليم الخبير .

وإن سمعت خلافاً زعمه لك سطحي المعرفة طفل التفكير والتحقيق . فاعلم أن مأتاهُ من الفروض ، والتقديرات التي تضافُ إلى العلم اليقيني ، ومن الظنون والأوهام والتأويلات المزمنة ، والأساطير والترهات التي دست وتدس في وحي الله اليقيني من قبل الملحدين ، أو المخرفين .

وإني هنا في هذا المؤلف ، اختصر الحديث عن الأصلين الأساسين:

١ – حقائق الوحي اليقيني .

٢ – وحقائق العلم اليقيني .

ليعلم المطالعون المفكرون خصائص صفات الله العظيم في العلم والوحي . أما التوسعة فيهما فهذا شأن سواي من أعلام العلماء المتبتلين ، لتصفية المعرفة اليقينية ، من كل مواريث ثقافة البشر المختلطة ، وما أكثر الثقافات المختلطة في عصرنا ، وما أكثر الذين انبروا لتصفيتها .

خصائص صفات الله تعالى في الوحي اليقيني

إذا قصدت أن تعلم خصائص صفات الله الخالق العظيم ، على وجهها العلمي الصحيح ، فادرسها :

أولاً : في يقين الوحي الإلهَي ، وثانياً : في يقين العلم ، وقد تقدم ذكرُ جانب منهما . وفي ما يلي أعرض جانباً آخر . خذه متتابعاً ، في يقين نصوص الوحي الإلهَي – القرآن المجيد – ...

١ – أسماء الله وصفاته أزلية أبدية ، وجليلة ، وكاملةٌ ، وكلها

تدل على سلطان قدرته الخالقة التي لا يعجزها شيءٌ ، وتدل على رحمته الواسعة ، وعلمه الأزلي الشامل ، وعلى كل كمال يليق بجلاله :

قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوْ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنَى (١٧ - ١١٠)

هُوَ اللهُ الَّذي لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحيمُ (٢٢)

هُوَ اللهُ الَّذي لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ ٱلمُؤْمِنُ ٱلمُهَيْمِنُ العَزيزُ الجَبَّارُ ٱلمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللهِ عَمّا يُشْرِكُونَ (٢٣)

هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْماءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ (٥٩ - ٢٤)

والغاية أن الأسماء الحسنى ، المذكورة في نصوص وحي الله اليقيني ، هي خصائص ما يجب له من صفات الكمال .

٢ — كل الكائنات الموجودة في عالمنا ، أو في عوالم السموات هي تكوينية وهي متصفة بصفة العبودية له جل وعز ، ولا تستكبر عن عبادته ، ولا عن تسبيحه وتقديسه عن الشريك والنِّد ، وكل ما اتخذه أهل الأرض من آلهة ، هي باطلة ، إذ يستحيل أن يكون خلق الكائنات من صنع أسرة من الآلهة مكونة من إلهين أو أكثر ... إذ واضحٌ أن خصائص صفات الله الخالق العظيم ، يستحيل أن يتصف بها فردٌ من أفراد الكائنات ، ليصح أن يكون شريكاً لله في ملكه ، ونِداً ووزيراً ومعيناً ...

يا هؤلاء سبحوا الله الخالق العظيم، وقدسوه عن مثل هذه الأوصاف. فهو وحده رب السموات والأرض، رب العرش العظيم. ولا ريب أن سواه، من أي كون من الأكوان، هو صنع قدرته وإرادته وعلمه:

وَلَهُ مَنْ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَمَـــنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرونَ (١٩)

يُسَبِّحونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتَرونَ (٢٠)

أَمِ اتَّخَذوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرونَ (٢١)

لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمّا يَصِفونَ (٢١ - ٢٢)

وَهُوَ الَّذي في السَّماءِ إِلٰهٌ وَفي الأَرْضِ إِلٰهٌ وَهُوَ الحَكيمُ العَليمُ. (٤٣ - ٨٤)

وَللهِ يَسْجُدُ ما في السَّمٰواتِ وَما في الأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ (٤٩)

يَخافونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلونَ ما يُؤْمَرونَ (٥٠)

وَقالَ اللهُ لا تَتَّخِذوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِـــدٌ فَإِيّايَ فَارْهَبونِ (٥١)

وَلَهُ مَا في السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقونَ .
(١٦ ـ ٥٢)

٣ ـ الخالق العظيم ، يستحيل أن تكون ذاته مفصولة ، عن كونٍ من الأكوان ، المادية أو الطاقية ، أو ينفصل عنهـا شيءٌ من ذلك . فالانفصال يقتضي المثلية في الذات والصفات والأفعال ، والمثلية من صفات النقص ، المنزه عنها رب العالمين ، والانفصال بكل أنواعه من خصائص صفات الأكوان ، لا من خصائص صفات المكون ..

... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّميعُ البَصيرُ (٤٢ ـ ١١)
إنَّما أَمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أَنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٦ ـ ٨٢)

وهذا السبب هو الذي من أجله أنزلت سورة الاخلاص ، لأن زعماء قريش ، خالوا رسول الله يدعوهم إلى عبادة فردٍ من أفراد الكائنات المؤلهة ، شأن كل الأديان الوثنية المعتمدة في الجاهلية .

لذلك سألوه عن نوع الإلـه الذي يدعوهم لعبادتـه ، فتنزلت جواباً لسؤالهم :

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (١١٢ ـ ١و٢و٣و٤)

٤ ـ الله وحده المكون لكل الكائنات ، سواء المادية منها والطاقية، وسواء العاقلة وغير العاقلة ، وباطلٌ الزعم أن الله طاقة روحية عاقلة حالّةٌ في كل الأكوان ، والزعم أنه طاقة روحية خاصة أيضاً . لا لا . الله جل جلاله أزلي قديم ، لا أول لوجوده ولا آخر . بل :

هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم.

(٥٧ ــ ٣)

وكيف يكون الله طاقة روحية عامة ، أو طاقة روحية خاصة ، وهو خالق الطاقات كلهــا العاقلة كالأرواح والجن والملائكة ، وغير العاقلــة كالجاذبية والأثير والضوء .

لعلك تتوهم أن الموجود لا يكون إلا كذلك ، من أجل ذلك زعموا الحلول .

نعم الله موجود حقاً وصدقاً ، والكائنات كافة دلائل وجوده الناطقة، ولكن لا يعلم حقيقة ذاته وصفاته إلا هو :

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (٢٠ - ١١٠)

ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)

لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ.

(٦ ــ ١٠٣)

وما دامت الطاقات الروحية العاقلــة : كالجن والشياطين والملائكــة والأرواح هي بعض مخلوقاته،فكيف يكون هو مثلها . تعالى الله عن ذلك .

وجاء هذا الانحطاط المخيف ، مــن سوء فهم خصائص صفات الله الخالق العظيم ، وسوء الفهم ينتج عن الجهل ..

وَجَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ

عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمّا يَصِفونْ (٦ ـــ ١٠٠)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَميعاً ثُمَّ يَقولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيّاكُمْ كانوا يَعْبُدون (٤٠)

قَالوا سُبْحانَكَ أَنتَ وَلِيُّنا مِنْ دونِهِمْ بَلْ كَانوا يَعْبُدونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنونَ (٣٤ ـــ ٤١)

والسبب ان الملائكــة محالٌ ان يشجعوا أحداً على عبادتهــم ، لأنهم أطهارٌ لا يعصون الله أبداً ، إنما يفعل ذلك الجن ، لأنهم مختارون ، ولأن الكفر والفسوق يكثر في غير المؤمنين منهم .

وعبّادُ الجنّ يستعيذون بهم من دون الله :

وَأَنَّهُ كَانَ رِجالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادوهُمْ رَهَقاً (٧٢ ـــ ٦)

ومهما يكن فالذين يعبدون غير الله الخــالق العظيم ، تتنزل عليهم الشياطين لأجـل إضلالهم ، ولأجل استمرارهم في كفرهم ، وتشجيعهم عليه حتى يتخيلوا ما هم عليه من عبادة غير الله هو الحق والعلم والواقع .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (٢٢٠) تَنَزَّلُ عَلى كَلِّ أَفّاكٍ أَثيمٍ (٢٦ ـــ ٢٢١)

وَجَعَلوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّــةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرونَ(١٥٨) سُبْحانَ اللهِ عَمّا يَصِفونَ (٣٧ ـــ ١٥٩)

والنَّسبُ الذي جعلوه ، هو زعمهم أن الجنة والملائكة والأرواح ، منفصلة عن ذاته تعالى ، ولذلك عبدوها بحجة أنها بنون وبنات ٌ لله ، هذا وصفهم لله تعالى . والله منزه ٌ ومقدس عن مثل هذا الوصف الجاهل الخاسر الأرعن ...

٥ ـ ومن خصائص صفاته ، أنه لا يكلم عباده وجهاً لوجه ، كيف يصح ذلك ، والأرض والسموات بكل عوالمها الهائلة تنطوي في يمينه . بل يكلمهم بالطريقة التي ذكرها لنا :

وَما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسولاً فَيوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤٢ ـ ٥١)

أجل هو أعلى من المواجهة كل العلو ، وإنه سبحانه وتعالى تنزه وتقدَّس عن ذلك .

وتأمل كيف سمع موسى نداء الوحي الإلهَي من الشجرة :

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلونَ (٢٩)
فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِيءِ الوادي الأَيْمَنِ في البُقْعَةِ المُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ (٢٨ ـ ٣٠)

وانظر شأن موسى ، حين طلب إلى الله ، أن ينظر اليه ، حين جاء لميقاته الذي عينه له .

وَلَمّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنا وَكَلَمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ. (٧ — ١٤٣)

وكان خاتم رسل الله سيدنا محمد ﷺ يسمع الوحي بأذنه كصلصلة الجرس ، وأحياناً يرى الروح الأمين يخاطبه بالوحي . وأحياناً يتزله على قلبه فيسمع الوحي ينبعث من أعماقه :

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٢٦ — ١٩٤)

ولما كان جماعات من البشر ، اتخذوا آلهة مختلفة من أفراد الكائنات ، وتصوروا أن كل إلَه له يدٌ في الخلق والايجاد وتصريف أعمال الكائنات ..

ولما كان كل ذلك باطلٌ في باطل ، أفهمهم في خاتم وحيه المعجز ، الصفة الحقيقيــة الخاصة برب العالمين ، وخالق الخاق أجمعين . أفهمهم أن الخلق والايجاد والتصريف والهيمنــة والسلطان في كل شيء هي لــه وحده ، وأنــه منزهٌ ومقدسٌ عن الشركة في شيء ما من الكائنات ، وكل ذلك إشراك وكفر ..

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ (٢٨ — ٦٨)

وتأمل معجزات الرسل والأنبيـــاء ، التي يؤيدهم الله بهـــا تثبيتاً لهم واعلاناً لصدقهم ، هي من فعله وحده :

فَفَهَّمْناهَا سُلَيْمانَ وَكُلّاً آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنّا فَاعِلِينَ (٢١ ـــ ٧٩)

حتى الذين يفعلون الجرائم ، إنمـــا يفعلونها بمقتضى منحهم الحريـــة المختارة ، التي سبقت بها حكمة الله التكوينية ، أن تكون لعالمي الانس والجن ، ولو شاء الله أن يجعلهم مجبورين في أعمالهم شأن الملائكة ، لما استطاعوا فعل ذلك :

وَكَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْـلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدوهُمْ وَلِيَلْبِسوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرونَ (٦ ـــ ١٣٧)

٦ ـــ رسل الله عبادٌ مكرمون أبرارٌ أطهارٌ ، صادقون مخلصون ، معصومون عن المـآثم كلياً كبارها وصغارها .

ووظيفتهم أجلُّ وظيفـــة في الوجود ، هي دعوة إخوانهم البشر إلى عبادة الحق جل وعلا وتقريبهم منه .

وهم لا يدّعون الألوهية لأنفسهم ، ولا يطلبون إلى أتباعهم عبادتهم . وكل ذلك ظاهر في نصوص الوحي اليقيني :

يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِروا أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا أَنا فَاتَّقونِ (٢)

خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمّا يُشْرِكونَ (١٦ ــ ٣)

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقولَ لِلنَّاسِ كونوا عِباداً لي مِنْ دونِ اللهِ وَلٰكِن كونوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمونَ الكِتابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسونَ (٣ ــ ٧٩)

وَلا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذوا المَلائِكَــــةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمونَ (٣ ــ ٨٠)

٧ – وحي الله يكشف للعلماء المؤمنين ، أن الأرواح الشريرة الكافرة – شياطين الجن – يُثيرون – بما يملكون من طاقات فعّالة – شهوات الجنس والمال والجاه والسلطان ، لعبادتهم من دون الله ، وتمكينهم من كل ذلك ، بأخبث الوسائل وأشرها وأكفرها ..

شأن شياطين الإنس الذين فرضوا ألوهيتهم وعبادتهم على الناس فرضاً : كفرعون ونمرود وسواهمـــا . ولا يترفعون عـــن البطش بالذين يرفضون ألوهيتهم وعبادتهم .

والحق أن كل عبادة لغير الله ، هي تمردٌ على حقائق الوجود العليا ، وكفر بمثل الانسان الخالد ، التي أوحاها الله في كتبـه السماوية المنزلة ، وانحراف عن وقائع العـــلم اليقيني ، ومصالح الأفراد والجماعات كافـة :

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظيمٌ (٢٣)

وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُــمُ

الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ فَهُمْ لا يَهتَدونَ (٢٧ ــ ٢٤)
وَقالَ فِرْعَونُ يا أيُّها المَلأُ ما عَلِمتُ لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْري فَأَوْقِدْ لي يا هامانُ على الطِّين فاجْعَلْ لي صَرْحاً لَعَلّي أَطَّلِعُ إلى إلٰهِ موسى وَإنّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الكاذِبينَ (٢٨ ــ ٣٨)

وهذا سيدنا ابراهيم الخليل لما رأى أباه وقومه يعبدون الأحجار التي ينحتونها ، اعتبرها عبادة للشيطان ، لأنه هو الذي يزين لهم ويساعدهم على ذلك :

يَاأبتِ إنى قَدْ جاءني مِنَ العِلْمِ ما لَمْ يأتِكَ فاتَّبِعْني أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيّاً (٤٣)
يا أَبتِ لا تَعبُدِ الشَّيْطانَ إنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً (١٩-٤٣)

ولا ريب أن صفات الشيطان كلها نقصان ، وهي مستحيلة على رب العالمين .

وجاء في سورة ياسين :

أَلَمْ أَعهَدْ إلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أَنْ لا تَعبُدوا الشَّيْطانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ (٣٦ ــ ٦٠)

٨ ــ رضي البشر بالدون من الدين ، ولم يرضوا بالدون من العيش، فتجدهم يدأبون ويضحون ويسهدون ويركبون الأخطار من أجل السموّ بكل أسباب العيش،أما تشاهدهم شيدوا المختبرات الكيميائية الضخمة ؟!! والجامعات العلمية الفخمة ؟!! والمصانع الكبرى المختلفة ؟!! لأجل التطور

والاحسان والتقدم بالمواصلات ، والاجادة في الطبابة ، والابداع في أنواع السكن والفنون وكل مرافق الحيـاة .. ولكن والأسف يحز النفوس ، لم يفعلوا شيئاً من ذلك لأجل التخلص مـن الانحطاط العقائدي ، بل ظلوا مستمسكين بما ورثوه من آبائهم وأجدادهم ، ولو كان ما ورثوه عبادة الشيطان أو الحيوان أو النبات أو الأحجار ، أو الأرواح .

وكان هذا الانحطاط هو السببُ في عدم التمييز بين خصائص صفات الله الخالق العظيم ، التي تليق بجلاله ، وخصائص صفات أفراد الكائنات، التي اتخذت آلهة وعُبدت من دونه عمْدَ العامدين وإصرار المصرين،وتقليد المقلدين والائتساء بالآباء ، ولو بالهوي في مهاوي الضلالة ، والجهالـة والردى .

والآن ينبغي للمطالعين أن يتعمقوا الآيات الآتية ، فإنهم يلمسون كيف يتعمد البشر المنحرفون الجاهلون المقلدون عـدم الاهتمام بخصائص صفات الله خالق الوجود :

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالوا بَلْ نَتَّبِـعُ مَا أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءنا أَوَلَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدونَ (٢ ـ ١٧٠)

واتباع الأبناء للآباء عـلى العمى والصمم عن كل جديد نـافع داءٌ عياءٌ مزمنٌ .

فَلَا تَكُ في مِرْيَةٍ مِمّا يَعْبُدُ هٰؤُلاء مَـا يَعْبُدونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُـوَفُّوهُمْ نَصيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقوصٍ (١١ ـ ١٠٩)

لا ألوهية للأكوان ، أيـاً كانت من مادةٍ أو طاقة عاقلـة أو غير عاقلة . إنما الألوهية للمكون وحده جل وعز .

ولكن للأكوان العبودية ، هذه العبودية للمكون جل وعز ، هي شرف الكائن، ومحل اعتزازه وفخاره وسموه ورفعته وقربه من خالقه، وتكبيره له..

والله منزهٌ عن مشابهــة الأكوان ، التي أشهده إياها ليلــة الإسراء والمعراج ، ومنزه بصورة خاصة عــن عجزه عن فعل ذلك ، هــذا مدلول: سبحان الذي اسرى بعبده. ولما كان شرف العبودية لرب العالمين ، ماثلاً في الذات المحمدية بأجلى مظاهره ، في كل ما يأخذ به أو يدع، كرّمها سبحانه وتعالى بنسبتها اليه ورضاه عنها ، والتنويه بها في وحيه ، بقوله جل وعز :

سُبْحَانَ الَّذي أَسرى بِعَبْدِهِ ... (١٧ ـــ ١)

والعبودية صفة الكائن المحدود بحدودها، وهي من خصائص المخلوقين. وتخالف صفة الألوهيــة ، التي هي أولى الصفات الخاصة بالله الخــالق العظيم ، حتى في الاطلاق اللغوي . لأنها مطلقة غير محدودة ، ولا يجوز اطلاقها على غير الله أبداً ، في يقين العلم .

خذ مثلاً الشمس المؤلهة لدى فريق من البشر ، فإنها محدودة بحدود فلكها هي وأضواؤها وطاقاتها الحرارية . فكيف توصف بالألوهية المطلقة . هذا مناقض للواقع . يقول الله تعالى :

هٰذا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَروا بِهِ وَلِيَعْلَموا أَنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولو الأَلْبابِ (١٤ ـــ ٥٢)

ويقول :

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ (٤٨ ـــ ١٩)

نعم هناك ألفاظ مطلقات ، على صفات ذات الله الخالق العظيم غير المحدودة ، وأسمائه كالعلم والإرادة والسمع والبصر والحياة والكرم والقدرة ، تطلق على الكائنات العاقلة المحدودة بحدود العبودية ، شأن كل مخلوق لله الخالق العظيم .

فمثلاً العلم المطلق الشامل لما كان ويكون أزلاً وأبداً ، هو لله وحده . ويكون حادثاً محدوداً ، إذا أطلق على غير الله جل وعز كالملائكة والإنس والجن .

وهذا وضع سائر الصفات المستعملة في حق غير الله جل وعز .

نعم هناك صفة أخرى لا يجوز اطلاق لفظها لغير الله جل وعز هي القيومية بالنفس ، فإنها صفة دائمة غير محدودة بحدود العبودية ، فلا يجوز أن تقول لأي كائن إنه قائم بنفسه ، أي خارجاً عن الخضوع لسلطان الجهات الست . الله وحده هو الحي القيوم .

لا ريب أن الخالق العظيم منزهٌ ومقدسٌ عن كل صفات النقص ، الخاصة بالصنف الانساني كالعجز والموت والنسيان والتردد والندم والتعب والضيق والتقاتل والسِّنة والنوم ، وما أشبه ذلك، من خصائص صفات المخلوقات . واليك نصوص الوحي اليقيني التي تكشف لك هذه الحقائق:

اللهُ لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم ... (٢ ــ ٢٥٥)

وجاء في نفي العجز والتعب عن الله قوله تعالى :

أَوَلَمْ يَرَوْا أنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السّموات والأَرْضَ ولَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى ... (٤٦ ـ ٣٣)

وَلَقَدْ خَلَقْنا السَّمٰوات وَالأَرْضَ ومَا بَيْنَهُما في سِتَّةِ أَيَّامٍ ومَـا مَسَّنا مِنْ لُغوبٍ (٥٠ ــ ٣٨)

واللغوب : التعب والإعياء

والله لا ينسى ، مستحيل ذلك :

يَومْ يَبْعَثُهُمْ اللهُ جَميعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَـا عَمِلوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٍ (٥٨ ــ ٦)

أما قوله تعالى :

نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ٩ - ٦٧

أي أهملهم جزاء نسيانهم حقوق الله عليهم . وهذا من باب المشكلة البلاغية . ورد في النصوص الأدبية :

اقترحْ شيئاً نُجدْ لك طبخهُ قُلتُ اطبخوا لي جُبَّةً وقميصا

فهرست